"مسافر في مركب ورق"

ابن سنّية أبانوز

مسافر في مركب ورق

ابن سنّية أبانوز

أسامة غريب

أدب رحلات

تدمك : 978_977_380_249_9

رقم الإيداع : 19370 / 2009

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 1431هـ/ 2010م

الناشر

هاتف وفاكس : 22620348(00202)

الموقع الإلكتروني

www.dareloloom.com

البريد الإلكتروني

daralaloom@hotmail.con
daralaloom2002@yahoo.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مسافر في مركب ورق

ابن سنّيّة أبانوز

أسامة غريب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إهداء

إلى فريدة الشوباشي

مع محبة وجدت.. لتبقى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مركب ورق من نفخة تتطوّح

ركبتها والكل بيلوّح

سوّحت فيها 52 سنة للآن

و لا بتغرق..ولا تروّح

عجبي

صلاح جاهين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة

كنت أحلم منذ الطفولة بأن أسافر كثيراً وأطوف ببلاد العالم المختلفة وأضع قدمي في كل مكان.

كانت صورة السندباد البحري الذي قرأت قصصه في ألف ليلة وليلة في خلفية تفكيري وأنا أتمنى أن أشاهد ما شاهد وأمر بما مر به.. بصورة عصرية طبعًا.

ولا أدري اليوم وقد تحقق هذا الحلم بأكثر مما كنت أتمنى، هل لو عادت بي الأيام إلى الطفولة من جديد هل كنت أكون على نفس الإصرار ونفس الرغبة؟.. لا أدري. لكن ما أدريه أن السفر مثل القعود يحمل ما يفرحك كما يحمل ما يشقيك، لكني ما زلت على شغفي به.. أحبه وأحرص عليه كلما كان ممكنًا.

وقد بدأت رحلاتي التي قمت بها وحدي من أيام المدرسة الإعدادية عندما انضممت لفريق الرحالة بمركز شباب الجزيرة.

وقد حكى لنا قادتنا في المركز وقتها عن الرحالة الكبار في التاريخ الذين تركوا سيراً عن الأقطار والممالك التي مروا بها في ترحالهم ومن

أشهرهم ابن بطوطة الرحالة العربي المعروف وكذلك الإيطالي ماركو بولو.. كما حكوا لنا عن السفر في العصر الحديث وأفاضوا في الكلام عن وسائله وطرائقه ونظرياته.. وكأن كل شيء لا بد أن تكون له نظريات!.

وانصب جانب كبير من المحاضرات النظرية عن "الأوتوستوب" كطريقة فعالة وحديثة في السفر يمكن من خلالها لعشاق الترحال أن يقطعوا مسافات كبيرة دون أن تتكلف ميزانيتهم أعباء تذكر. ورووا لنا أن الآلاف من الشباب في الغرب يستخدمون هذه الطريقة في التنقل والسفر كل يوم وأن علينا أن نبدأ أولاً بالسفر الداخلي ومعرفة كافة ربوع الوطن أولاً قبل أن ننتقل للمرحلة التالية وهي السفر خارج مصر.

والأوتوستوب لمن يجهله هو أن تشير على الطريق لأي سيارة يتكرم صاحبها باصطحابك لجزء من رحلتك ثم تكمل الرحلة مع متكرم آخر.. وهكذا.

وقد أعطوا كل منا دفترًا مطبوعًا عليه شعار الجمعية وطلبوا منا أن نستخدمه عند القيام بالرحلات، وأن نطلب من رجال المرور على الطريق أن يسجلوا لنا في الدفتر ما يثبت أننا قطعنا هذه المسافة ومررنا بهذه النقطة ليكون ذلك بمثابة سجل لنا مثل الذي لدى الطيارين والذي يسجل لهم عدد ساعات الطيران التي قطعوها.

وأذكر أننا بدأنا أول رحلة من مركز الشباب وظللنا نسير على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكورنيش في طريقنا إلى الإسكندرية حتى وصلنا إلى قليوب ومن بعدها بدأنا نشير إلى السيارات على الطريق حتى وصل كل منا بمعرفته إلى الإسكندرية، ثم تلاقينا عند الحديقة الصغيرة المواجهة لمسجد سيدي بشر حيث نصبنا الخيام التي صنعناها من ملاءات السرير وقضينا أسبوعًا بالقرب من شاطئ البحر بتكلفة محدودة للغاية.

كانت الرحلة الأولى مفيدة على قدر ما صادفنا فيها من معوقات، لكنها لم تكن مشجعة بالقدر الكافي بالنسبة لي حتى أعيد تكرارها.

ويبدو أن قادتنا بالمعسكر في مركز شباب الجزيرة وقتها قد تصوروا أنفسهم أوروبيين وتصورونا رحالة من شمال أوروبا، ولم يدركوا أن بعض السادة أمناء الشرطة والضباط الذين مضينا إليهم طالبين توقيعهم في الدفتر قد أشبعونا سخرية واستظرافًا ولم يفهم أي نطع منهم أنهم إنما يجرحون مشاعر غضة لفتية أبرياء متقدين حماسة ومحبين لوطنهم يظنون العالم هو مكان محترم ويعتقدون أن مصر جزء من هذا العالم!

والحقيقة أنني لم أفهم وقتها وما زلت لا أفهم حتى الآن ما الذي يثير الضحك والسخرية لدرجة القهقهة وتبادل طرقعة الكفوف بشأن فتية يقومون بالترحال ويطلبون من موظف عمومي أن يساعدهم ويضع توقيعه الكريم في الدفتر، غير أنها القسوة والجلافة وموات الروح.

وطبعًا لم يعلموا أنهم باستهزائهم بأحلامنا قد تسببوا لنا بشروخ نفسية وجعلونا نكفر بالدفتر الذي سلمه لنا أساتذتنا الواهمين ففضلنا

أن نقوم بتمزيقه على ألا نطلب أن يضاف إلى سيرتنا الذاتية أميال قطعناها إذا كانت تحتاج إلى توقيع هؤلاء.

كذلك لم يعلم قادتنا الحالمين أن السادة قائدي السيارات الذين سيتوقفون لنا على الطريق لن يخرجوا عن سائقي النقل والتريلات السكاري المحششين المبرشمين، وأن سيارة ملاكي يقودها شخص طبيعي وفي كامل وعيه لم تتوقف لأحدنا قط!.

الخلاصة أنني وجدت أن الترحال الداخلي بدفتر من خلال منظمة أو ناد اجتماعي هو أمر مثير للرثاء يحتاج إلى مجتمع ناضج به مؤسسات متحضرة تحترم النشاط الإنساني وتحنو عليه، وهو الأمر الذي لا يزال غائبًا بعد أكثر من ثلاثين سنة على تلك الأيام.

بعدها قررت أن أوجه الشغف بالسفر والترحال إلى سكة الخارج حيث العالم الرحب والأفق المفتوح وحيث السماء هي السقف.

قمت باستخراج جواز سفر بعد نهاية امتحانات الصف الأول الثانوي ونويت السفر إلى لندن. ومن حسن حظي أن أبي ـ رحمه الله ـ كان رجلاً متفتحًا يملك عقلاً راجحًا وقلبًا من ذهب فلم يقف في طريقي أو يمنعني بسبب صغر سني، بالعكس شجعني وشد من أزري وكان يزودني بالمال في حدود استطاعته.

في ذلك الوقت كان هناك كيان مضحك اسمه المجلس الأعلى للشباب.. وأظنه لا يزال موجوداً. وكان له رئيس حديث السن تم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختياره من بين الشباب! وأخذت الصحف تمتدح اختيار وزير للشباب من الشباب، وكأنك إذا اخترت شابًا لرئاسة مؤسسة بيروقراطية هرمة وطلبت منه أن يديرها مثل أسلافه تكون قد حققت إنجازًا!.

كنت أعتقد وأنا في هذه السن الصغيرة ـ وما زالت قناعتي لم تتغير ـ أن المسؤول الصالح هو المسؤول المنتخب الذي يشعر بأنه مدين للناس الذين أتوا به للمنصب هو ومن يرأسونه، أما الذين يتم تعيينهم بدون مناسبة شيوخًا كانوا أم شبابًا فلا يفيدون إلا أنفسهم.

العجيب أن هذه المقولات التعيسة ظلت مصاحبة للأداء السياسي طوال السنوات الطويلة الماضية رغم تغير العهود، بمعنى أن يقوموا باختيار امرأة او اثنتين لبعض المناصب الوزارية ويعتبرون هذا إنجازًا في سكة تمكين المرأة، أو يختاروا قبطيًا أو اثنين ليكونوا وزراء ويعتبرون هذا فتحًا كريمًا في تمثيل قوى المجتمع في السلطة. مع أن من تم اختيارهم من الشباب أو من النساء أو من الأقباط كانوا يمثلون السلطة الجهول أفضل تمثيل ولم يستفد من وجودهم لا الشباب ولا النساء ولا الأقباط!.

والغريب أن نفس السلطة التي اختارت هذا الشاب بدون مناسبة للمنصب هي التي قامت بوضعه في السجن لسنوات طويلة بعد ذلك عقب الحكم بإدانته في قضية فساد ورشوة! على الرغم من أنه قبل سجنه مباشرة كان قد قام بتأليف أغنية في مدح السيد الرئيس مع أنه لم يعرف عنه كتابة الأغاني. لكن يبدو أن الغنوة (وكانت ركيكة للغاية) لم تلق استحسانًا ولم تشفع له فحبسوه!.

في هذا العام قام السيد المذكور في حركة مباغتة بإصدار قرار بإلغاء سفر الشباب والطلبة!.

وهنا لا بد أن نعي أن الذي قام بمنع الشباب من السفر حتى الذين يحوزون تأشيرات من السفارات الأجنبية لم يكن وزير الداخلية. لكنه كان وزير الشباب!!.

وهذا لعمري يشبه أن يقوم وزير الصناعة بإغلاق المصانع ووزير الزراعة بتبوير المزارع ووزير الآيس كريم بلحس الإنتاج كله!.

والحجة الجاهزة طبعًا لدى السلطة التي جعلت رقبة مصر في حجم السمسمة هي سمعة مصر التي ستتأثر بسفر الشباب ومحاولتهم البحث عن عمل بالخارج!.

ظللت بعدها أنتظر ثلاث سنوات حتى دخلت الجامعة وبعد نهاية العام الأول بكلية الإعلام هرعت إلى مكتب استخراج الجوازات ثم قمت بشد الرحال إلى فرنسا وقضيت بها خمسة شهور، وفي العام التالي سافرت في الإجازة إلى النمسا ويوغوسلافيا واليونان، وفي العام الذي يليه ذهبت إلى النمسا من جديد.

وكانت لي بكل مكان من هؤلاء حكايات وحواديت مع البشر ومع الناس الذين تمثل معرفتهم المكسب الأساسي من السفر، وهناك اطلعت على الدنيا وعلى صندوق الدنيا ورأيت العالم بعيون جديدة مختلفة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعد التخرج منحني العمل بشركة طيران فرصة ذهبية لأسافر إلى معظم بلاد الدنيا . . فشاهدت العالم شرقًا وغربًا وسرحت على الخريطة شمالاً وجنوبًا وكونت صداقات وذكريات لا تنسى في كل مكان .

بعض الأماكن التي زرتها كانت أحداث الزيارة فيها تمتلئ بالدراما بما يصلح لحكيها والكتابة عنها ، وبعضها كانت مجرد رحلات سياحية عادية مما تسعد السياح لكن لا تحمل الوهج الدرامي ولا تصلح للكتابة عنها .

وعندما شرعت في كتابة مجموعة قصصية تنتمي لجنس أدب الرحلات كان في خيالي أن أبتعد تمامًا عن الصورة السياحية التي عادة ما ينزلق إليها من يكتبون في هذا النوع من الأدب أو معظمهم . فلا أتصور أبدًا في القرن الحادي والعشرين أن أحكي للقراء عن برج بيزا المائل أو عن متحف اللوفر أو ساعة بج بن . ليس بسبب انعدام أهمية هذه الأماكن ، ولكن لأن أصغر طفل يجلس على النت يستطيع أن يحظى بجولة سياحية ويرى فيها عجائب الدنيا السبع القديمة وعجائبه الجديدة أيضًا .

إذًا اهتمامي الأساسي فيما أرويه للقارئ من حكايات هو البشر فهم دنياي وعالمي الأثير ومنه اغترفت اللآلئ كما استخرجت الصخور والحصى .

في هذه المجموعة من الحواديت رويت لكم ما عشته شخصيًا وكنت بطلاً لأحداثه ، وكذلك ما رأيته وكنت شاهدًا عليه وقريبًا من أبطاله .

ولهذه المجموعة من الحكايات قصة طريفة سأرويها لكم .

عندما شرعت في كتابة الحلقات اتفقت مع صحيفة يومية مرموقة على نشر حلقاتها بواقع مرتين في الأسبوع . . واحدة يوم الأحد والأخرى يوم الأربعاء .

وقتها قلت لرئيس التحرير وهو صديق أعتز به : أرجوك لا أريد أن يكون النشر بشكل عشوائي كما حدث في الرواية السابقة " همام وإيزابيلا " (ولها حكاية قد أرويها لكم في موضع آخر) التي نشرت حلقاتها الأولى بانتظام ثم بدأ النشر يتعثر ويعجز القراء عن المتابعة عندما يشترون الصحيفة في اليوم الموعود ولا يجدون الحلقة ، ثم تباغتهم الصحيفة بالنشر في يوم آخر بدون تنويه أو توضيح أو حتى اعتذار .

وعدني الرجل بأن الحلقات ستنشر بانتظام ولن يكون هناك إخلال بالمواعيد .

وبالفعل تم نشر عشر حلقات بانتظام أيام الأحد والأربعاء . ثم فوجئت وفوجئ القراء المتابعون للحلقات باختفائها من يوم الأحد والاكتفاء بيوم الأربعاء فقط في الحلقات الخمس التالية . . ورغم أن هذا يخالف اتفاقنا إلا أنني لم أر بأسًا في ذلك .

وقتها كنا قد وصلنا إلى الحدوتة قبل الأخيرة واسمها " ليالي الأنس في فيينا " التي رويت فيها أحداث رحلة إلى النمسا كانت شيقة ومثيرة وأحداثها الإنسانية اللاهثة تقطع الأنفاس ، وكنت قد كتبتها في عدة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حلقات تم نشر جزئها الأول يوم الأربعاء وجزئها الثاني يوم الأربعاء الذي يليه ثم أرسلت إلى الصحيفة الجزء الثالث من القصة .

يوم النشر صحوت على تليفونات تسألني عن سبب عدم نشر الجزء الثالث من الحدوتة . أجبت كل من سألني صادقًا بأنني لا أعلم . وعندما أتى الأربعاء الذي يليه لم تنشر أيضًا . وترتب على هذا طبعًا أنني لم أرسل بقية أجزاء الحدوتة ولا الحكايات التالية .

واليوم بعد مضي عدة شهور إذا سألتني عن سبب توقف النشر سأجيبك بأنني ما زلت أجهله ، فإذا ألححت وسألتني إذا كنت قد استعلمت من رئيس التحرير ومديري التحرير وبقية العاملين بالجريدة ومعظمهم أصدقاء شخصيون لي عن الأمر سأجيبك بأني قابلتهم عشرات المرات ولم أسأل أبدًا عن السبب . وعدم السؤال لا يرجع إلى الترفع . . رغم أنه موجود ، لكن يهيًا لي أنني لم أهتم بالسؤال لأن نشر الأدب بالصحف ليس هدفًا لي في حد ذاته ، لكن بسبب حالة الكسل فإنني أكون بحاجة إلى ارتباط أو التزام يجبرني على الجلوس إلى المكتب . . أقصد الجلوس على الكنبة وكتابة ما عندي . لأنني إذا ما تُركت لشأني فإنني في الغالب سأفضل القيام بعمل أحلى من الكتابة مثل صحبة الأصدقاء أو دخول السينما أو قراءة كتاب تعب فيه شخص آخر . . وهذه الحلقات مثلها مثل حلقات رواية همّام وإيزابيلا كنت أكتبها على الهواء أي قبل النشر بيوم ! .

لكن ذات مرة في حديث مع صاحب الجريدة جاءت سيرة الموضوع ففسره لي تفسيرًا غريبًا . . قال : ليست هناك أسباب . . إنما هي الغيبوبة ! .

ولن تجد هذه القصة (ليالي الأنس في فيينا) من ضمن حكايات المجموعة لأنني في الحقيقة بعد أن أوغلت في كتابتها ضننت بها على أن أسردها باختصار وقررت أن أرويها كاملة في رواية تحفظ لها أحداثها بدون ابتسار . . وأرجو دعواتكم أن أفرغ من كتابتها قريبًا .

كما أتمنى أن أجد الفرصة لأحكي بقية الحواديت التي تختزنها ذاكرتي قبل أن تبهت شعلتها في النافوخ ، ومن الممكن إذا صح العزم أن تكون هناك سلسلة من " مسافر في مركب ورق " بمعدل واحدة كل سنة .

وبالمناسبة هذه التسمية تعجبني لأني بالفعل لا أرى هذه الحياة إلا مركب ورق كما وصفها المرحوم صلاح جاهين حين تحدث عن حياته . .

أما أنا فبعد تجربة طويلة عريضة في السفر في بلاد الله فإنني أرجو من كل من يتمنى أن يسافر ويطوف ويشوف ويبحر في المركب الورق إلى العالم الخارجي أن يتأنى في الدعاء . . خشية أن يتحقق ما يتمناه ! .

أسامة غريب

القاهرة في أول سبتمبر 2009

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يومان وليلة في لندن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(1)

كانت دعوة "نجم" صديقه القديم مغرية تمامًا.

قال له نجم: خذ الطائرة وتعال.. تعال من غير ولا مليم.. الدعوة تتضمن إقامة كاملة.. يعني "فول بورد".

على كثرة سفرياته لم يكن قد زار لندن من قبل، ولهذا فما إن تأكد أن الدعوة صادقة وأن نجم يعنيها حقًا حتى استعد بالتأشيرة والتذكرة قبل أن يشد الرحال إلى عاصمة الضباب.

عندما تقدم بطلب التأشيرة إلى القنصلية البريطانية قام بملء استمارة مليئة بالأسئلة من ضمنها سؤال يقول: هل سبق أن تقدمت بطلب فيزا إلى لندن وتم رفض طلبك؟..

ضحك عادل من هذا السؤال قبل أن يكتب: نعم.

وكان السؤال التالي: إذا كانت الإجابة بنعم فما هو سبب الرفض؟..

سرح عادل في سبب الرفض وافتر وجهه عن ابتسامة عندما عادت إلى ذاكرته تلك الأيام..

لم يكن وحده الذي تم رفض طلبه في ذلك الصيف.. كل أصدقائه الطلبة تم رفضهم أيضًا لأن السيد الموظف القنصلي لم يصدق أنهم ذاهبون إلى لندن من أجل السياحة فعلاً، فلا مواردهم المالية كانت تسمح ولا كان أهلهم من الموسرين.

وقد فشلت حيلتهم في جمع فلوسهم كلها وإعطائها لمن عليه الدور في الدخول للمقابلة الشخصية ليريها للسيد قنصل الوز!.

أما صديقه "نجم" فكان قد قد استقر في لندن بعد أن سافر إليها في نفس ذلك الصيف الذي تم رفضهم فيه.. ومن عجب أنه كان واحدًا من الذين ذهبوا إلى القنصلية البريطانية وخرجوا منها بخفي حنين!.

تغلب نجم إذًا على القنصلية البريطانية ولم يستسلم لقرارها وسافر إلى لندن في عطلة الصيف تلك رغم أنف القنصل البريطاني، ثم قرر أن يكتفي من مصر بما لديه وأن يبدأ حياة جديدة خارج الوطن.. مفرداتها مختلفة وأناسها مختلفون.

ولما لم تكن الدراسة تمثل أحد أهم طموحاته في الحياة رغم ذكائه الواضح وشغفه بمعرفة كل جديد، فلم يكن قرار البقاء يحتاج منه إلى شجاعة كبيرة.

عمل نجم في البداية مثل معظم الطلبة المصريين في أحد المطاعم وتدرج بمرور الوقت حتى صار مديراً للمطعم الكبير، ثم استقل وفتح لنفسه مطعمًا يقدم المأكولات المصرية. وكان من حظه أن التقى في بداية حياته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بإنجلترا بفتاة إنجليزية أحبته وأحبها فتزوجها وأنجب منها، وكانت زيجته من عوامل الاستقرار في حياته.

ظل نجم مداومًا على الاتصال بعادل صديق الدراسة منذ أيام غمرة الإعدادية رغم أن الأيام فرقت بينهما، وقد كان من المفروض أن يسافرا معًا إلى لندن كما خططا طوال العام الدراسي لو سارت الأمور سيرها الطبيعي.. ولكن الأقدار كان لها رأي آخر.

نوى نجم وعادل أن يسافرا إلى لندن في ذلك الصيف ومعهما شلة الأصدقاء الذين كانوا يجتمعون بقهوة قشتمر لتدارس الموقف وتبادل الخبرات واستكشاف السفارات الطيبة التي لا تضن على الطلبة بتأشيرتها المكتوب عليها "سياحة" رغم أنهم جميعًا ذاهبون بغرض العمل والمغامرة وجمع بعض المال الذي ينفع في العام الجامعي لشراء الكتب والملابس.

عقدت شلة الأصدقاء العزم على السفر إلى لندن وتوجهوا بربطة المعلم ـ وكانوا ثمانية ـ إلى القنصلية الإنجليزية بجاردن سيتي..

وقد أسلفنا أنهم جميعًا قد تم رفض طلبهم بالسفر إلى المملكة المتحدة، ولم يفلت واحد منهم من شباك القنصلية الضيقة!.

في ذلك الوقت غيّر عادل برنامجه وتوجه بمرونة شديدة إلى السفارة النمساوية التي كانت أحن على الطلبة من مثيلتها البريطانية فمنحته وأصدقاءه تأشيرتها الجميلة المكتوب عليها "سياحة" وهي تعلم أنهم جميعًا ذاهبون لبيع الجرائد على أرصفة فيينا..

ويبدو أن قلة الإقبال على هذه الوظيفة الشاقة من جانب النمساويين قد جعلتهم يتسامحون في إعطاء الفيزا لمن يشاء من المصريين ويغضون الطرف عن التأشيرات المكسورة بعد ذلك!.

توجه عادل ومعه الرفاق جميعًا إلى النمسا إلا واحدًا فقط.. العنيد "نجم" وحده هو الذي أصر على أن يسافر إلى لندن مهما كلفه الأمر.

ومن أجل هذا فلقد قام بحركة لا يقدم عليها إلا المغامر الجسور.

أخذ بنصيحة أحد القدماء المعتّقين في السفر وحصل على تأشيرة أيرلندا كبديل عن تأشيرة إنجلترا ثم سافر متوجهًا إلى "دبلن" ومن هناك ركب العبارة التي نقلته إلى ميناء ليفربول الإنجليزي!.

كانت نصيحة الصديق بالسفر إلى أيرلندا ومنها بالعبارة إلى الشاطئ الإنجليزي شديدة الغرابة ولا يصدقها عقل، لهذا فقد خشي منها ورفضها الأصدقاء جميعًا، ومع هذا فقد كانت في الصميم وحققت نجاحًا مدهشًا فأوصلت نجم إلى هدفه كما أراده، وكان هو الوحيد الذي صدقها وآمن بها وقام بتنفيذها فوجد نفسه في إنجلترا بدون فيزا!.

نزل نجم من السفينة وتمشى على الرصيف دون أن يعترضه أحد، حتى وجد نفسه عند محطة القطار فوقف في الطابور لقطع تذكرة إلى لندن وهو يتوقع بين لحظة وأخرى أن يجد من يضع يده على كتفه ثم يقتاده إلى المخفر قبل إعادته على أول رحلة إلى القاهرة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلما لم يحدث ذلك ركب القطار وهو لا يصدق نفسه من الفرحة .
وفي لندن اختفى وسط الزحام ثم بدأ حياة جديدة كللت بالنجاح .

أما عادل فقد سافر إلى فيينا وقضى شهوراً بها ثم عاد فاستكمل دراسته وتخرج وبدأ حياته العملية بالقاهرة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(2)

وصل عادل إلى مطار هيثرو ولم يكن قد أخطر نجم بموعد قدومه حتى يكون للمفاجأة وقع كبير عندما يجد أمامه صديقه الذي غاب عنه سبع سنين.

اكتفى عادل بإخطاره بأنه سيأتي قريبًا إلى لندن وحصل منه على العنوان بالتفصيل.

في المطار سأل موظفة الاستعلامات عن كيفية الذهاب إلى محطة "إنجل" حيث يسكن أبو النجوم، فأحضرت خريطة ووجّهته إلى كيفية استخدامها وأوضحت له كيف يصل إلى العنوان بسهولة.

وجد عادل خرائط المترو اختراعًا هائلاً يسهل التنقل في أحياء لندن دون سؤال أي إنسان.

أخذ يجر حقيبته وتوجه إلى قطار الأنفاق أسفل المطار وركب "الخط الأزرق" واسمه خط بيكاديللي ومضى به طويلاً حتى محطة "كينجز كروس" وهناك قام بالتغيير فانتقل في نفس المحطة إلى نفق آخر حيث "الخط الأسود" واسمه الخط الشمالي وتوجه به إلى محطة "إنجل".

خرج من باب المحطة ونظر حوله يبحث عن شارع "كيستريل" فوجده قريبًا. سار ينظر إلى أرقام البيوت حتى أبصر مجموعة من العمارات الشاهقة الشبيهة بعمارات العبور بصلاح سالم، وفي واحدة منها تقع شقة نجم بالطابق الأخير.

وكان نجم قد أخبره بأن ناطحات السحاب هذه هي عمارات تقوم الدولة ببنائها ومنحها إلى من يحتاج إلى مسكن رخيص من البريطانيين، وبما أنه قد أصبح من البريطانيين فقد أخذ شقة!.

دخل إلى المصعد وضغط على الزر إلى الطابق الأخير وهناك وجد الشقة كما وصفها له صديقه تجاور السور المفضي إلى السلم.. ومن الشرفة خارج الباب يمكن رؤية جانب كبير من القطاع الشرقي لمدينة لندن.

داس الجرس وانتظر فلم يرد أحد. أرهف السمع ووضع أذنه على الباب فلم يصله صوت أي حركة من داخل الشقة.

شعر بالحيرة لهذا الموقف المفاجئ الذي لم يتحسب له.. كان نجم قد أخبره بأنه لا يخرج من البيت إلا إلى الشغل وبالعكس.. والساعة الآن تقترب من السابعة ولم يعد بعد، ولا حتى زوجته والطفل.

جلس على السلم لمدة ساعة ثم شعر بالملل فنزل إلى الشارع وهو لا يدري إلى أين يذهب، وكان أشد ما يضايقه هو هذه الشنطة الكبيرة التي يجرها بصعوبة وبها ملابسه الثقيلة لتقيه من برد ديسمبر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخذ يفكر في كيفية الخلاص من الحقيبة حتى يكون خفيف الحركة وينطلق في المدينة دون معوقات. فكر في العودة إلى المطار ووضع الحقيبة في صندوق أمانات، لكنه نبذ الفكرة واستثقل المشوار، ثم اهتدى إلى أن أفضل حل هو الذهاب إلى محطة قطارات قريبة وإيداع الحقيبة هناك.

أمسك عادل بالخريطة وأخذ يردد أسماء المحطات، وانتبه إلى اسم محطة شهير جداً يعرفه من الأفلام والمسلسلات الإنجليزية.. محطة فيكتوريا.

توجه من فوره إلى المحطة الشهيرة وفي مكتب الأمانات قام بوضع حقيبته لدى أحد الموظفين واستلم إيصالاً بها.

جلس على أحد المقاهي بالمحطة واحتسى كوبًا من الشاي، ثم قفل راجعًا إلى محطة "إنجل" من جديد وتوجه إلى العمارة الشاهقة آملاً أن يكون أبو النجوم قد عاد.

للمرة الثانية يطرق الباب ولا يرد أحد. خاب أمله وبدأ يشعر بالضيق، وحدّث نفسه: ماذا يحدث لو كان نجم على سفر ولا ينوي العودة قريبًا؟.. في هذه الحالة عليه أن يشق طريقه في لندن كما تعود أن يفعل في كل مكان سافر إليه منذ كان طالبًا حتى الآن. لقد كان السفر بالنسبة له متعة ما بعدها متعة، وليس غريبًا عليه أن يقضي أيامًا يتجول فيها وحده ويتعرف على هذا وذاك وعلى هذه وتلك ويبيت كل ليلة في مكان مختلف.

لكن المشكلة الآن أنه قد وطّن نفسه على قضاء أيام بصحبة نجم ولم يكن حتى يملك مالاً كثيراً يبدده في الفنادق، وبند الإقامة على أي حال هو أصعب البنود عند السفر. الأكل والشرب رخيص ومقدور عليه في كل مكان، لكن النوم هو الذي يحتاج إلى ميزانية.. و هو لم يعد صغيراً الآن على النوم في الحدائق كما كان يفعل وهو طالب.. ولا الجو في شتاء لندن كان يسمح لو رضي هو!.

عاد إلى محطة فيكتوريا التي أحس نحوها بألفة وأخذ يتسكع على أرصفة المحطة ويتجول بين المحلات ثم تناول ساندوتش هامبورجر في أحد المطاعم وجلس يفكر.

أكثر ما غاظه هو أن التليفون كان معطلاً عند نجم لفترة طويلة سابقة، ولهذا لم يحرص على تدوين الرقم!. والآن صار نادمًا على قراره الخاطئ بمفاجأة صديقه وزيارته دون إخطار وعلى عدم تدوين النمرة، فلربما كان التليفون يعمل الآن ومنه يعرف إن كان قد عاد أم ما زال بالخارج دون أن يضطر إلى القفز في القطارات جيئة وذهابًا.

لا مفر من العودة إلى بيت نجم للمرة الأخيرة قبل أن أقرر المبيت في فندق.. هكذا حدّث نفسه.

ما زال نجم بالخارج.. يالللحظ العجيب!.

نفض عادل عن نفسه الشعور بالضيق وعاد إلى المحطة من أجل أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يأخذ بعض الملابس من حقيبته ويتوجه إلى أحد الفنادق الرخيصة .

في المحطة فوجئ بأن مكتب الأمانات قد أغلق أبوابه وبأنه لن يفتح قبل الصباح .

خرج إلى الشارع وقد بدأت البرودة تشتد وتغزو عظامه فأحكم لف ملابسه حول نفسه وقام بتقفيل كل أزرار سترته ومع ذلك لم يخف شعوره بالبرد .

دخل إلى أول فندق صادفه فأخبروه في الاستقبال بعدم وجود غرف خالية . . سار في الشارع الهادئ والذي زاده الجو البارد وحشة حتى لمح لافتة فندق على البعد . توجه إليه وطلب غرفة مفردة فأجابته الفتاة الحسناء خلف المكتب بأن سعر الغرفة في الليلة هو ثمانون جنيهًا إسترلينيًا . قام بعمل حسبة صغيرة فأدرك أن ما معه من نقود لن يكفيه خمس ليال دون أكل أو شرب . . وهو على أي حال لم يعمل حساب هذا لأن الفلوس التي بحوزته مخصصة للتسوق وشراء الملابس من المحلات التي سيأخذه إليها نجم . . آه أين أنت يا أبا النجوم؟ ! .

خرج من ردهة الفندق في حيرة وشعر أن تفكيره مشوش بفعل البرد ثم بدأ المطر يهطل وهو لم يستعد حتى بإحضار مظلة ، وساهم الشعور بالجوع في خفض معنوياته ، ثم وجد أن أفضل ما يفعله هو أن يعود إلى المحطة يحتمي بها فأسرع الخطى وقد ابتلت ملابسه وأحس أنه يأخذ دشًا مثلجًا .

دخل إلى المحطة يلهث فوجدها صامتة بعد أن هدأ الضجيج الذي كان يلفها وقد كادت تخلو من الناس ووجد بعض الهائمين يجلسون متناثرين إما على دكة خشبية أو بالمقهى الوحيد الذي كان لا يزال يعمل . . وكان هناك من المشردين من أعد لنفسه فرشة إلى جوار أحد الأعمدة على الأرض واستلقى في هدوء .

جلس داخل المقهى وطلب شريحة بيتزا وكوبًا من القهوة القوية وأخذ يفكر في تكملة الرحلة على أسس جديدة بعد أن فقد الأمل في لقاء نجم .

عقد العزم على تمضية الليلة بالمحطة حتى الصباح ثم البحث من خلال مكتب الاستعلامات عن أحد بيوت الشباب حيث يضع حقيبته ويأخذ حمامًا ساخنًا ويستمتع بتناول الوجبات الكاملة الرخيصة التي تقدمها هذه البيوت في خدمة حقيقية للشباب تساعدهم على التجوال والسفر بما لا يجهد ميزانيتهم المحدودة . . وتذكر عادل أنه شخصيًا قد قضى أيامًا جميلة في بيوت الشباب في فيينا وبرلين وزيورخ وأمستردام .

قطع عليه استرساله في أفكاره صوت اقتراب خطوات منه . نظر إلى جانبه فأبصر رجلاً فخمًا أنيق الهندام يرتدي بدلة كاملة ومعطفًا من الصوف الإنجليزي الأسود .

حياه الرجل قائلاً : هاللو . فرد التحية وانصرف إلى طعامه . سحب الرجل كرسيًا وجلس في مواجهته وهو يبتسم في تودد .

قال الرجل : هل تريد مزيداً من الطعام؟ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رد عادل في دهشة : ماذا؟ هل أريد مزيداً من الطعام؟ من تكون؟ هل أنت نادل في المطعم تهتم بطلبات الزبائن أم ماذا؟ .

قال الرجل في هدوء : أنا شخص يشعر بالوحدة ويريد من يقضي معه وقتًا طيبًا، فهل تسمح بمرافقتي وأعدك بتلبية كل طلباتك من طعام وشراب وملابس، ويمكنك طبعًا أن تبيت معي بالبيت . . قال جملته الأخيرة وعلى شفتيه ابتسامة لعوب! .

شعر عادل بالقلق وقد أدرك ما يرمي إليه الرجل، وكانت لديه عقدة من أمثال هذا الرجل الذي صادف مثله كثيراً أثناء رحلاته وتسكعاته في مدن الغرب . . طاف بخيال عادل أن السكن والاستقرار كفيلان وحدهما بألا يلتقي بهذه الأصناف أبدًا، وتذكر أن المرات التي نزل فيها في الفنادق كسائح محترم لم يصادف خلالها أحداً من هؤلاء . أما حياة التسكع والنوم في محطات القطارات وتحت الأشجار في الحدائق فهي التي تغري هؤلاء الشواذ بالخروج وتصيد الرفاق من بين المشردين والجائعين والباحثين عن مأوى .

نظر للرجل وقال له في جدية : هل تعرف أين يمكن أن يكون نجم قد ذهب هذه الليلة؟

رد الرجل في دهشة : ماذا؟

قال عادل : أنا محتار في أمره . . هل يمكن أن يكون قد سافر خارج لندن؟ .

ابتلع الرجل دهشته ثم قرر التجاوب مع تخاريف عادل فقال : ربما كان قد ذهب إلى "برايتون" لقضاء إجازة ولن يعود قريبًا، ثم أردف : لكن لئن كان نجم قد ذهب فإن ريتشارد (وأشار إلى نفسه) موجود وتحت أمرك .

نظر إليه عادل في غضب وقال بصوت أفزع الرجل : اذهب وابحث في مكان آخر يا (. . .) يا ابن ال(. . . .) . . كان عادل ضليعًا في الشتائم الإنجليزية والأمريكية بكل أشكالها، وقد انتقى منها أقذرها مما حدا بالرجل إلى أن يبتعد وقد اكفهر وجهه! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(3)

كان الهواء البارد يدخل إلى المقهى مفتوح الأبواب من كل جانب فشعر عادل بأنه يكاد يتجمد، وكان أخشى ما يخشاه هو أن يمرض أو يصاب بنزلة برد تفسد عليه أيامه، فقام يتمشى في المحطة حتى يسري بعض الدفء في أطرافه، وأخذ يتأمل المعمار الجميل الذي يحمل سمات العصر الفيكتوري بكل أبهته وبهاه.

مال على دكة وأرخى جسده فوقها محاولاً أن يغفو، لكن البرد حرم جفونه النوم فقام يتمشى في طرقات المحطة وهو شديد العصبية، وأحس بالندم على مجيئه في هذه الظروف، وشعر أن روحه قد تطلع قبل أن يطلع النهار.

بعد قليل توجه إلى دورة المياه وكانت كبيرة ومتسعة للغاية وخالية من أي مخلوق، ثم وقف مواجهًا المرحاض يقضي حاجته.

ابتسم وهو يستدعي صورة الرجل الذي أخافه منذ قليل وجعله ينصرف في فزع بعد أن كان المسكين قد تصور أنه اقترب من هدفه وأن تخاريف عادل قد تصلح مدخلاً للحصول على موافقته!.

فجأة انتبه على صوت حفيف ثوب وراءه وأحس بأن هناك من

يراقبه، فمال بعنقه يستطلع الأمر وتسمّر لدى رؤيته رجلاً طويلاً ضخمًا يقف خلفه إلى اليمين ويطل عليه في شغف وهو يدفع الماء من مثانته إلى حائط المرحاض.

أصيب برعب مفاجئ فتوقف اندفاع الماء وقام بشد سحّاب بنطلونه ثم استدار ليواجه المتلصص الأثيم الذي يراقب المتبولين فوجده أصلع الرأس عريض المنكبين وعلى وجهه ابتسامة عريضة. ألجمته الحيرة فظل ينظر إلى الرجل المبتسم وهو لا يدري ماذا يفعل.. وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا كلهم مبتسمون؟ وما سر هذه الغبطة على وجوههم؟.. إنه لم يصادف رجلاً من هذا النوع إلا وكانت ابتسامته الواسعة تملأ وجهه. ترى هل هذا هو السبب في إطلاق اسم أو صفة (gay) ومعناها (مرح) على هذا النوع من البشر؟.. حقيقة كلهم مرحون ولاد الجزمة.. فهل هذا المرح أصيل فيهم قد زودتهم به الأقدار حتى تكون حياتهم سهلة؟ وهل هو مؤشر على سعادة حقيقية؟.

الله يخرب بيتك يا نجم.. أين أنت بحق الشياطين والأبالسة.. أين أنت بحق المثليين والشواذ؟

أحس أنه يشبه صابر بطل رواية "الطريق" لنجيب محفوظ الذي تعلقت آماله في الحياة بالعثور على أبيه.

مر بجوار الرجل وغادر دورة المياه وهو يشعر باشمئزاز عظيم واستقر رأيه على الذهاب إلى الفندق وليكن ما يكون.. لا يريد مشتريات.. لا يريد ملابس.. يريد فقط أن يتدثر وأن ينام بعد أن يأخذ حمّامًا ساخنًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن رده عن عزمه استمرار هطول الأمطار في الخارج، كما أن الساعة قد قاربت الرابعة، وكلها ساعة واحدة على الأكثر وتبدأ الحركة وتفتح الحوانيت ويمتلئ المكان بالناس. . اصبر يا عادل. . اصبر. . هكذا قال لنفسه.

أشرقت الشمس وبدأ الناس يتوافدون على المحطة وكان التعب قد هده فاستسلم للنوم وهو يجلس متكوراً على دكة خشبية، فقام وأخذ يتمطى ويتثاءب ثم توجه إلى مكتب الأمانات فأخذ حقيبته وأخرج منها فرشاة الأسنان والمعجون وثيابًا جديدة ودخل الحمّام ثم خرج في حالة طيبة وتوجه إلى الاستعلامات يسأل عن بيوت الشباب فأعطته الموظفة بعض العناوين. سألها أن تكمل جميلها وتتصل بأحد هذه البيوت لتتأكد من وجود مكان خال. قامت الفتاة بجولة تليفونية ثم مطت شفتيها في يأس وأخبرته أن كل بيوت الشباب مشغولة بسبب اقتراب موعد الكريسماس.

خرج من المحطة حائراً وسار على مهل يتأمل المتاجر المحيطة بمحطة فيكتوريا ثم عبر الطريق وشاهد أوتوبيسات السياح ذات الطابقين تقف أمام مبنى كبير يصطف أمامه الناس ثم أبصر لافتة مكتوب عليها "قصر باكينجهام". هذا هو إذًا القصر الملكي الشهير. سار بحذاء القصر ثم أبصر حديقة إلى الجهة الأخرى فمضى إليها ووجد اسمها حديقة سان جيمس. اشترى ساندوتش وكوبًا من الشاي وجلس أمام البحيرة

الصناعية التي يسبح فيها البط وتحلق حولها طيور النورس في منظر بديع.

بعد أن أشبع ناظريه من الطبيعة الجميلة غادر الحديقة وعبر بوابة أفضت به إلى طريق فوجد إلى يساره ميدان "ترافالجر" الشهير الذي يسميه العرب ميدان الطرف الأغر. ضحك على هذه التسمية العجيبة، وتذكر أن هناك من العرب من يشتط فيسمي "شكسبير" شاعر الإنجليز العظيم "الشيخ زبير" بعد أن يزعم أنه كان في الأصل عربيًا!!.

جلس في الميدان الذي يملأه الحمام ويتجول فيه في طمأنينة يلتقط فتات الطعام من أيدي الناس دون أن يخشى منهم أي غدر أو حركات نذالة. . وطاف بخياله أن هذا الحمام لو حط على الأرض دون طيران لخمس ثوان فقط بأحد الميادين في القاهرة لوجد نفسه محشواً فريكًا بعد دقائق!.

استغرب لأنه أحس نفسه سعيداً ونسي ليلة الأمس الطويلة المزعجة. يبدو أن الليل يشترط السكينة والجدران الأربعة. . فإن غابوا تحول إلى عذاب. أما النهار فجميل بصخبه وضوضائه وازدحام طرقاته بالناس والسيارات.

بعد أن قضى نصف النهار في التسكع بالمدينة الجميلة تذكر أن الليل سوف يهل سريعًا بعذاباته إذا لم يتدبر أمره ويحجز مكانًا للنوم.

أحضر حقيبته من المحطة وركب القطار النفقي حتى يبتعد عن وسط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البلد حيث الفنادق مرتفعة الأسعار ونزل بشكل عشوائي في محطة "إيرلز كورت" وهي منطقة لاحظ أنها تمتلئ بالعرب، ولمح بجوار المحطة محلات بقالة عربية تبيع منتجات مصنوعة في بغداد ودمشق والقاهرة وسمع تصايحًا في الشارع بالعربي.

أبصر لافتة تشير إلى فندق على مقربة منه فلم يتردد وتوجه نحوه ودخل فوجد الاستقبال متواضعًا للغاية ولقيه موظف هندي تفوح منه رائحة الكاري يجلس يتناول الطعام وبجواره شخص آخر وسأله عما يريد.

قال عادل: أريد غرفة مفردة. قال الموظف: الحد الأدنى للحجز لدينا هو ليلتين فكم ليلة تريد؟. استنكر عادل فكرة أن يكون هناك حد أدنى لليالي الإقامة بالفندق وأخذ يفكر سريعًا وهو ينظر لموظف الفندق الذي كان يضع طبق أرز بالطبيخ أسفل الكاونتر ويدس الملعقة فيه ثم يرفعها إلى فمه بينما يحادثه.

قال عادل: وماذا يفعل الذي يريد أن يبيت ليلة واحدة؟. رد الموظف بسرعة: يذهب لفندق آخر! قالها ثم انفجر في الضحك هو والشخص الآخر الذي كان ينادمه في طبق الأرز بالخضار بالكاري في واجهة الفندق!.

نظر عادل حوله وازدادت حيرته. ماذا يفعل مع هذين الرقيعين؟ هل يتركهما ويذهب إلى مكان آخر أم يستسلم بعد أن فرغت طاقته تمامًا وأصبح بالكاد يقوى على الكلام؟.

رضخ عادل ودفع أربعين جنيهًا ثمن ليلتين مقدمًا ودخل الغرفة وأناخ حقيبته ثم توجه إلى الباب يغلقه بالمزلاج فوجد الباب يغلق بالمقبض فقط وبهذا يمكن فتحه من الداخل والخارج!.

ذهب للاستقبال وشرح الأمر للرقيع فرد في تأفف بأن كل الغرف هكذا وليس هناك بديل.

عادل إلى غرفته وأغلق الباب وأخذ يتقلب على الفراش لكن النوم جافاه برغم حالة الهلاك التي كان عليها. وبعد مدة بدأ الخدر يتسلل إلى جسمه واستسلم للنوم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(4)

أحس أنه يحلم عندما فتح عينيه ووجد شخصًا معه في الغرفة يقوم بالتقليب في حقيبته .

نهض مذعوراً وصاح في الرقيع الثاني الذي كان يجلس بالاستقبال منذ قليل : ماذا تظن نفسك فاعلاً وكيف تعبث بحقيبتي . . وكيف دخلت إلى هنا من الأساس؟

رد اللص : لا شيء . . كنت أبحث عن أسبرين ولم أشأ أن أقلقك ! .

وجد عادل نفسه يطلق صوتًا إسكندرانيًا وهو يقول : وهل هذه صيدلية يا ابن العاهرة حتى تبحث فيها عن أسبرين؟ .

انسحب الشاب وهو يعتذر وغادر الغرفة . خرج عادل وراءه فوجده يدخل الغرفة المجاورة ويغلق الباب . . لم يدر ماذا يفعل فعاد إلى غرفته .

كان يشعر أن نافوخه سينفجر من الغليان وأحس بصداع شديد من تأثير الاستيقاظ المفاجئ الذي نقله من حالة الثبات والاسترخاء والموات إلى قمة اليقظة والاستعداد في لحظة واحدة، ولهذا بلا شك تأثير خطير على تركيبة الجسم التي تحتاج إلى النوم المتدرج والاستيقاظ المتدرج أيضًا .

لم يستطع العودة إلى النوم وكان في حالة أشبه بحالة السكارى . . حركته بطيئة ولسانه ثقيل . . عيناه مفتوحتان لكنه نصف نائم من الداخل .

بعد ما يقرب من ساعة قضاها على السرير محملقًا في السقف نهض فتوجه إلى الباب وغادر الفندق وتوجه إلى محطة الأنفاق فركب المترو، ثم قام بالتغيير إلى الخط الشمالي ونزل في محطة "إنجل" وقد عقد العزم على أنه إذا لم يجد نجم سيقوم بالتوجه إلى المطار صباح اليوم التالي ويعود إلى القاهرة بلا تردد، ذلك أن البقاء في فندق كهذا لا يجعل من الرحلة أمرًا ممتعًا بالمرة . . ونوى أن يعود إلى لندن في مرة قادمة بعد أن يكون قد استعد وقام بحجز الفندق من القاهرة حتى يتفادى لقاء كل الأشكال الوضيعة التي لم يصادف غيرها منذ الأمس .

ركب الأسانسير وصعد للدور الأخير وقد شعر بالراحة وزال عنه التوتر بعد أن وصل إلى قرار العودة غداً .

ضغط على جرس الباب فأحس بحركة بالداخل وبعد ثوان كان الباب يفتح ونجم يقف أمامه بشحمه ولحمه . . إنه هو نجم نفسه لم يتغير . . بشكله وهيئته وجدعنته وفتونته وكل ما فيه .

نظر إليه نجم ونظر هو إلى صاحبه وظل كل منهما يتأمل الآخر قبل أن يعلو صياحهما في صوت واحد ويتعانقا في شوق وصخب وضجيج جعل الشقق المجاورة تفتح أبوابها تستطلع الأمر ! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جلس يشرب الشاي مع نجم وزوجته الجميلة تينا وابنهما طارق وأخذ يحكي لصديقه تفاصيل ما حدث له منذ وصوله حتى الآن. اعتذر أبو النجوم لكنه لامه على عدم إخطاره بموعد الوصول لأنه لو كان يعرف بقدومه لما قام بقضاء الأيام الأربعة الأخيرة في "برايتون" عند حماه وحماته.

سأله عادل: أحقًا كنت في برايتون؟.

قال نجم: نعم في برايتون.. ولكن لماذا تتشكك؟

قال عادل: لأن الرجل الفخم الذي قابلته في محطة فيكتوريا ودعاني للمبيت معه قال لي إنك في برايتون!.

ضحك أبو النجوم وقال: إن هؤلاء الناس لديهم حدس لا يخيب!.

بعد الشاي قال نجم: هيا إلى فندقك لنحضر حقيبتك ونعود حتى تنام لمدة يومين وبعدها تبدأ زيارتك الحقيقية للندن.

في الفندق حاول عادل أن يسترد على الأقل قيمة الليلة الثانية لكنهم رفضوا بكل دناءة.

سار عادل وخلفه نجم إلى الغرفة فلما أصبحا بالداخل قص على صاحبه كيف دخل عليه أحد الأوغاد وكيف عبث بحقيبته بكل بجاحة.

قال نجم: أريدك أن تريني غرفة هذا الوغد، فأشار عادل إلى الغرفة المجاورة. طلب منه نجم أن يأخذ حقيبته ويخرج ثم يتوجه إلى محطة المترو وينتظر هناك.

سأله عادل في قلق: ماذا ستفعل؟.

أجاب نجم: سأفعل ما يتوجب فعله مع الأنذال.. اذهب ولا تضيع الوقت.

خرج عادل وسار إلى المحطة وهو يشعر بالسعادة الممزوجة بالإشفاق على الهندي الزنيم لأن نجم حتمًا سيكسر له ذراعه أو أسنانه أو ضلوعه ولن يتركه قبل أن يطبق عليه القصاص العادل الذي يؤمن به.

بعد دقائق عاد نجم يجر حقيبة كبيرة وهو يضحك ملء أشداقه.

ما هذه الحقيبة العجيبة يا أبا النجوم؟ تساءل عادل.

قال نجم: هي حقيبة النذل.. لقد دفعت الباب ودخلت فلم أجده بالغرفة ووجدت هذه فحملتها وخرجت.

قال عادل: وهل تركوك تخرج بالحقيبة من باب الفندق؟.

ضحك أبو النجوم وهو يقول: عند الباب قابلني موظف الريسبشن وسألني إلى أين أذهب بالحقيبة فأشرت إليه بإصبعي بأن يخرس، فلما تحرك من مكانه أشرت إليه بأنني سأقطع رقبته وأتبعت تهديدي بنظرة صارمة، فجلس في مكانه صامتًا وهو يرقبني أخرج من الباب ومعي حقيبة زميله!. قال نجم هذا ثم غرق في الضحك ولم يلبث عادل أن شاركه الضحك هو الآخر وهو يتصور صاحب الحقيبة يعود فلا يجدها وأحس بأن صديقه ثأر له بأكثر مما كان يحلم.. ولأول مرة منذ قدومه يشعر بالطمانينة وراحة البال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نزلا من المترو عند محطة "كنجز كروس" ثم قاما بركوب الخط الرمادي واسمه خط اليوبيل وذهبا إلى محطة "ووترلو" وهناك توجه مع نجم إلى ضفة نهر التيمس وسارا بحذاء النهر في الطريق الذي يلفه الظلام.

لم يكن عادل يفهم ما يحدث حتى وجد نجم يرفع الحقيبة ويلقي بها في النهر ثم يعود ويجلس على دكة ويشعل سيجارة، فجلس إلى جواره وأشعل سيجارة هو الآخر وأخذ يتأمل الحقيبة وهي طافية على صفحة النهر فشعر بسعادة غامرة وتمني أن يذهب إلى صاحب الحقيبة ويقول له إنه ما أخذها إلا لأنه كان يبحث داخلها عن دواء للإمساك!.

حكى لصاحبه عما يفكر فيه فقهقه نجم ضاحكًا وأيده في الفكرة النميسة وقال له: أقسم بالله لو كان هذا ما تريده حقًا لنذهب إليه غدًا ونقول له ما ذكرت ونستمتع برد فعله.. ولير ينا ماذا يستطيع أن يفعل.. هيه ما رأيك؟.

غرق عادل في الضحك فقال نجم: غدًا نعود إليه ونقول له ما ذكرت حتى نجهز على أي جزء يكون لم يحترق بعد من قلبه وكبده!.

استمر عادل في الضحك وهو يقول: لا فائدة منك ستظل شريرًا إلى الأبد وكل الأفكار المنحرفة تجد لديك آذانا صاغية.

ثار نجم قائلاً: أتلومني على أني أريد أن أنتقم لك.. هذه آخر مرة أتدخل لك في شيء.

رد عادل وهو في منتهي السعادة: هذه مزحة يا أبو النجوم.. لا أريد أن أعود إليه ولا أريد أن أراه.. أريد فقط أن أنام.. خذني للبيت وأرني طريق البانيو ثم ضعني في السرير.. وعندما أستيقظ نتحدث يا صديقي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البوليسية يا ساقط !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أول ما لفت انتباهه بينما كان يسير في شوارع العاصمة التونسية لدى زيارته الأولى هو الود البالغ الذي تعامل به الناس معه عندما عرفوا أنه مصري . كان يكفيه أن يسأل عن أحد الشوارع أو يشتري علبة سجائر مثلاً ليفاجأ بلمعة العيون مع السؤال الودود : مصري؟ . نعم مصري . الله على مصر وأهل مصر ، بلد الفن والجمال ، بلد أم كلثوم وعبد الوهاب ، بلد ليلي مراد وسيد درويش ، بلد الشيخ إمام ونجم .

توقف بالشارع إلى جوار أحد محلات السندوتشات وكان يذيع بصوت عال إحدى أغنيات الشيخ إمام ولما عرفوا هويته سألوه : ماذا يقصد الشيخ إمام بكلمة " كلاكيع " ، ضحك وأخبرهم أنها مفردة مصرية تعني تعقيدات .

في كل مكان كان يندهش لإقبال الناس على محادثته وفتح حوار معه وكأنه شخص مهم .

كان تفسير الأمر جالبًا للفرحة ومثيراً للشجن في الوقت نفسه . هؤلاء الناس يعرفون مصر من أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون ومن خلال صوت أم كلثوم وعبد الحليم حافظ . الصورة الذهنية لديهم عن مصر أنها البلد الراقي النظيف المحب للفن والجمال ، وأبناؤه هم رسل النور لكل بلد عربي . آه لو عرفوا ما آلت إليه الأحوال عندنا ! .

وجد نفسه يقارن بين صورة مصر والمصريين لديهم ونفس الصورة في بلاد المشرق العربي على الخليج العربي أو الفارسي أو الأمريكي ، وأدرك أن سفر المصري سعيًا وراء الرزق في بلاد النفط قد جرح صورة مصر في عيون أبناء هذه البلاد ونال من مكانة أم الدنيا ، وأضاع الفكرة الرومانسية التي حفرتها مصر في خيال العرب لسنين طويلة باعتبارها منارة العلم والثقافة وقلعة الوطنية والعروبة .

لعن في سره الأنذال الذين أحوَجوا المصري للخروج من داره ، ودعا الله ألا تتسع الضائقة فتجعل المصري يتجه غربًا إلى الشمال العربي الأفريقي بحثًا عن فرصة عمل في تونس والمغرب ، الأمر الذي سيترتب عليه أن يمشي في الشارع بعد الآن فلا يهتم به أحد ولا يهش الناس في وجهه ولا يفرح به عشاق المحروسة الذين حتمًا سيتلاشون ! .

لفت انتباهه أيضًا أن تماثيل الرئيس الحبيب بورقيبة منصوبة على كل ناصية وفي كل ركن وتبرز لك من كل مكان ، ولا تكتفي بالتواجد فقط بالميادين الرئيسية ، بحيث إنك أينما وليت وجهك رأيت الرجل ينظر إليك ويتبعك حيثما مشيت . ولاحظ أنه يمكنها أن تباغتك وتبتسم عندما تكون في حاجة إلى التشجيع أو تفاجئك بعبوسها منذرة عندما تكون قد فكرت في ارتكاب ما يستحق العقاب ! .

ركب الأوتوبيس ليتفرج على المدينة وسأل الجالس أمامه عن الساعة ، وغرق في الضحك عندما قال له الرجل إن الساعة الآن ثلاثة ودرجين . ثم عرف أن الخمس دقائق تعني درج والعشر دقائق درجين وهَكذا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند إحدى المحطات لمح نافورة أسفل تمثال للرئيس بورقيبة وهو يعتلي حصانًا مثل إبراهيم باشا بميدان الأوبرا بالقاهرة. لم يتمالك نفسه من الضحك وسأل السادة الركاب: ألا تشعرون بالضجر بعد كل تلك السنين من هذا الرجل ومن تماثيله التي تحيط بكم من كل جانب؟.

لم يعرف أنه ارتكب خطيئة كبرى إلا بعد أن تكهرب الجو وتغيرت الحالة وتوقفت الضحكات ولاحظ جحوظ العيون ونظرات الناس المرتبكة وسمع الراكب إلى جواره يهمس في أذنه: الزم الحذر يا رجل. الزم الحذر. وهنا علا صوت أحد الركاب محييًا الرئيس البطل صانع مجد تونس الحديثة ومفسرًا وجود التماثيل في كل مكان بأنها تحرس شعب تونس وتُشعر الناس بالأمان وبأن الرجل معهم دائمًا!.

واندفع مواطن آخر ووقف يخطب بصوت عال أيضًا: إن من دلائل عظمة هذا الرجل أنه يسعى بين الناس في الأسواق كأي مواطن عادي، ولولا ظروفه الصحية هذه الأيام لكان من الممكن جدًا أن يفاجئنا بالوجود بيننا في هذا الأوتوبيس!.

شعر بالحرج الممزوج بالقلق وأدرك أنه ارتكب خطأ فادحًا حين انتقد الرئيس وتماثيل الرئيس على مسمع من الناس، وفهم أن الذين تطوعوا بالقيام بدور "المطيباتية" ودافعوا عن تماثيل رئيسهم أرادوا أن يدفعوا عن أنفسهم شبهة الترحيب بكلام هذا الغريب المتهور أمام المخبرين الموجودين بكل مكان!.

نزل من الحافلة وهو منزعج أشد الانزعاج وبدأ يشعر بخوف حقيقي بعد أن أدرك أن موقفًا كهذا كان من الممكن أن يودي به إلى ما وراء المجموعة الشمسية دون أن يعرف أحد مصيره، وعزم على أن يفرمل لسانه ولا ينسى نفسه بعد الآن.

وصل إلى جوار فندق أفريكا الشهير بوسط البلد وسمع البائعين على الرصيف ينادون على بضاعتهم المتواضعة قائلين: أربعة آلاف، خمسة آلاف. نظر إلى الأشياء المباعة فوجدها عبارة عن ساعات مضروبة وإيشاربات وأمشاط وفلايات وتعجب كيف تكون هذه الأشياء بآلاف الدنانير. فلما استفسر منهم ضحكوا من سذاجته وأخبروه أن الألف تعني دينارًا واحدًا أي ألف مليم، فلما سأل: ولماذا لا تقولون أربعة دنانير؟ لم يظفر بجواب!.

مضي في شارع الحبيب بورقيبة يشاهد المحلات والحوانيت وعنّ له أن يتناول سندوتش سجق تونسي ويسمونه "مرقاز" أو مرجاز كما ينطقونها، وشاهد بالمطعم طبخة "الكسكس" الشهيرة التي يجيدون صنعها ويطهونها بلحم الضأن أو الخروف الذي يسمونه "العلّوش" كما يطهون الكسكسي بالسمك الذي يطلقون عليه "الحوت" أيًا كان نوع السمك حتى لو كان مجرد بسارية صغيرة!.

خرج من المطعم وأبصر بالشارع بعض دور العرض السينمائي ووجدها كما توقع تعرض أفلامًا مصرية، لكنه اندهش حين وجد جميع السينمات التي رآها تعرض أفلامًا قديمة نسبيًا عرضت بمصر منذ سنتين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الأقل وهي إجمالاً من الأفلام الرديئة التي لا تتشرف مصر بإنتاجها، وأدرك تفسيراً لما قرأه في جريدة تونسية وصلته في غرفته بالفندق. . كان قد قرأ لأحد الكتاب التونسيين هجومًا كاسحًا على السينما المصرية التي وصفها بأنها لا تفترق عن المخدرات المغيبة للعقل، لهذا فقد طالب بمنع الإنتاج المصري من العرض في تونس! .

الآن أدرك أسباب حنق الرجل الذي ظلم السينما المصرية وكانت في أوج تألقها في ذلك الوقت من الثمانينيات حيث تجلت إبداعات عاطف الطيب ومحمد خان وخيري بشارة وداوود عبد السيد، فإذا بهم في تونس يتركون هذا كله ويستوردون أفلام نادية الجندي ويونس شلبي! .

الشارع في تونس اسمه "نهج" . قادته قدماه إلى شارع يسمى "نهج المنجي سليم" فأفضى به إلى سوق كبير يشبه الموسكي بمحلاته وبضائعه اسمه سوق الزرقون، ثم وصل إلى حارة في الجوار فوجد على ناصيتها مبنى القنصلية البريطانية! . واصل توغله داخل المنطقة الشعبية فأبصر زحامًا وحركة نسبية وأناسًا يتفرجون على المعروض في الدكاكين. فلما اقترب من هذه الدكاكين لم يصدق عينيه وهاله ما رأى فيها. . أبصر في كل دكان مفتوح سريراً تجلس عليه امرأة ترتدي غلالة رقيقة تكشف جسدها وتنظر إلى المارة في انتظار أن يختارها أحدهم! .

أدرك على الفور أن هذه بالتأكيد هي أماكن الدعارة المرخصة والتي تشبه تمامًا أماكن الدعارة في القاهرة أيام كانت مصرحًا بها وقت

الاحتلال الإنجليزي، تلك الأماكن التي قرأ عنها وشاهدها في الأفلام وتحدث عنها نجيب محفوظ وذكر أنه كان في العشرينيات من روادها الدائمين، مثل كلوت بك ودرب طياب والوسعاية وغيرها .

أمعن النظر إلى الجالسات على الأسرة ووجد بعضهن تتحرك داخل دكانها وتنهض واقفة لتمكن الجمهور من تفحص البضاعة كاملة، ولاحظ أن أكثر من واحدة منهن كانت تنتشر بذراعيها وفخذيها وحول نهديها علامات سوداء فسأل الشاب الواقف إلى جواره عن هذه العلامات التي تشبه الندوب، فصعقه الشاب قائلاً: هذه آثار إطفاء السجائر فيهن، تلك العادة التي يمارسها كثير من رواد المكان الساديين! ! .

يا نهار اسود ومنيّل . . ذلك كان رده على الكلام الفظيع الذي سمعه . لكنه وجد الأمر طبيعيًا تمامًا أن يكون الزبائن المقبلين على هذه البضاعة المعطوبة معطوبين أيضًا .

انتبه من دهشته على صوت صراخ وشتائم تلاها انفتاح باب أحد البيوت وإلقاء رجل من الداخل إلى الشارع مثلما يتم إلقاء ورقة . نهض الرجل ينفض قميصه وبنطلونه اللذين تعفرا في التراب بعد أن تدحرج على يد أحد القوادين الأشداء الذي لم يتردد في قذفه خارجًا بكل قسوة .

وقف يسب ويشتم الدار بنسائه ورجاله ويتهمهم بالنصب والاحتيال .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقدّم منه أحد الحضور وسأله: ما الموضوع يا أستاذ ولماذا كل هذه الثورة؟ .

تلقف الرجل السؤال بلهفة وشرع يشرح قضيته: يا أخي هؤلاء الأقحاب دفعت لهم ستة آلاف ومائتين كما طلبوا ومع هذا لم أحصل على ما أريد . . فهل يصح هذا؟ .

بادره آخر ممن تجمعوا على الجلبة والصراخ بالسؤال: وماذا كنت تريد؟ .

قال في تأثر: هل تصدق أنني لم أمكث بالداخل سوى دقيقة واحدة . . هل من أجل دقيقة واحدة أدفع ستة آلاف ومائتين، ثم أكمل في أسى: تصور يا أخي أنها حتى ما نحّت السروال وجعلتني بنت الحرام أنتهي قبل أن أبدأ! .

تعالت ضحكات القوم من هذا الوصف التفصيلي لرجل تلقى الخديعة لتوه من أناس حسبهم شرفاء! .

قال رجل في لهجة جادة يواسيه: إن الضمير قد اختفى من هذا العالم وما عاد أحد يعمل بما يرضي الله!! . ما كاد صاحبنا يستمع للجملة الأخيرة حتى أنتابته نوبة من الضحك حتى دمعت عيناه عندما سمع رجلاً يشكو الضمائر الخربة وعدم إتقان العمل . . في بيت للدعارة! .

كان أكثر ما أدهشه في هذا الموقف العجيب أن الأستاذ الشاكي وجمهور المستمعين كانوا يتحدثون ويردون على بعضهم البعض في جدية

بالغة وكأنهم يناقشون قضية هامة ولمس أنه كان الوحيد الذي ينظر للأمر على أنه مسخرة! .

عند هذا الحد خرجت من البيت امرأة ممتلئة تشبه المرحومة نعيمة الصغير في أفلامها وكان واضحًا أنها من تدير المكان وقالت منذرة الرجل: لقد تركتك يا ابن الحرام تصرخ وتولول مثل النساء حتى تفرغ ما في قلبك وتنصرف، لكن يبدو أن صبري عليك قد أغراك بالاستمرار، ثم لم تلبث المرأة أن توعدته قائلة: والله إذا لم تنصرف حالاً لأستدعي لك البوليسية يا ساقط حتى يفعلوا بك ما عجزت أنت عن فعله! .

كانت كلمة "البوليسية" مفهومة وأدرك أنها تعني بها رجال الشرطة، لكن وقع كلمة ساقط على أذنه كان غريبًا حيث اعتاد أن يستمع إليها في مصر بمعنى آخر عندما تطلق على من يرسب في الامتحان. أما هنا فهي تطلق على الرجل المخنث. لكنه على أي حال وجد السقوط معبراً تمامًا ليس عن حال الرجل وحده وإنما عن أطراف المشكلة جميعًا .

لم يبد أن تهديد المرأة الشرسة قد أخافه فمضى يصرخ: أنا أريد فلوسي يا لصوص يا سفلة، ثم أعاد على مسامع الحاضرين مأساته المتمثلة في أن المرأة التي اختارها ودفع فيها ستة دنانير ومائتي فلس أسرعت بالعمل دون تمهيد وأخذته على غرة ولم تمنحه الوقت الذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستحقه، حتى إنها ـ بنت الحرام ـ ما نحّت السروال وجعلته ينتهي قبل أن يبدأ.

أنهى حكايته ثم أخذ يقلب بصره بين الناس يسألهم هل يرضيكم هذا؟ ولمح صاحبنا وسط الناس فاقترب منه قائلاً: هل يرضيك هذا أيها الشاب الطيب؟ ثم ألقى الكرة في ملعبه: أنا راضٍ بحكمك.

تعجب من أن يتم الاستشهاد به في موقف كهذا لكنه قال يطيب خاطر الرجل المفجوع في فلوسه: بصراحة.. هذا لا يرضيني بالمرة ثم أردف ضاحكًا: الناس ما بقاش عندها ضمير يا جدع!.

اندهش الرجل للهجة المصرية التي سمعها وبدا من نظراته أنه يشعر بالامتنان للدعم المصري الذي تلقاه في محنته.. ذلك الذي يأتي كما عودتهم مصر دائمًا.. في وقته!.

تهلل وجهه وقال للمرأة الشرسة: انظري.. حتى هذا الشاب المصري لا يعجبه ما فعلتم.. كفاية فضائح أمام الأجانب وردي إليّ فلوسي حتى تحفظي للمكان سمعته الطيبة.. ستة آلاف ومائتين ليس أقل.

تصاعد غضب المرأة أكثر وقالت في استهانة واضحة: سأطلب لك البوليسية أنت وصديقك المصري يا ساقط!. قال الرجل للشاب المصري: انظر ها هي المومس المحتالة تريد أن تؤذيك أنت أيضًا.

قبل أن يكمل جملته كانت المرأة الضخمة قد تقدمت منه ورفعت

كفها في الهواء وهوت به على صدغه في صفعة هائلة أوقعته أرضًا وهي تقول: للمرة الأخيرة أنذرك بأنني سأطلب لك البوليسية يا ساقط.

ولاحظ صاحبنا المصري أنها نظرت إليه وهي تردد جملتها الأخيرة ففهم أن التهديد يشمله هو أيضًا، وخشي أن يناله شيء من شرها فآثر السلامة وقال وهو يتراجع مبتعدًا عن ساحة النزال: لا مؤاخذة يا جماعة.. يؤسفني أنني لن أستطيع أن أستمتع بصحبتكم أكثر من هذا، وأعدكم بأنكم لن تروني في هذا المكان المحترم مرة أخرى.. ولو أحببتم ألا تروني في تونس كلها فأنا تحت أمركم، ثم أضاف قبل أن يختفي: وبإمكانكم طبعًا أن تطلبوا البوليسية كما تشاؤون لهذا الرجل الساقط.. ولكل الساقطين من أمثاله!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صانعة الكفتة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت الكويت تبدو كمكان مناسب تمامًا ليأوي إليه الراغبون في بعض الهدوء النفسي بعيداً عن صخب القاهرة وزحامها المخرب للأعصاب .

وبسبب هذا فقد صادف صاحبنا بها بعضًا ممن ضربهم "السلك" من المثقفين المصريين فأطاح بقدر من ثباتهم واتزانهم النفسي .

من ضمن هؤلاء كان "صلاح" الكاتب والمخرج المسرحي الذي ذهب إلى بولندا في أواخر السبعينيات على نفقة الحزب الشيوعي وقضى بها خمس سنوات للدراسة أشبع فيها شبقه لذوات اللحم الأبيض من فقيرات أوروبا وشارك شعبها طعامهم وخمرهم المدعوم، ثم عاد بعد أن أصبح الدكتور صلاح .

وقد حاول صاحبنا أن يفهم كيف أمكن لصلاح أن يذاكر ويدرس ويحصل على أعلى درجة علمية في المسرح وذلك كله باللغة البولندية التي لا يعرفها، مثله في ذلك مثل معظم الحاصلين على دكتوراهات من رومانيا وتشيكوسلوفاكيا وروسيا بلغات لا يعرفون شكل حروفها . . فلم يصل لنتيجة ! .

ورغم غرابة أطوار صلاح وأفعاله التي لا يسهل التنبؤ بها فقد كان يحبه لأجل طيبة قلبه وبعده عن اللوع . وكان لصلاح كل فترة امرأة يهيم

بها ويراها فتاة الأحلام، وبعد انقضاء فترتها ووصول الحدوتة إلى النهاية يظل مكتئبًا يجتر أحزانه حتى يداوي نفسه بعلاقة جديدة . . فاشلة ! .

اتصل به صلاح ذات يوم وأصر على دعوته إلى أكلة كفتة في البيت عنده .

سأله في دهشة : منذ متى تطبخ يا صاحبي؟ .

أجابه صلاح : لست أنا الذي سيطبخ يا أستاذ وإنما حوريتي الجميلة هي التي ستتولى هذا المشروع .

سأله : ولماذا كفتة بالتحديد؟ .

أجاب بأن الكفتة من يدها لها مذاق آخر وليس هناك من تطهوها بكفاءة كريمة ! .

تذكر أن صلاح لم يعد له حديث في الفترة الأخيرة سوى عن "كريمة" الفنانة التشكيلية التي قابلها في أحد المعارض فلوّنت أيامه بلون الفرح، ومن أول لقاء شعر بأنه عثر على توأم روحه التي بحث عنها في كل من عرفهن حتى عثر عليها، فلم يفوت الفرصة واصطحبها فوراً إلى بيته لتفاجئه في نفس اليوم برغبتها في أن تطبخ له وتذيقه الطعام من صنع يديها، ثم أدخلته عالم الكفتة .

حكى صلاح للأصدقاء ببساطة وسذاجة بالغين قصة دخولها المطبخ وانهماكها في عملية "تصبيع" الكفتة ثم خروج الصينية من الفرن وقد احمرّ وجهها وفاحت رائحتها التي تسعد القلوب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من يومها أصبحت الكفتة هي كيفه ومزاجه في الحياة وغلب حبه لها على حبه للكوارع ولحمة الراس، حتى إن أصحابه كانوا يسألونه عن أخبار "كفتة حبنا" ويتندرون على هيامه وشغفه بصانعة الكفتة والأوصاف الملائكية التي أسبغها عليها، وصاروا يعتقدون أنه أصبح ممسوسًا بعد أن صبّعتْ له كريمة!.

اعتذر عن دعوة صلاح متعللاً بعدم غرامه بالكفتة، لكن هذا لم يقبل الاعتذار وأخبره أن كريمة هي صاحبة الدعوة ولن تقبل الاعتذار لأنها تود أن تتعرف عليه.

وافق على العزومة بدافع الفضول وحتى يرى أحدث اكتشافات صديقه المخرج المسرحي.

عرج على الحلواني فأحضر طبقًا من الحلوى ثم توجه إلى بيت صلاح القريب من بيته بالسالمية.

إلى المائدة جلس ثلاثتهم بعد أن قدم إليه كريمة بلهجة مسرحية قائلاً: مدام كريمة.. مُدرسة رسم وفنانة تشكيلية موهوبة وست بيت ممتازة و.. صديقتي.

مد يده إلى كريمة مصافحًا وقال لها على طريقة الأفلام المصرية القديمة: أنشانتيه!.

فوجئ بها ترتبك ثم ترد بمنتهى الجدية قائلة: أنشانتيه.

اندهش لأنها لم تفهم أنه يضحك!.

عرف منها أنها تعيش بالكويت منذ عشر سنوات ولم تقم بزيارة مصر سوى مرة واحدة طيلة هذه المدة!.

كانت كريمة طويلة القامة تميل إلى الامتلاء، ذات وجه بلدي خمري اللون وشعر أطلقته على سجيته، لكنه أحس من حديثها أنها تحاول مداراة أصول متواضعة تنحدر منها، غير أن مفرداتها اللغوية وحركات يديها وحاجبيها كشفت له الكثير!.

شرع صلاح في الحديث عن الرواية الجديدة التي قام بترجمتها من المسرح البولندي ويقوم بتدريسها للطلبة في المعهد كما ينوي تقديمها على المسرح.

لم يكن يميل كثيرًا إلى نوع المسرحيات العجيبة التي يجلبها صلاح ويظل يتحدث عنها باعتبارها أعمالاً طليعية ومتجاوزة.

كان عنوان المسرحية الجديدة طبقًا للترجمة الأمينة كما قال صلاح هو "مراتع البولوبيف". أغرق في الضحك لدى سماعه اسم المسرحية وسأل صلاح: بالله عليك يا شيخ هل هناك في الدنيا شيء يخص بني البشر اسمه مراتع البولوبيف؟ ثم قل لي بالحق كيف قمت بترجمتها وأنت لا تعرف اللغة البولندية؟.

ارتبك صلاح وشعر بالحرج أمام كريمة التي ندت عنها ضحكة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مكتومة وتردد بين الغضب والعتاب ثم اندفع يؤكد أن المسرحية هي نص طليعي بامتياز وأن أحداً لن يفهم مغزى عنوانها حتى يشاهدها، وراح يقسم أنه درس اللغة البولندية وآدابها وسبر أغوارها لدرجة أنه قد صار قادراً على ترجمة النصوص العسيرة.

رد بشكل تلقائي: يبدو أن مراتع البولوبيف هو نص شديد العسر فعلاً!.

سكت صلاح رغم شعوره بالضيق ثم انهمك في التهام أصابع الكفتة، وكانت كريمة صامتة أثناء حوارهما حول "مراتع البولوبيف" لأن فمها كان مشغولاً، وبدا له أنها تتمتع بشهية قوية هي أيضًا.

بعد الغداء قال صلاح: أريدك أن تعطي كريمة كارت توصية تذهب به للمطار لأنها مسافرة مصر الأسبوع القادم ومعها شوية وزن زائد.

أدرك وقتها سر العزومة ولعن في سره وظيفته بالمطار التي لا تجعل أحداً في هذا البلد يعرفه لوجه الله.

سأل: كم مقدار هذا الوزن الزائد؟.

أجابت كريمة: أبداً لا يزيد عن مائة كيلو!.

ضحك ملء أشداقه وهو يعجب لهذين الكائنين العجيبين المحبيْن للكفتة، وحمد الله على أنه تذكر أن يحضر معه طبق حلويات غالي الثمن حتى لا يشعر بالحرج وهو يسرع بالانصراف معرضًا عن طلبهما السخيف.

عندما كان يدير محرك السيارة لحقت به كريمة بعد أن نزلت وراءه مباشرة ومالت عليه قبل أن ينطلق قائلة: لا تفكر في موضوع المطار والسفر.. هذه حجة أردت بها أن أتعرف عليك بعد أن سمعت عنك الكثير من صلاح.. هذا هو تليفوني وأريد أن أراك لأمر ضروري.

نظر إلى أعلي حيث كان صلاح يقف في البلكونة يلوح له وتساءل: هل أنت قرطاس يا صلاح أم أنك شريك لها في مؤامرة ما؟.

عقد العزم على أن يتظاهر بتصديق أنها لا تريد منه أي خدمات وإنما تريد صداقته الخالصة وقرر ألا يسمح للارتياب بإفساد المغامرة القادمة.

طلبها في اليوم التالي في التليفون فرد عليه صوت نسائي طلب منه الانتظار وسمع عدة أصوات حريمي تضحك وتنادي على كريمة. بعد قليل كانت كريمة على السماعة. كررت اعتذارها عن طلب الأمس الذي وضح لها أنه ضايقه.

اقترح أن يراها فخرجت للقائه في كازينو الشحرور بضاحية "حولّي".

ذهب فوجدها قد سبقته إلى المكان وجلست إلى طاولة نائية.

أخبرته أنها لا تستطيع أن تتأخر بالخارج حيث إن سكن المدرسات الذي تعيش به يغلق أبوابه في تمام التاسعة، وأضافت ضاحكة إنها ستكون مضطرة عندئذ أن تبيت عنده!. حدّث نفسه قائلاً "ليلتنا زي الفل.. والله أعلم".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخذت تقص عليه جوانب من حياتها المحبطة وزيجتها التي فشلت من زوج عاطل اعتاد النوم طول النهار وتدخين الحشيش طول الليل والسطو الدائم على مرتبها، مما دفعها لتطليقه وإعادته إلى مصر والعودة لحياة الوحدة.

لاحظت أنه لم يتأثر لقصة الزواج والطلاق والوحدة فقامت بفتح حقيبة يدها وأخرجت له مجموعة من الصور الفوتوغرافية للوحاتها التي دخلت بها عدة معارض في مصر وخارجها.

أدرك من لوحاتها التي تأمل فيها أنها متواضعة الموهبة وأنها ليست الفنانة القنبلة التي يحكي عنها صلاح، ورأى أطباق الفاكهة التي رسمتها فتذكر الجاليري الشهير بشارع رمسيس الذي كان يمر عليه أثناء سنوات المدرسة وكان يعرض لوحات لأطباق فواكه من كل صنف!.

أسهبت كريمة في الحديث عن موهبتها المدفونة في وظيفة تعيسة بمدرسة لا تقدّر فنها، داخل مجتمع لا يحترم الفنون، بل ويفتي بتحريمها سواء في مصر أو في الكويت.

ظلت تثرثر طويلاً وكان يعطيها أذنًا غير منصتة ويتعجل أن تتعدى الساعة التاسعة حتى يحملها إلى بيته ليريها الفن على أصوله!.

جعل يتفحصها بينما هي منطلقة في الحديث الممل عن الطريقة الفريدة لعمل الكفتة التي تتوارثها النساء في عائلتها، وسعى وهو يدقق النظر في وجهها إلى إضافة بعض الرتوش إليها من خياله، وهذه الرتوش ضرورية

بالنسبة له في حالة كريمة لأنها تشبه درجات الرأفة التي يتم منحها للطلاب حتى يحصلوا على تقدير مقبول!.

رآها تشبه الكثيرات ممن صادفهن بهذا البلد وقد نحوْن صوب السلوك العملي شديد النفعية بعد أن شعرن بضياع العمر في الغربة واستحالة الحصول على الحب والأمان.. فلا أقل إذن من العودة بأقصى مكاسب مادية ممكنة.. وفي هذا الإطار كانت بالتأكيد علاقتها بصلاح.. أو هكذا اعتقد!.

لكن قبل التاسعة بعشر دقائق فاجأته بأن قامت فسلمت عليه في عجلة وأخبرته بضرورة أن تعود فوراً إلى البيت، ثم عبرت الرصيف وغابت داخل البناية المقابلة التي أبصر عليها لافتة: بيت المدرسات.

أحس أنها تلاعبه ولم يعجبه هذا فقرر أن يهملها لأنها طبقًا لمعاييره التي استقر عليها كانت من النوع الذي يمكن قبوله إذا ما أتت طوعًا، لكنها لا تستحق بذل الجهد!.

بعد يومين اتصلت به وحدثته بصوت لعوب قصدت أن تضع به بحة تحمل نداء ودعوة!.

قالت له: أوحشتني كثيراً.. أوحشتني لدرجة أنني قد حلمت بك بالأمس.

رد مهللاً: مدد يا شيخ علام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قالت : ما رأيك أن تعزمني على الغداء لأحكي لك تفاصيل الحلم؟

لم يجد في نفسه رغبة للقائها فاعتذر متعللاً بانشغاله وأسرع بإنهاء المكالمة .

في اليوم التالي طلبته وعاودت الحديث عن الأحلام التي ما زالت تراه فيها .

قال لها في لا مبالاة : لو كان الحلم يتعلق بأصابع الكفتة فلا أريد أن أسمعه .

قالت : لم يرد في الحلم سيرة الكفتة . . الحلم متعلق بك وبي وحدنا .

قال : ما دام الموضوع يخلو من الكفتة نلتقي إذًا لتحكي لي عما فعلتُه بكِ عندما زرتك في المنام .

قالت في دلال مصطنع : لن أجرؤ على رواية التفاصيل .

قال ضاحكًا : لا حياء في الحلم ! .

مر عليها بالسيارة فتلقفها من أمام الدار ومضى بها على الكورنيش ثم عرج على مطعم المهراجا الهندي .

دخلت وراءه وكان انبهارها واضحًا بفخامة المكان .

سألته : لا شك أن الفاتورة بهذا المطعم حراقة للغاية .

قال لها مطمئنًا : لا عليك . . الفاتورة أنا الذي سأدفعها .

قالت : هل تعرف أنني لا أرتاد المطاعم الغالية أبدًا لأن ميزانيتي المرهقة لا تقوى على احتمالها .

نظر إليها كمن تأثر وقال : كفاية لأن الدمعة ستفر من عيني ! .

لم تدر هل هو متعاطف فعلاً أم أنه يسخر منها .

قاما إلى البوفيه المفتوح وناولها صحنًا صغيرًا مخصصًا للسلاطة فوضعته على جنب في هدوء وأخذت صحنًا كبيرًا ملأته بكل الأنواع ووضعته على الطاولة ثم عادت وأخذت صحنًا آخر حمّلته بكل ما استطاعت من روبيان ولحوم ودجاج بالكاري أو تندوري على الطريقة الهندية ، وصار الطبق ينوء بحمله الهرمي .

شعر بالخجل منها فقال منبهًا : في البوفيه المفتوح تستطيعين أن تقومي أكثر من مرة فلا داعي لملء الأطباق بهذه الصورة .

ردت في جرأة : اطمئن . . القاعدة في البوفيه المفتوح أن تأكل كل ما غرفت ولا تترك منه شيئًا ، وهذا ما أنوي فعله ! .

والحقيقة أنها قد برّت بما وعدت ونسفت الهرم كله ، ومن بعده طبق حلويات فاخراً وزجاجتي مياه غازية وأتبعتهم بالشاي والقهوة ! .

وجد نفسه يشعر بالامتعاض من هذا الكائن الأكول وفقد الرغبة في التواصل ، لكن شيئًا داخله كان يلح عليه أن يكمل المشوار للنهاية حتى لا تشعر بأنها استغفلته ولم تعطه شيئًا ! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخذها في جولة بالسيارة على الكورنيش، وكلما همّ بالرجوع رجته أن يكمل السير حتى وصلا إلى منطقة الفحيحيل بمحافظة الأحمدي وهي تدير شرائط الكاسيت وتغني وتتراقص مع حليم وشادية ونجاة بكل المرح الذي يميز الكائنات الشبعانة!.

عندما أصبحت الساعة السابعة كان الملل قد نال منه ولم يعد قادراً حتى على تصنع الضحك فعاد بالسيارة وقاد بأقصى سرعة إلى كورنيش السالمية حيث يسكن على الخليج ودخل مباشرة إلى الجراج أسفل البناية، وعندما سألته إلى أين رد بتحفز: إلى شقتي.

وكان ينوي أن يلقي بها من السيارة عند أي بادرة اعتراض أو تدلل، لكنها لحسن الحظ لم تقل شيئًا.

دخلت الشقة وفتحت الستائر ثم أطلقت من فمها صفيراً لدى رؤيتها منظر البحر وصاحت في دهشة: هل تسكن كل هذه الشقة وحدك؟.

أجاب باقتضاب: نعم.

قالت: ألا تحتاج في وحدتك هذه لمن... قبل أن تكمل جملتها أسرع بالقول: لا.. لا أحتاج لمن تعمل لي كفتة.. ثم انفجر في الضحك!.

تركها ودخل المطبخ لعمل الشاي، لكنها دخلت وراءه وقالت: هل يصح لسيد الرجال أن يعمل الشاي بنفسه؟.

قال: سيد الرجال لا يجد غضاضة في عمل كل شيء لنفسه.

قالت في دلال وهي تميل بصدرها نحوه مع انحناءة خفيفة للأسفل مفسحة لعينيه مجالاً أوسع للرؤية: ليس وأنا موجودة. ثم قامت بصب الشاي في فنجانين وحملت الصينية للخارج وجلست إلى جواره أمام التليفزيون.

قبل أن يبدأ في ارتشاف الشاي فوجئ بها تسأله: أليس لديك بسكويت أو بيتي فور مع الشاي؟.

أشار صامتًا إلى علبة الحلوى على المكتب فبادرته بسؤال آخر: قل لي.. هل تنوي أن تتعشى أم أنك من الذين يفضلون النوم الخفيف؟.

نظر إليها وقد ضاقت حدقتاه من الذهول ورد ساخراً: ما رأيك أنت.. هل تودين أن تتعشي؟.

قالت: إذا كنت أنت ستأكل فأنا ممكن "أنأنأ معاك".

وقتها شعر بارتباك حقيقي وأحس بأنه يفقد السيطرة وأن زمام الأمر لم يعد في يده، وفي الحقيقة لم يعرف ماذا يفعل في هذا الوحش الذي اصطحبه إلى منزله.

عاجلته: أنا أرى محل بيتزا تحت العمارة.. ممكن تطلب لنا واحدة نقزقزها مع بعض. قبل أن يتحرك كانت قد أمسكت التليفون وطلبت واحدة لارج سوبر سوبريم ستافت كراست مع إضافة المشروم والأنشوجة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعد دقائق كانت تمسك مثلثات البيتزا وتبرمها ثم تلقي بها في الجب السحيق .

اعتذر عن عدم مشاركتها الطعام وتركها تفترس المثلثات الثمانية وحدها ، وانصرف إلى التليفزيون وقد عقد العزم على أنه بعد فراغها من الأكل سيأخذها إلى الفراش وينهي المهمة السخيفة ثم يتركها إلى حال سبيلها ولا يراها بعد ذلك أبداً .

بعد أن شربت العصير والشاي طلبت منه أن يريها الطريق إلى الحمّام فأخذها من يدها وأوصلها إليه .

عاد إلى التليفزيون وجلس أمامه ، ثم نسيها واندمج مع الفيلم المعروض . . وبعد مدة تذكر أن لديه امرأة دخلت الحمّام منذ نصف ساعة ولم تخرج بعد ، فقام إليها وهو يشعر بالقلق ، وسمع صوتها بينما يقترب من الحمام وكأنها تنازع أو كأنها في صراع مع تنين مفترس . أصابه الفزع وهو يتابع الأصوات العجيبة التي تصدرها ، وبدا له أنها تواجه لحظات عسيرة عُسر مراتع البولوبيف التي ترجمها صديقها صلاح ! .

سألها : مالك يا كريمة . . أنت تعبانة؟ .

فردت بصوت محتقن من شدة الحزق : لا . . أنا بخير وسأخرج حالاً .

شعر بأن نفسه قد عافت الحياة ذاتها وبأنه لم تعد له مطالب دنيوية بعد الآن ! .

أمسك بالتليفون واتصل بصلاح وطلب منه أن يترك أي شيء في يده ويحضر فوراً .

وردًا على انزعاج صلاح قال : أبدًا . . أصل ملاكك الرقيق وفنانتك المرهفة صانعة الكفتة . . بعافية شوية ! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُنيتي.. عَن اصطباري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آن الأوان أن يحظى برحلة مريحة بعد شهور التعب والعناء في النمسا التي ذهب إليها في إجازة الجامعة، فعمل بكل المهن، وقضى بها أيامًا حلوة وأخرى شديدة المرارة.

والآن قبل أن يعود إلى مصر فكر أن يأخذ بنصيحة "محسن" صديقه المغربي وأن يعرج على الدار البيضاء لينعم بالهدوء والاستجمام لمدة أسبوع تمهيدًا لعودته للعام الدراسي الجامعي الذي انقضى نصفه الأول بينما هو يبيع الجرائد في الشارع وسط ثلوج فيينا.

أحصى نقوده واطمأن إلى وفرة الحصيلة بما يسمح برحلة يقضيها كسائح ثري ينفق بسخاء وينزل في الفنادق الفخمة وليس كبائع جرائد يعيش مع كومة من الطلبة داخل حجرة صغيرة.

أخذ محسن "المغربي" تذكرته وذهب بها إلى وكالة سياحة وأعادها إليه بعد أن قام بتعديلها فصارت صالحة للسفر من فيينا إلى كازابلانكا بدلاً من فيينا القاهرة ولم يكن يتصور أن هذا في الإمكان.

حمل معه الهدايا التي أرسلها محسن إلى أهله وخطيبته في المغرب، كما حمل الدبدوب الكبير الذي رجاه محسن أن يوصله للخطيبة التي لم يرها منذ ثلاث سنوات، وحمل مع الدبدوب الرسائل والصور والسلامات والأشواق ثم حزم حقائبه وتوجه إلى المطار وركب رحلة الخطوط المغربية.

هبطت الطائرة في مطار محمد الخامس بالدار البيضاء فلاحظ

تواجدًا أمنيًا كثيفًا ومئات الجنود يملأون المكان أسفل الطائرة وفي كل أنحاء المهبط على نحو يثير الفزع.

اندفع مع الركاب داخل الصالة حيث شبابيك الجوازات، وكان الجو البوليسي محسوسًا هنا أيضًا ويجثم على أنفاس الركاب الذين لاذوا بالصمت في انتظار أن يفهموا ما الذي يجري. سأل الواقف إلى جانبه: هل تعرف ما سبب كل هذه الحشود الأمنية، وما هذا التوتر المخيم على المطار؟ فقال له: اليوم يجري اجتماع لوزراء الخارجية العرب الذين يشكلون جبهة الصمود والتصدي، أولئك الذين يعلنون وقوفهم ضد معاهدة السلام التي أبرمها الرئيس المصري مع إسرائيل، وأضاف: ولأن الوزراء العرب يتوالى وصولهم إلى المطار، فإن الإجراءات الأمنية صارمة والأعصاب مشدودة على آخرها بعد وصول مكالمة تحذر من وجود قنبلة في المطار.

كنا في عام 79 عقب توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل وكانت العلاقات العربية المصرية في أسوأ حال بعد قيام السادات بزيارة القدس ولقائه بالإسرائيليين، ثم مفاوضاته التي أعقبت الزيارة وانتهت في كامب دافيد بتوقيع الصلح مع إسرائيل.

شعر بينه وبين نفسه بدهشة بالغة من أن يكون للمغرب بالذات نفس الموقف الراديكالي الذي تتبناه بغداد ودمشق، وهي الدولة التي تواترت الأقاويل حول علاقة ملكها بالإسرائيليين من زمن، ولم يفهم كيف يلومون السادات على أنه فعل في العلن ما يفعله الكثير منهم في السر منذ قيام إسرائيل!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الحقيقة لم يكن مستريحًا لما فعله السادات، لكنه لم يكن متعاطفًا مع خصومه كذلك. وصل إلى ضابط الجوازات وكان يلوك لبانة في رقاعة واضحة فقدم إليه باسبوره ومعه ابتسامة.

أمسك الرجل بالجواز في غضب غير مفهوم وأخذ يقلبه يمينًا ويسارًا ونظر إلى الصورة قائلاً: هذا الشخص في الصورة لا يشبهك! فرد عليه ببرود: معك حق.. هذا الشخص لا يشبهني، هذا الشخص هو أنا، وأنا لم أعد أشبهني منذ فترة!.

زادت إجابته من غضب صاحب اللبانة دون قصد منه فقال: هذا الجواز أيضًا منته ولا يصلح للسفر. من أين أتيت وكيف سمحوا لك بالركوب بهذا الجواز؟.

قال: يا سيدي أنا قادم من فيينا وكنت أعمل هناك لمدة ستة شهور وقد قررت أن أقضي أسبوعًا ببلدكم الكريم قبل عودتي إلى بلدي مصر.

نظر إليه الضابط مستريبًا ثم فاجأه بالسؤال: قل لي ما رأيك فيما فعله السادات؟.

أحس بالغضب من سخافة السؤال لكنه أجاب: ماذا تقصد بما فعله السادات؟.

قال الضابط: لا تفهم أم أنك تعجز عن الرد.

حاول أن يتسلح بضبط النفس حتى لا يثير غضب الغبي الذي يستجوبه لأنه علم من محسن أن الإنسان عندهم أهون من البعوضة فقال: لا شأن لي بما فعله السادات ولا أرى له علاقة بزيارتي لبلدكم.

سأله: هل تعرف أحدًا بالمغرب؟.

قال: في الحقيقة لي صديق مغربي يقيم بفيينا وهو الذي أغراني بقضاء الإجازة عندكم. ما اسمه؟. رد: اسمه محسن.. لماذا؟.

قال الضابط وقد تغير لونه ودق على المكتب الخشبي بيده: أنا الذي أسأل وليس أنت.. ماذا يعمل سي محسن؟.

أجاب وقد بدأ يتشاءم: سي محسن يعمل ترزيًا يخيط الملابس.

قال الضابط في تهكم: ما شاء الله.. صديقك ترزي!.

أحس بالضيق من رزالة الضابط وأسئلته السخيفة فتوجه له بالسؤال: هل مهنة الترزي أصبحت جالبة للمتاعب في الدار البيضاء؟.

رد الضابط الذي يشبه الضبع وهو يجز على أسنانه التي يضع اللبانة بينها: للمرة الثانية أحذرك.. أنا الذي يوجه الأسئلة... قل لي هل معك نقود لهذه الرحلة أم أنك ستبحث عن بيوت جيش الخلاص من أجل المبيت؟.

رد مستجيبًا للاستفزاز: لم أكن أعلم أن لديكم فروعًا لجيش الخلاص هنا.. وعمومًا هذه البيوت في فرنسا والنمسا أغلب ضيوفها مغاربة!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

امتقع وجه الرجل وسأل في لهجة حادة: هل معك نقود أم لا؟.

أجاب: طبعًا. معي نقود.

سأله: كم معك؟.

قال: حوالي ثلاثة آلاف دولار.

طلب الضابط أن يرى النقود. أخرجها من جيبه وعرضها أمام الضابط وهو ممسك بها.

قال الضابط: دعني أعدّها.

بدأ القلق يداخله وشعر أنه وقع في فخ. لم يكن يفهم ماذا يحدث ولماذا كل هذا التعنت، ووجد نفسه محتاراً هل يعطيه الفلوس أم يصرخ ويستنجد بالبوليس ليكون حاضراً ما يحدث بينه وبين هذا الرجل وشاهداً عليه... لكن يا إلهي.. إن هذا الرجل هو نفسه البوليس. آه يا وطني العربي.. بالأمس كان في النمسا يستطيع أن يزأر في وجه أي ضابط لو عبس في وجهه بل لو ضاقت ابتسامته قليلاً وهو يحدثه، واليوم يدعو الله ألا يقوم هذا الضابط بسرقة فلوسه وإلقائه في السجن بدون أسباب!.

شعر أنه لم يعد شغوفًا بالزيارة وصار ما يشغله هو العودة إلى مصر ومعه فلوسه.

نظر حوله فأبصر مجموعة أوروبيين يقفون خلفه فسعى لجعلهم شهوداً لأنه لم يكن مطمئنًا لنوايا الرجل.

التفت اليهم وقال بصوت مسموع: هل في بلدكم يقوم رجال الجوازات بإحصاء فلوس الركاب؟ ثم أضاف: سأعطي هذا الرجل فلوسي ليعدها، ثم استدار للضابط وقدم له كل ما في جيبه. شرع الرجل يعد في هدوء وهو يطحن اللبانة ثم أخذ يعيد العد وهو يطرقع اللبانة في رقاعة واضحة. في هذه اللحظة دخل عليه رئيسه وسأله ماذا يفعل فارتبك وقال إنه يتأكد من أن هذا المصري قد أتى للسياحة فعلاً وأن معه ما يكفي من نقود، فقال له في حزم: أعد له فلوسه فوراً وضعه مع المحتجزين!.

كان سعيدًا وهو يحتضن فلوسه ويعيدها إلى جيبه لكنه انتبه إلى الكلمات الأخيرة، وشعر باضطراب وهو يستعيد جملة "ضعوه مع المحتجزين".

كان وقع كلمة المحتجزين على أذنه مفزعًا، ثم وجد نفسه يسير في ممر طويل مع أحد الجنود الذي رفض أن يجيب عن أسئلته وأوصله إلى داخل صالة يملأ مقاعدها مجموعة من الركاب تم احتجازهم مثله ولم يسمح لهم بالدخول، وكانوا كلهم من العرب!.

أخذ يتفرس في الرفاق الذين جلسوا في مجموعات ميّز منهم ركنًا للفلسطينيين الذين كانوا يتسامرون ويتبادلون النكات. حياهم فرحبوا به وأخبروه أنهم معتادون على هذه المعاملة في كل المطارات العربية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضحك في سخرية من أن الأشاوس أصحاب الصمود والتصدي الذين قطعوا علاقتهم بمصر التي باعت القضية الفلسطينية هم الذين يحتجزون الفلسطينيين ويمنعونهم من دخول بلادهم ! .

ولمح فتاة وشابًا مصريين يتسليان بلعب الورق . . أخبراه أنهما أتيا لقضاء شهر العسل بعد أن قاما بالحجز وسداد قيمة الرحلة كاملة ، والآن لا يدريان من يعوضهما عن أحلامهما في رحلة الزواج وفلوسهما التي لن تعود! .

أبصر ركنًا لليمنيين به بعض الرجال الذين افترشوا الأرض وأسندوا ظهورهم للحائط وكان واضحًا أنهم في حالة "تخزين" وهي حالة تطلق على متعاطي القات .

ورأى سودانيين وأردنيين وسوريين وعراقيين ولبنانيين ، لكن بين كل هؤلاء لفتت نظره فتاة كانت تجلس وحيدة في آخر الصالة ، جميلة الوجه لكن يغشى وجهها حزن واضح .

عندما اقترب منها وضح له من شكل عينيها أنها كانت تبكي . استأذنها في الجلوس معها فلم تمانع .

قدم لها نفسه فأخبرته أن اسمها سعاد وأنها فنانة تغني بفرقة أم كلثوم للموسيقي العربية التي يقودها الأستاذ حسين جنيد . روت له أنها حضرت إلى المغرب في زيارات سابقة وقامت بإحياء حفلات في عدة مدن مغربية وأدركت أن هذه البلاد يعشق أهلها الغناء والطرب ، وهذا ما

شجعها على قبول عرض قدمه لها أحد المتعهدين المغاربة لتقيم لمدة عام وتغني كل ليلة في الملهى الذي يعمل لحسابه ، ثم زادت في البكاء وهي تؤكد أن المتعهد ينتظرها الآن بالخارج ويعجز عن فعل أي شيء لها! .

قالت : هل تصدق أنني اقترضت ثمن تذكرة السفر استنادًا إلى أنني سأحصل عليه فور وصولي ولا أعرف الآن كيف أسدده ، ثم أضافت في حنق وهي تجفف دموعها : ما شأني أنا بالسياسة أو بكامب دافيد . . أنا مغنية تقدم فنًا يحبه العرب على اختلاف بلدانهم . قال لها في تردد : اسمحي لي أن أسألك هل تحتاج المطربة في مصر أن تسافر من أجل المال ، وهل يصل الأمر لدرجة اقتراض ثمن التذكرة؟.

ضحكت في أسى لكن بدا أنها أنست إليه فقالت : يا عزيزي هذا ينطبق على مطربي الإذاعة والتليفزيون الذين تقام من أجلهم الحفلات ، كما ينطبق على المغنين بشارع الهرم في الكباريهات ، أما نحن . . وطفرت من عينيها دمعة . . . نحن الذين نغني في فرقة الموسيقى العربية وفرقة أم كلثوم فلا نصيب لنا من الشهرة أو الفلوس ، مكتوب علينا أن نقضي العمر نغني لأنفسنا أو لجمهور محدود ، أو أن نقف كورس وراء مغنية دلوعة لا تعرف شيئًا عن الغناء .

قال محاولاً تخفيف توترها : من الواضح أن الليلة ستطول ولا أمل لنا في طائرة تعود بنا لمصر قبل الصباح ، ما رأيك أن تغني وتشجينا بصوتك وتجعلينا ننسى الغم والنكد قليلاً . ردت بصوت أنهكه البكاء والتوتر :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هل هذا وقته؟ لا أظنني في حالة تسمح بالغناء . . إنني أكاد أجن من سوء البخت والحظ الهباب . . هل تعلم أنني لا أحمل حتى تذكرة عودة ولا أدري ماذا سيفعلون معي . . هل يضعونني بالسجن حتى يتدخل أحد ويدفع لي ثمن التذكرة؟ .

قال في اندفاع : كيف هذا وأين هي السفارة المصرية؟ .

قالت : لا أظنهم يسمحون لنا بالاتصال بأحد .

زاد على كلامها بعد أن تذكر مآسي المصريين في النمسا : وحتى لو اتصلت بالسفارة لا أظن أنها ستفعل شيئًا من أجلك .

لا يدري كيف وجد نفسه في هذه اللحظة يتطوع بعرض شراء تذكرة العودة من أجل سعاد . قال لنفسه : إن الفلوس كانت على وشك أن تروح في الوبا ويأخذها الضابط الضبع فماذا لو دفع جزءًا منها لهذه الفتاة التعيسة؟

قال لها : لقد تم حل مشكلة التذكرة ولم يعد لديك حجة في عدم الغناء .

نظرت إليه وقسمات وجهها تنطق بالامتنان رغم أن دموعها لم تتوقف : هل أنت مصمم؟ فرد مداعبًا : لو لم تغن سأقوم أنا بالغناء ولتتحملي ما يفعله بنا الجنود وقتها . ابتسمت وقالت : لم أتصور في يوم من الأيام أنني سأغني وأنا محتجزة وسط رفاق يشاركونني نفس

الجريمة . . جريمة أن تكون عربيًا . . حاضر يا سيدي . . ماذا تريد أن تسمع؟ .

قال : أي شيء من الموشحات القديمة .

فكرت قليلاً ثم قالت : لأجلك سأغني "منيتي عز اصطباري" لسيد درويش ، هل تعرفها؟ قال : أعرفها وأعشقها .

أخذت تدندن بصوت خفيض مع نفسها في البداية ثم انطلقت تشدو بصوت عذب شديد البهاء فجذب صوتها الرفاق العرب المتناثرين في الصالة هنا وهناك فأخذوا يقتربون ويتلاقون ويتحلقون حول سعاد وصوتها يتألق منشدة : (منيتي عز اصطباري . . زاد وجدي والهيام . من لحاظكم كم بدا لي . . من سيوف وسهام . يا آل ودي ساعدوني . . واشرعوا لي في الغرام . إني مغرم حبي هاجر . . ناري تضرم قلبي صابر . كم بيوعد لم باخالف . . هو يحلف وانت عارف . وللا أقول لك ما علينا . . كن في حالك والسلام) .

ما كادت تفرغ من الغناء حتى انطلقت عاصفة من التصفيق من زملائها المحتجزين ومن ضباط وجنود المطار الذين جذبهم أيضًا صوت الكروان المصري الجميل .

أحست بالتأثر وسط الجمهور العربي وقالت : هذه هي مأساتي أنا ومن على شاكلتي من المطربين والمطربات ، إننا نحب الغناء ونسعد عندما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نرى من يعشقه مثلنا ويحب أن يسمعنا، لكن هذا يجعلنا نتحمل مهنة لا تجلب مالاً ولا تقدم سترًا. . مشكلتنا أننا نغني من قلوبنا، ونشعر بالحسرة لأننا ندرك أن الفن لن يصل بنا لشيء.

واصلت سعاد: إنني أنفق على أمي وأختي الصغيرة من عملي، وعندي خطيب لا نفع منه ارتبطت به منذ خمس سنوات. هو يغني معي بالفرقة ويعمل جرسونًا بكازينو النيل في الوقت نفسه، فلوسه كلها تضيع في المخدرات. سكتت قليلاً تبتلع ريقها ثم أكملت: لقد كانت هذه السفرية بمثابة ملاذ ينقذني من الفقر ويحل لي مشاكلي مع الدنيا، لكن يبدو أن للسياسيين العرب رأيًا آخر، إنهم لا يتركوننا في حالنا ويصرون على مطاردتنا في لقمة العيش أينما حللنا. . ما علاقتي بوزراء الخارجية الأغبياء الذين سيكررون كلامًا فارغًا قالوه مئات المرات. . هل دخولي إلى المغرب سيفسد عليهم اجتماعاتهم؟ ما شأني بكامب دافيد والذين وقعوها. . إن أحدًا منهم لم يأخذ رأيي فيها، فلماذا يصيبني رذاذها وقرفها؟.

حمد الله في سره وقال: لقد حرمتني السياسة العربية الرعناء من فسحة منّيت نفسي بها بالدار البيضاء لكن هذا يهون إلى جوار مشكلة هذه الفتاة. لكنه شعر بغصة عندما تذكر صديقه محسن وهداياه التي يحملها إلى خطيبته وأمه.

فوجئ بوفد من الضباط والعساكر يقتربون ومعهم صندوق من

المرطبات قدموه لهم، وأدهشه أنهم تلطفوا فقدم بعضهم اعتذارًا بأنهم ينفذون الأوامر ولم يقصدوا أبدًا أن يسببوا الكدر لأحد.

شعر بالعجب مما يستطيع الغناء أن يفعله بالنفوس، هؤلاء الناس كانوا منذ قليل ينظرون لهم بازدراء ويعاملونهم بخشونة، لكن الغناء أعادهم إلى إنسانيتهم وطبيعتهم السمحة التي حجبتها أوامر الطغاة.

فجأة انبرى أحد العساكر قائلاً: لعن الله كامب دافيد!

فانفجروا جميعًا في الضحك، وقال شاب فلسطيني: ولعن حاملها وشاربها وساقيها.

وأضاف رجل يمني: ولعن متعاطيها في القيلولة.

وتبعه شاب لبناني أنيق: ولعن ساحب أنفاسها على الأرجيلة.

وعقب مصري ابن بلد: خاصة إذا شربها على حجر وحده!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كازينو مونتريال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(1)

حين خطا بقدميه داخل كازينو مونتريال للمرة الأولى لم يكن يعرف أنه سيقع في هوى المكان، وأنّ ندّاهة الكازينو ستأخذه في أحضانها وتعقد معه علاقة حميمة ممتدة.

كان قد وصل للمدينة منذ بضعة أيام من أجل عمل يستلزم الكثير من الوقت والجهد، وكان عليه حضور اجتماعات متواصلة والدخول في مفاوضات شاقة مع جهات متعددة منذ الصباح الباكر إلى وقت متأخر كل ليلة.

وكان أكثر ما شق عليه في الأمر هو اضطراره للتنقل من مكان لمكان وسط درجة برودة رهيبة تصل إلى ما دون الصفر بكثير وهو الجو الذي لم يألفه من قبل. كل هذه العوامل جعلته في حالة إرهاق بدني وعصبي شديد. وقد تعجب من نفسه لأن النوم لم يكن يلامس جفونه رغم شدة التعب وهو الذي كان ينام فور أن يضع رأسه على الوسادة.

استهلك الشغل المضني أعصابه واكتشف أنه لم ير أي شيء من المدينة الجميلة التي تزخر بالأماكن الجديرة بالزيارة، وقرر أن يمنح نفسه بعض ما تستحق من ترفيه.

عند نهاية يوم الجمعة زاره صديقه الجديد جورج وكان قد تعرف عليه فور وصوله.

وجورج هو أحد المصريين الخواجات الذين قابل الكثيرين منهم في كندا وأحبهم كثيراً. . هؤلاء الناس رآهم في الأفلام ولم يلتق بهم في الحقيقة. بعضهم من أصول شامية وقد نزح آباؤهم في بدايات القرن العشرين مع موجات هجرة الشوام وخاصة اللبنانيين إلى أمريكا الجنوبية وأفريقيا، وجانب منهم فضل الحياة بمصر. ومن هؤلاء الخواجات أيضًا التقى بالأرمن المصريين هؤلاء الذين لم يصادفهم في مصر أيضًا، وأحس وقتها أن خبرته وتجاربه في الحياة ما زالت ناقصة وشعر بالسعادة لاحتمال أن إقامته بهذه المدينة قد تسد هذا النقص في المعرفة ببعض فصائل المصريين!.

أخذه جورج من يده ودعاه لزيارة الكازينو الذي يعد من معالم المدينة البارزة. تردد في الموافقة لأنه لم يكن يهوى المقامرة ولا تستهويه هذه الأماكن.

ضحك جورج وهو يخبره أن كازينو مونتريال ليس مجرد ناد للقمار وإنما هو عالم قائم بذاته ودنيا فريدة يتعين استكشافها، ففيه المطاعم والكافيتريات والهدايا ولعب الأطفال والنادي الليلي الذي تقام به الحفلات والسهرات، ولحسن الحظ كانت "سيلين ديون" المغنية الكندية الشهيرة تحيي حفلاً غنائيًا به تلك الليلة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحقيقة أن "ديون" الساحرة كانت السبب الأساسي لقبوله الدعوة بالسهر في الكازينو الذي يقع في جزيرة جميلة اسمها سانت هيلانة. ومن أجل الوصول للكازينو عليك أن تقطع جسراً طويلاً يصل بك في نهايته إلى المبنى المميز الذي يمكن للقادم من أول الطريق مشاهدته بأضوائه الساطعة في الليل وحرابه الطويلة المدببة تعلو سطحه وكأنها تطعن الفضاء.

على الرغم من سفره منذ سنوات إلى لاس فيجاس أكبر مدن القمار في العالم وقضائه أسبوعًا بها، فإنه لم يتورط بالمشاركة في اللعب واكتفى وقتها بالتمتع بالفرجة على جو الكازينوهات والفنادق ومراقبة اللاعبين حول الموائد ومتابعة انفعالاتهم أمام الماكينات، وكذلك تناول الطعام والشراب المجاني الذي تقدمه كبرى قلاع القمار هناك..

كان كازينو مونتريال أنيقًا يشبه المدينة نفسها التي تكتسي بطابع فرنسي بحكم انتسابها لمقاطعة كيبك، وهي المقاطعة الوحيدة من بين المقاطعات الكندية العشر التي ينحدر معظم سكانها من أصل فرنسي، ولهذا يثور بينهم كل عدة سنوات حنين ورغبة في الانفصال والاستقلال عن كندا، غير أن نتائج الاستفتاءات بين السكان دائمًا ما تفشل في تحقيق حلمهم. اعتبر سكان المدينة الكازينو منذ افتتاحه في السبعينيات متنفسًا يقضون به سهراتهم أيام الإجازات وفي بعض نهايات الأسبوع ويستمتعون بمطاعمه ومقاهيه ومحال بيع الهدايا والتذكارات به، وكذلك بالعرض الغنائي الذي يقدم ليلتي الجمعة والسبت. في هذه الليلة تألقت

سيلين ديون وأسعدت الساهرين فغنت وضحكت وبكت وأبكت الجمهور من التأثر. بعد الحفل واصل تجوله بالطوابق المختلفة للمكان وكلها تحفل بالموائد الخضراء، بعضها مخصص للعب الورق والآخر مصنوع من أجل الروليت، وبقية المساحات تنتشر بها المئات من ماكينات اللعب التي تدار بالعملة.

اقترح عليه جورج أن يجرب حظه في اللعب، لكنه لم يتحمس. قام جورج وأحضر بعض الفكة من العملة فئة ربع دولار وأعطاه حفنة في يده ووقف إلى جانبه يلعب ويريه كيف يضغط على الزر بجانب الماكينة فتتحرك صفوف الصور في عملية إعادة تفنيط ثم تستقر على وضع معين.. معظم هذه الأوضاع خاسر وبعضها يكسب قليلاً، وهناك وضع معين إذا استقرت عليه الماكينة يكسب كثيراً جداً، وهذا الوضع الأخير هو أمل المقامرين جميعًا وحلمهم الذي ينامون عليه ويصحون به ولا يفكرون في سواه.

تناول العملات من جورج وبدأ يجرب حظه. بمرور الوقت بدأت الانفعالات المصاحبة للعب تستهويه خاصة عندما يقترب من المكسب الذي يضيع في آخر لحظة.

ووقف جورج بجانبه يلعب على ماكينة أخرى وصياحه يتزايد بعد كل ضربة.

بعد حوالي ساعة من اللعب كان الوقت قد تعدى الثانية صباحًا فأرسل جورج أحد العاملين لإحضار السيارة من الجراج استعداداً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للرحيل. حضرت السيارة بالباب، لكنه لدهشة جورج وقد استهوته اللعبة طلب من الأخير أن يذهب هو لأنه سيمكث قليلاً ثم يأخذ تاكسيًا إلى البيت. بعد رحيل جورج كان قد اندمج تمامًا في اللعب وأصبح شديد التركيز وأخذ يحاول دراسة هذه الماكينات ومحاولة فهم الآلية التي تحكم تشغيلها، وأدرك أنها لا يمكن أن تُترك للدوران الحر غير المحكوم ببرنامج صارم يحدد لها المكسب الذي يجب أن تحققه في اليوم متفوقًا على ما تدفعه للفائزين. وبينما هو مستغرق في محاولة سبر أغوار الماكينة فوجئ بها تطلق نغمة موسيقية صاخبة ثم تمطر عملات من نفس فئة الربع داخل السور المعدني المحيط بها محدثة رنينًا يسمعه كل الواقفين على الماكينات المجاورة، وهذا الدويّ مقصود بالتأكيد لأنه يمنح الآخرين أملاً في أنه يمكنهم أن يفوزوا هم أيضًا. أخذ يلملم العملات في سعادة، ولم تكن قيمة المبلغ هي سبب السعادة.. لكنه الفوز!.

كان التعب قد نال منه والفجر قد انبلج ومع هذا فقد قرر قبل أن يرحل أن ينتقل لمستوى آخر من الماكينات فذهب للجهة التي بها اللعب بدولار كامل وقرر أن يستثمر فيها ما كسبه من قبل. كانت ضرباته موفقة من البداية وأخذت الماكينة تدخر له المكسب المتصاعد ضربة بعد ضربة، وفجأة انطلق صوت الموسيقى الجميل الذي يسبق هطول الدولارات المعدنية في إشارة إلى فوزه بمبلغ كبير. تهلل وجهه من السعادة ولم يشأ أن يداري فرحته فأطلق صوتًا سمعه الجميع قائلاً: ياهووو.. دهب ياقوت مرجان.. أحمدك يا رب. أقبل عليه اللبنانيون من الجوار

يهنئونه بعد أن سمعوا صوته العربي. ومدينة مونتريال بفضل هجرة اللبنانيين وحيويتهم قد أصبحت شبه عربية بعد أن امتلأت بمحلات البقالة والمطاعم والمقاهي وسائقي التاكسي اللبنانيين. أخذ يلملم الدولارات ويضعها داخل الكوز الكبير المخصص للعملات والفيشات الخاصة باللعب، وقرر أن يكتفي بهذا القدر من اللهو وينصرف. ذهب إلى الكاشير لاستبدال الفلوس المعدن بورق ولاحظ أن الموظفين في الشبابيك ملتزمون بكود في الأداء يبدأ بابتسامة مع فرد اليدين أمام الزبون حتى يتأكد من الشفافية ثم تسلم النقود أو الفيش منه وعدّها قبل منحه المال. تناول معطفه وخرج إلى الباب حيث لسعات البرد القارص. وقف في الطابور ينتظر التاكسي، وبعد قليل حل دوره وتوقف التاكسي أمامه مباشرة، لكنه بدلاً من أن يصعد إلى السيارة، أعطاها ظهره واندفع إلى داخل الكازينو مرة أخرى وقد أخذ قرارًا بأن يلعب بالفلوس التي كسبها ويحصل على مزيد من التسلية قبل أن يعود إلى البيت!.

تعجب من نفسه.. ما الذي حدث له وما هذا الذي يفعله؟ لقد كان على بعد خطوة واحدة من ركوب التاكسي والعودة إلى البيت فإذا به يستدير عائدًا إلى الداخل ليواصل اللعب! هل هذا هو سحر المكان الذي يحذرون الناس من الوقوع في شباكه؟.

طمأن نفسه بأن الأمر ليس على هذا النحو وأنه يمسك بأطراف نفسه ويسيطر عليها.. هو فقط يمنحها بعض الترفيه.!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أسف أنه سرعان ما خسر ما كسبه وفوقه مبلغًا آخر! . ثم نجح في انتزاع نفسه من أمام الماكينة وقرر الرحيل بعد أن ثقل جفناه وصار يفتحهما بصعوبة.

أشار إلى تاكسي وركبه وهو شبه نائم حتى وصل إلى البيت.

استيقظ من النوم متثاقلاً عند الظهيرة وخياله ما زال ممتلئًا بصور الماكينات وصوت رنين الفيشات المعدنية المتساقطة في تناغم بديع عند الفوز. شعر برغبة في أن يرتدي ملابسه ويعود فيكمل متعة اللعب والتسلية المثيرة، بيد أنه راجع نفسه في لوم متسائلاً: ما هذا التخريف؟ هل أصبحتُ مقامرًا أصحو من نومي راغبًا في اللعب. . لا لا هذا لن يحدث، لقد كانت مرة من أجل اللهو البريء وانقضت، ولن أذهب إلى هناك أبدًا. . ثم استدرك: لن أذهب إلا في المناسبات وبصحبة الأصدقاء.

قضى يومه أمام التليفزيون، وفي المساء دخل السينما المجاورة وعند خروجه منها تلكأ في العودة إلى المنزل وأخذ يتمشى على الرصيف جيئة وذهابًا وهو يقلب أمورًا شتى في رأسه. أخذ يردد أبيات شعر قديمة ويعتصر ذاكرته من أجل استدعائها وهذا الأمر يقوم به عادة عندما تكون فكرة مسيطرة عليه ويريد مقاومتها، ثم مال إلى شارع جانبي ودخل إلى أحد المقاهي وقرر أن يسلي نفسه بمراقبة الشباب والبنات الطلبة يجلسون ومع كل منهم جهاز الكمبيوتر الشخصي يراجع عليه أبحاثه ودراساته في المقهى الذي يفتح 24ساعة.

كانت المنطقة التي يقيم فيها في وسط البلد هي منطقة جامعات فبها جامعة ماكجيل الشهيرة وعلى مقربة منها جامعة كونكورديا وهما من أكبر جامعات أمريكا الشمالية، وكانت المنطقة المحيطة بهما وكأنها مدينة للطلبة حيث كانوا يشغلون كل غرفة خالية في وسط البلد.

أسعده وجوده وسط هؤلاء الشباب وسكنه بجوارهم وتمنى لو عاد به العمر ووجد نفسه طالبًا مثلهم في وطن حر وغير مثقل بالخرافة.

فرغ من تناول القهوة ثم قام فاتجه سائرًا صوب البيت لكن فجأة وبدون تفكير أوقف تاكسيًا وسمع نفسه يقول للسائق: إلى الكازينو!.

في التاكسي شعر بأن نفسه هدأت بعد أن ظل يقاوم كثيرًا وطمأن نفسه بأن المسألة لن تتعدى ساعة يقضيها في اللهو الذي يكسر الوحدة ثم يعود، وكان للحق يشعر بوحدة قاتلة، وهذا المكان من أجمل ما فيه أنه يغتال الوقت اغتيالاً من فرط الإثارة. وعلى العموم فاليوم إجازة وغدًا أيضًا، ثم يستأنف العمل من جديد وينسى الكازينو وما فيه.

دلف إلى الداخل وترك معطفه للموظفة بالباب وانطلق بين الماكينات والموائد يتفرج على اللاعبين وقد وجد فيهم دنيا خصيبة يمكن الكتابة عنها، وتذكّر رواية "المقامر" للروائي الروسي فيودور ديستويفسكي والتي وصف فيها بدقة مشاعر المقامر لأنه هو نفسه كان مدمنًا للقمار!. بعد نهاية جولته أقنع نفسه أنه لم يأت من أجل اللعب، وليبرهن على صحة هذا دخل إلى المطعم وطلب وجبة عشاء وجلس يأكل في هدوء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان الليـل قـد انتـصف والكـازينو في ذروة امتلائـه بالـساهرين ليلـة الـسبت، والفرقـة الموسـيقية تعـزف. التقـى في طريقـه بـشخص يعرفـه فاقترب منه وهمّ بمصافحته لكن الآخـر كـان محـتقن الوجـه تكـاد عينـاه تخرجان من محجريهما، وعبره غير حافل بالسلام عليه وكأنه في عالم آخر وتوجه إلى ماكينة الصرف الآلي. تابعه وهو يخرج من جيبه الكارت تلـو الكارت وكلها تخذله ولا تخرج له أي نقود، ثـم رآه يجلـس علـى الأرض مستسلمًا بجوار الماكينة واضعًا وجهه بين كفيه في أسى. لم يكن صعبًا أن يفهم أن الرجل قد خسر كل فلوسه ثم أفرغ كـروت الائتمـان واقـترض كل ما تسمح باقتراضه.

توجه إليه وربت على كتفه وطلب منه أن يقوم معه، لكـن هـذا رفـع وجهه وما إن رآه حتى تعلق به وسـأله في ضراعة أن يقرضـه مائـة دولار سيردها إليه في أقرب فرصة. تردد ولم يعـرف كيـف يـرد فتـابع الرجـل توسله: أرجوك أرجوك. أشفق عليه من المصير الذي رآه يندفع إليه لكنه خجل أن يرفض طلبه وهو الرجل المحترم فأعطاه المبلغ وهو يرثى لحاله. تـرك الرجـل وابتعـد لكـن منظـره المـضطرب بـشعره المـشعث وعينـاه الحمراوان أخافه وجعله يحدث نفـسه بـأن مـصيره قـد يكـون مثـل هـذا الرجل المحترم الذي يشغل وظيفة مرموقة بالاتحاد الدولي للطيران المـدني في مونتريال. وسأل نفسه: هـل تنـوي يـا تـرى أن تنجـرف إلى الهاويـة وتتعلق بهذا المكان الـساحر البـديع الـصاخب المبهـر الرائـع.. الجالـب للذل؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(2)

طرد الأفكار السيئة التي مرت بفكره، وقرر أن ينسى الرجل وأقنع نفسه بأنه هنا من أجل التسلية فقط فلا هو ينقصه المال ولا هو مقامر بطبعه، ثم مضى بين ماكينات اللعب وقد عقد العزم ألا يجعل نفسه في موقف هذا الرجل أبداً. ذلك الرجل المحترم الذي أذله القمار ونال من كبريائه وجعله يستجدي مائة دولار ليكمل اللعب. ونوى بينه وبين نفسه أن ينسحب فوراً إذا ما تعدت خسارته مبلغًا معينًا، كما قرر أيضًا ألا يستسلم للغيظ وأن يكبح الرغبة في الثأر عندما يخسر، لأنه أدرك أن كل الهالكين في هذا المكان كان العناد هو سر هلاكهم، وفطن إلى أن اللاعب مهما بلغ ذكاؤه لن يحقق انتصاراً على الماكينات أبداً.

أعجبه تفكيره المنطقي وعقله الذي لم يخذله أبداً. بدأ يلعب بدولار في الدور الواحد وكان محظوظًا فحقق بعض الكسب، ثم انتقل إلى صالة اللعب الكبير التي يبدأ حدها الأدنى بخمسة دولارات وأدهشه أنه في خلال ربع ساعة كسب ثلاثة آلاف دولار، وأغراه هذا بالانتقال إلى ماكينة بعشرة دولارات للدور، وكانت هي الأخرى سخية فناوشته في البداية وسلبته ألف دولار لكنها اعتذرت له وأنالته خمسة آلاف. أخذ

هدنة وجلس يدخن سيجارة وهو لا يصدق ما يحدث. لقد كسب ثمانية آلاف دولار في أقل من ساعة.. ما هذا الكازينو الجميل؟.

أخذ قراراً بأن يفعل عكس ما يفعل المقامرون عادة. إنهم يعودون كل يوم يجرون أذيال الخيبة والخسران بسبب أنهم لا يقنعون بقليل من اللعب وبعض المكسب، لكن يغترون ويواصلون اللعب وفي هذا يكون مقتلهم. قرر أن يخرج لسانه للكازينو وأن يخرج محملاً بالمال وأعجبته فكرة أن ينتصر على نفسه ويقهر إغراء البقاء.

في الطريق لكاونتر استبدال الفيش والحصول على الكاش واتته فكرة أخرى لكنه استنكرها على الفور. كانت الفكرة التي بدأت تدق رأسه مؤداها أن الليلة هي ليلة سعده وأن الماكينات قد تبسمت له، فلماذا يغلق بيده الباب في وجه حظه؟. هذا ما يقوله المقامرون العتاولة وهم في طريقهم للسقوط. هكذا حدث نفسه لينفرها من الفكرة. لكن نفسه حدثته بأنه يختلف عن هؤلاء لأنهم لا يملكون مثل عقله وحسن إدارته للأمور. حسم الموضوع بالانحياز لفكرة البقاء قليلاً ما دام الحظ ما زال يتبسم!.

نوى المقامرة بنصف المبلغ الذي كسبه، حتى إذا خسره يرحل على الفور. قام هذه المرة ودخل مباشرة إلى الآلات ذات الخمسة والعشرين دولاراً للضربة الواحدة وكانت هذه مخاطرة كبيرة دخلها بقلب جامد ما دام يلعب من حصيلة المكسب وليس من فلوسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بدأ يلعب . . كانت الماكينة شرهة وبخيلة، تأخذ منه خمسمائة دولار ثم تعطيه مائة . وظلت هكذا حتى خسر حوالي أربعة آلاف دولار . قرر أن يقامر بالمائة الأخيرة ثم يهرب من المكان بغير عودة .

ضغط على الزر وأغمض عينيه حتى لا يرى الصور وهي تتحرك وأرهف السمع وأنفاسه تتهدج ثم سمع صوت الموسيقى الجميل والنغمة السحرية الدالة على الفوز، وفتح عينيه ليجد نفسه قد ربح أربعة عشر ألف دولار . أراد أن يرقص وأراد أن يصرخ من الفرحة لكنه تصنّع الوقار واعتصم بالهدوء حين توافد عليه جيرانه من اللاعبين يهنئونه والحسد يهري أكبادهم ! . انتظر إلى أن حضر إليه أحد العاملين واصطحبه إلى مكتب تجلس إليه حسناء قدمت له هدية عليها شعار الكازينو وسألته إذا كان يريد شيكًا مصرفيًا أم يريد المبلغ كاش . تردد قليلاً ثم طلب الكاش . جلس في الكافيتيريا يحتسي الشاي ونظر إلى الساعة فوجدها تعدت الخامسة صباحًا . كان منتشيًا بالفوز وأقسم أن يخرج بعد أن يشرب الشاي ويعود إلى البيت بالثمانية عشر ألف دولار التي اقتنصها من هذا الكازينو العبيط ! .

خرج إلى الباب وطلب تاكسي وقاوم كل الشياطين التي غزت دماغه تدعوه للعودة وتجريف الكازينو مما به من دولارات في هذه الليلة المباركة التي يحلم عتاة المقامرين بمصادفة مثلها ! .

عندما وصل إلى البيت سمح لبخار الفرحة أن ينطلق فأخذ ينط داخل

الغرفة وهو يصرخ ويهلل في سعادة لأنه تغلب على شيطانه ونجح في الخروج منتصراً، ثم فوجئ بالتليفون يدق وحارس المنزل يخبره بأن الساكنة بالدور الأسفل سوف تطلب البوليس والإسعاف معًا لأنها تظن أن الساكن الذي يعلوها قد فقد عقله ! .

نام قرير العين وصحا بعد العصر منتشيًا فقام بتحضير الإفطار ثم نزل إلى الشارع وأخذ يتسكع في الأسواق والمحلات ودخل السينما . بعد الخروج تناول عشاءه في أحد المطاعم ثم عاد إلى البيت وفتح التليفزيون، وعند منتصف الليل دخل السرير لينام .

ظل يتقلب في الفراش وهو يشعر بالتوتر ثم عاد إلى التليفزيون مرة أخري فجلس أمامه وهو لا يرى شيئًا مما يعرض، ثم نهض وارتدى ملابسه بسرعة وهبط إلى الشارع فأخذ سيارة أجرة إلى الكازينو ! .

في الطريق نجح في إسكات الصوت الذي أخذ يدوي داخله مؤنبًا بعد أن قال له بصوت عال سمعه سائق التاكسي : اخرس يا كلب !

بعد ذلك جرى كل شيء بسرعة وفعل ما فعل دون أن يسمح لنفسه أن تقاطعه أو تلقي على مسامعه دروسًا . دخل كالمسحور على الماكينات التي تلعب الدور الواحد بمائة دولار والتي تعدُ الفائز بالجائزة الكبرى مائتا ألف دولار . اشترى فيشات معدنية بثمانية عشر ألف دولار وهي قيمة المبلغ الذي كسبه الليلة الماضية وجلس يلعب . نصف ساعة . . نصف ساعة فقط وكان قد خسر المبلغ كله ! .

جلس على الأرض ممسكًا رأسه بيديه والحسرة تعصف بكيانه لا يكاد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يصدق ما حدث. لقد خسر منذ قليل مبلغًا كان يمكن به أن يشتري شقة تمليك في مصر.

ظل ممسكًا برأسه وعقله المشوش يعمل في عدة اتجاهات، أحدها أن ينصرف على الفور ولا يعود إلى هذا المكان الملعون مرة أخرى، وأحدها أن يستخدم كروت الائتمان في جيبه لسحب مبلغ يلعب به عسى أن يسترد شيئًا مما أضاعه. . ولسنا في حاجة إلى القول إنه قد انحاز لهذا الاتجاه فقام إلى إحدى ماكينات الصرف الآلي ووقف في الطابور خلف الواقفين وهو شديد العصبية وقلبه يخفق بشدة وكان يتعجل الوصول للماكينة ولا يطيق الانتظار، فلما شعر أن الواقف أمام الماكينة يتلكأ وهو يجرب عدة كروت غلى الدم في عروقه ولا يدري كيف رفع صوته عاليًا بالسباب للرجل وهو يتعجله أن ينهي معاملته بسرعة، فلم يدر إلا واثنان من رجال الأمن العاملين بالكازينو يتوجهان إليه ويقتادانه في هدوء بعيداً حيث قاما بتحذيره وطلبا منه ألا يكرر ما فعل مرة ثانية وإلا سيقومون بإخراجه من المكان ولن يسمحوا له بالدخول مرة أخرى، كما أوضحوا له أن للمكان تقاليد يتعين مراعاتها، ولم ينسوا أن يقدموا له نصيحة مجانية بأنه لو وجد نفسه يعاني من مشكلة إدمان المقامرة فهناك رقم مجاني يمكن أن يتصل به فيساعدوه على تخطي الأزمة والشفاء من الإدمان!.

شكرهما فتركوه على وعد بألا يفقد أعصابه مرة أخرى.

قام بسحب ألفي دولار وعاد إلى الساحة من جديد وجرب أن يغير

حظه مع نوع جديد من الماكينات وتمني أن تكون حنونة معه وأن تترفق بأعصابه الملتهبة، لكن الماكينة كانت بلا قلب فتركته يخسر الدور تلو الدور وخيل إليه أن الماكينة تسخر منه وتضحك على خيبته فهمّ بركلها بحذائه لكنه خشي أن يعود إليه رجال الأمن ويطردونه من المكان.

مضى بين ماكينات اللعب يسأل نفسه أي واحدة من هؤلاء هي الماكينة السخية؟ لقد أدرك رغم قصر علاقته بالكازينو أنه دائمًا ما تكون هناك بين كل عدة ماكينات متجاورة واحدة سخية تمنح اللاعب أكثر مما يتمنى في مقابل مجموعة ماكينات شرهة تتسم بالجشع وتفرغ جيوب اللاعبين بكل قسوة وتتركهم يمضون بحسرتهم!

وقف بجوار ماكينة وأخذ يمسح بيده عليها كأنه يلاطفها ويرقق فؤادها ثم صار يضع بها الورقات من فئة مائة دولار ثم يضرب. أخذت ضرباته تطيش حتى فقد الألفين الأخريين.

توجه بخطى ثقيلة إلى البار وجلس يحتسي قدحًا من البيرة وأخذ يسأل نفسه: ما الموضوع؟ ألا أستطيع أن أسترد الفلوس التي كسبتها بالأمس. . دعنا مما كسبته بالأمس. . ألا أستطيع أن أسترد فلوسي الشخصية ثم أنصرف ولا أعود إلى هنا مرة ثانية. رفع كأس البيرة وهو يستمع إلى نفسه تجيبه: وهل إذا استرددت نقودك يا ناصح ستنصرف حقًا أم يلعب بك الغرور والطمع كما سبق أن فعلت؟ وهل إذا تضاعف المكسب ووصل إلى عشرات الآلاف من الدولارات هل تقنع وتنصرف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجد نفسه يريد أن يجيب لكنه لا يجد الإجابة فهو لم يعد يدري حقًا ما يريد. كل ما يدريه أنه يريد كمية من الفلوس لا تنفد حتى يستطيع أن يلعب ما شاء له اللعب!.

ثم اجتاحته حمى جنونية فقام من مكانه وأسرع الخطى نحو ماكينة الصرف الآلي فقام بإفراغ كل الكروت التي يحملها وحصل على كل ما سمحت به وملأ جيوبه بالمبلغ الكبير ثم شرع يتنقل بين الماكينات مثل المجنون يخسر هنا ألفًا وهنا ألفين، ويذهب إلى البار ثم يعود فيستأنف اللعب ومن وقت لآخر تمنحه ماكينة بعض الرجاء ثم يتبدد بعد أن تجرده مما أعطته.

استطاع بعد مقاومة عنيفة أن يحتفظ بأجرة التاكسي فقبض على آخر عشرين دولار وعاد إلى البيت والألم يعتصره لدرجة خشي معها ألا يطلع عليه النهار. وقتها عرف لماذا ينتحر بعض المقامرين، وخبر الشعور الذي يدفعهم لهذا القرار، وأحس أن الموت قد يكون هو الحل إذا ظل هذا الشعور المؤلم بالحسرة والعذاب يلازمه طويلاً.

كان أول ما فعله عندما استيقظ من كوابيسه في الصباح أن حدّث أخاه في التليفون بالقاهرة وطلب منه أن ينزل بأسرع ما يمكن إلى البنك وأن يسحب بالتوكيل الذي معه مبلغ 50 ألف جنيه يقوم بتحويله إليه فورًا فلما استفسر أخاه عن السبب صرخ في التليفون ولم يسمح له بأي أسئلة أو استفسارات.

لم يبرح البيت طيلة اليومين التاليين لسبب بسيط ومأساوي في الوقت نفسه. لم يكن يملك ثمن تذكرة باص تنقله إلى أي مكان، والأغرب أنه قام بالبحث في الثلاجة عما يصلح للأكل فلم يجد شيئًا اللهم إلا علبة مربى قديمة وبعض بقايا خبز متيبس ظل يأكل منه كلما قرصه الجوع.

كان يدرك بما تبقى لديه من عقل أنه قد صار أشبه بمدمني المخدرات الذين تتعلق آمالهم بوصول الجرعة، لكنه كان مطمئنًا إلى أن استرداد الفلوس التي خسرها هي الوسيلة الوحيدة التي ترد له اعتباره أمام نفسه المهزومة.

في اليوم الثالث خرج من المنزل في المساء وجيبه عامر بمبلغ عشرة آلاف دولار هي قيمة التحويل الذي وصل بالسلامة، وافتتح الليلة بالعشاء في مطعم "لاسيرين" للمأكولات البحرية وهو مطعم لبناني له أكثر من فرع في مونتريال، وتناول وجبة فاخرة من الإستاكوزا عوضته عن الجوع الذي قاساه، ثم أخذ سيارة أجرة كان سائقها اللبناني يضع بالكاسيت شريطًا لفيروز وانطلق يدندن مع السائق "سهار بعد سهار" والسيارة تسير حذرة وسط الثلوج التي سدت معظم الطرق بعد العاصفة الثلجية الأخيرة.

في الكازينو لم يشأ أن يندفع إلى اللعب من أول لحظة، لكنه آثر أن يرخي أعصابه ويهدأ، فقصد البار وتناول كوبًا من الجعة، ثم أخذ يطوف على الماكينات الجهنمية التي تعلق بها، على النقيض من موائد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الروليت التي لم تستهوه. ثم بدأ يتحسس نبض الماكينات ويختبرها ببعض العملات الصغيرة، وتمنى عليها أن تترفق به الليلة. بدأ يكسب في هدوء واعتمد أسلوبًا جديدًا في اللعب هو أن يترك الماكينة التي تعطيه مرة وينصرف إلى غيرها. استمر هكذا حتى حقق بضع مئات من الدولارات بعد ثلاث ساعات. بدأ الوقت يتأخر وأخذ صبره ينفد حيث كان يتمنى أن ينجز المهمة سريعًا ثم يعود. لم يجد مفرًا من اللعب العالي الذي يضاعف المكسب، مع ما يحمله من مخاطرة وإثارة كاد معها قلبه يتوقف عدة مرات.

أشرق عليه الصبح وهو غائب عن الدنيا ومندمج في اللعب، ثم حل الظهر وهو لا يزال متشبثًا بالأمل رغم خسائره الكبيرة، وقرب العصر كانت طاقته قد نفدت وتركيزه تلاشى ولم يبق معه سوى مبلغ بسيط!.

كان مهدودًا تمامًا بعد أن مضغ كل أنواع الانفعالات وأفرز كل الأدرينالين الممكن طوال 15 ساعة متصلة. قام بتجنيب ورقة بعشرين دولارًا في جيبه للتاكسي ثم قامر بما تبقى وخسره جميعًا. ثم قرر أن يمضي في سكة الجنون إلى منتهاها ولعب بالعشرين الأخيرة فخسرها أيضًا.

خرج إلى الشارع يجر قدميه وأخذ يضحك ثم يبكي ويغني ويرقص ويهذي ويجلس على الأرض ثم ينهض، ورقاقات الثلج تنزل عليه وتتكسر مبللة رأسه ومعطفه، ومضى يقطع الطريق على الجسر الطويل الذي يصله بالمدينة، وقدّر أن المسافة التي تفصله عن بيته يمكن قطعها في

ثلاث ساعات. لم يكن يشعر بأي شيء، ثم عجزت قدماه عن حمله وسقط في حفرة ثلجية، وبعد دقائق كان الثلج المتساقط يغطيه، وبدا له أن النهاية تقترب حيث عجز عن مجرد الصراخ وطلب النجدة، ثم أحس بالخدر يسري في جسمه واستسلم للموت القادم.

مر شريط ذكرياته مع ابنته أمام عينيه، وأشفق عليها من سماع خبر موته، ثم تذكر فجأة أنه يحمل تليفونًا محمولاً فأخرجه من معطفه وطلب 911 ونجح في أن يصف لهم مكانه ثم غاب عن الوعي.

فتح عينيه ورجال الإسعاف يحملونه على محفتهم ويضعونه بالسيارة، وسمع السارينة تدوي والعربة تتحرك وسط الجليد، وشاهد الحراب المدببة للكازينو تطعن الفضاء، ولاحت منه شبه ابتسامة وهو يسمع نفسه يتعهد لو كتبت له النجاة أن يعود ويأخذ بثأره.. ثم استسلم للغيبوبة!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن سنيّة أبانوز

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هبطت الطائرة في نيويورك بعد رحلة طويلة بدأت في القاهرة ثم توقفت في باريس، وبسبب طابور الجوازات الممتد فقد تأخر خروجه، وفاته اللحاق برحلته المتجهة إلى شيكاغو.

ولما كانت الرحلة التالية في الصباح، فقد سارع بركوب تاكسي نيويوركي أصفر حمله إلى فندق "أومني" بالشارع السابع في مانهاتن ليبيت ليلته.

في العاشرة صباحًا دفع حساب الفندق وخرج إلى الشارع يحمل حقيبته الضخمة التي وضع بها ثيابًا تكفي أيام الرحلة العشرة. وقف في طابور التاكسي حيث يركب كل واحد في دوره من أمام الفندق. تقدم منه شخص آسيوي الملامح وبادره بحديث عصبي بلغة غير مفهومة. سأله بأدب أن يتحدث بالإنجليزية حتى يفهمه، فما كان من الرجل إلا أن أطلق قاموس الشتائم الأمريكية كله في وجهه ثم مضى سريعًا واختفى!.

قبل أن يستوعب ما حدث لاحت منه التفاتة نحو حقيبته التي وضعها على الأرض ملتصقة بقدمه فلم يجدها. استدار عدة مرات يبحث في كل اتجاه.. ثم انطلق يبحث عن الرجل الذي شاغله للحظات ريثما ينشل آخر الحقيبة.

أسرع إلى داخل الفندق وأبلغ الأمن وهو يلهث طالبًا منهم ملاحقة

اللص داخل الفندق قبل أن يذوب. قابلوا لوعته ببرود وطلبوا منه الجلوس لعمل تقرير.

قال لهم: دعوا التقرير الآن.. إن السارق لم يبتعد، فإذا أبديتم شيئًا من الحماس سنجده والحقيبة في يده. سأله مسؤول الأمن: هل ضاعت حقيبتك داخل الفندق أم خارجه بالشارع؟ قال: على الرصيف خارج الفندق. قال الموظف: إذن لا شأن لنا بالأمر، ثم أشاح بوجهه وتركه يمضغ حسرته وانصرف.

جلس يفكر في هذه الورطة والغيظ يكاد يفتك به لأنه يعلم عن لصوص الحقائب قصصًا كثيرة، ولم يتصور أن يكون في يوم من الأيام ضمن ضحاياهم.

كان الوقت يمر وموعد طائرته يقترب فلم يملك ترف الذهاب للبوليس والخوض في الإجراءات العقيمة، فانطلق إلى المطار ولحق بالطائرة التي حطت به في مطار "أوهير" بشيكاغو. في الفندق الواقع بضاحية "أوك بروك" قص عليهم ما حدث وسألهم العون في إرشاده إلى محل يبتاع منه بعض الملابس والأشياء الضرورية. كان الوقت ليلاً والمحلات مغلقة فاضطر إلى الشراء من الفندق بأسعار وحشية.

مضت أيامه في شيكاغو رتيبة وحضر الاجتماعات التي قدم لأجل حضورها، ثم توجه إلى المطار ليستقل طائرة تعود به إلى نيويورك مرة أخرى حيث تبدأ فسحته التي خطط لها سلفًا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان يحب التسوق في محلات بيع الأفلام في مانهاتن، و وجد الفرصة سانحة ليحضر عرضًا مسرحيًا في أحد مسارح برودواي بطولة النجمة "سيجورني ويفر" .

جلس مع الركاب في بوابة السفر ومعه حقيبته الجديدة وقد ربط مقبضها برسغه حتى لا يسهو عنها .

لاحظ أحد الأشخاص من ذوي الشكل اللاتيني ينظر حواليه وفي يده شنطة سامسونايت ثم استقر نظر الرجل عليه فابتسم له ثم ترك مكانه وقدم للجلوس إلى جانبه . واصل ابتسامه وهو يميل على أذنه هامسًا : معي أشياء للبيع . . هل تريد أن ترى لعل شيئًا يعجبك، ولعلمك أسعاري أقل من سعر السوق بكثير . شكر الرجل واعتذر له بلباقة ثم ابتعد وأخذ مكانًا في آخر الصالة .

جلس بعيدًا لكنه تابع اقتراب رجلين من أخينا صاحب الشنطة السمسونايت ورأى أحدهما يميل ويهمس في أذنه بكلام غير مسموع، لكن ما كان مسموعًا بوضوح هو انتفاضته في وجه الرجلين واستنجاده بالركاب بكل قوة : يا بشر، يا قوم، يا ناس . . هل من بينكم محام؟ هل من بينكم مواطن أمريكي صالح يشرح لرجلي البوليس هذين أنه لا يحق لهما تفتيش حقيبتي بدون إذن قضائي . ثم أضاف : لقد عبرَتْ الحقيبة من جهاز الأشعة ورأها المسؤولون عن السفر، فماذا تريدون أكثر من هذا؟ ألسنا في أمريكا العظيمة وطن الأحرار أم أننا في إحدي بلاد العالم الثالث حيث يهمسون في أذن الناس بما يرعبهم كما حدث معي حالاً؟ .

أثّرت كلماته في الناس وسرعان ما تكون رأي عام مناصر له وبدأ نفر منهم يصيحون في وجه رجلي الشرطة محذرين من انتهاك حقوق الرجل الدستورية وملوّحين باستعدادهم للشهادة لصالحه .

انصرف الرجلان منكسي الرأس وتركوه يصعد إلى الطائرة ويمضي في رحلته (كان هذا طبعًا قبل **11** سبتمبر **2001**) .

في الطائرة جاءت جلسة اللاتيني بجوار صاحبنا ولم يتردد هذا في سؤاله عن سر الشنطة التي ارتاب فيها البوليس وأراد أن يفتحها، فضحك بشدة وقام بكل أريحية بفتحها وقال : انظر . . ليس بها سوى ذهب مسروق وساعات مسروقة ! ! .

كان معتاداً عند زياراته لنيويورك أن يتصل بصديقه القديم وزميل دراسته الثانوية مدحت فيلتقيه ويسهر معه وتكون بينهما جلسة ذكريات يستعيدان فيها أيام زمان .

كان مدحت قد قدم إلى نيويورك قبل عشر سنوات بعد أن ودع الوظيفة الميري فور ظهور اسمه في كشف الهجرة العشوائي الذي تستقبل بموجبه الولايات المتحدة خمسة وخمسين ألفًا من المهاجرين كل عام من كل أنحاء العالم . تزوج مدحت وقام بتكوين عائلة بعد أن استقرت أحواله وصار له بيزنس وتجارة وانتعشت أحواله .

حضر مدحت لزيارته بالفندق في المساء ولم يكن وحده، كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بصحبته شخص آخر ضخم الجثة كبير الرأس ذو هيئة لا تبعث على الارتياح قدمه له قائلاً: صديقي متولي.

لم يشعر بالسعادة لفكرة أن يقضي السهرة بصحبة هذا الكائن الغريب الذي فرضه عليه مدحت ومال لفكرة أن يعتذر ويذهب إلى المسرح. همس بهذا لصديقه صراحة لكن مدحت وعده بقضاء سهرة حلوة وأصر على دعوته على العشاء وقلل من هواجسه بشأن متولي!.

رضخ لإصرار مدحت وانطلق الثلاثة في سيارة شديدة الفخامة عرف أنها تخص متولي وذهبوا إلى محل عربي في مانهاتن اسمه "كليوباترا" ومن الواضح أن مدحت وصديقه الضخم يعرفانه جيداً، وهو عبارة عن نايت كلوب تقدم فيه الأغاني والأكلات المصرية.

لاحظ أن مدحت قد تغير كثيراً عن الطالب الهادئ الذي كانه أيام ثانوي، كما لاحظ أن متولي صديقه كان شديد العصبية سريع الانفعال يخرج الكلام من فمه مثل الحجارة المدببة وقد احتد على الجرسون بدون سبب يذكر ووجّه له سباباً مقذعاً!. ورصد أن مزاحهما معاً (مدحت ومتولي) كان غليظاً وبذيئاً للغاية.

قال مدحت لصاحبنا: لقد أسعدك الزمان بالجلوس إلى شخصية عظيمة هي متولي الرهيب عين أعيان بروكلين. فرد ضاحكاً في تلقائية: هل هو قريب إيفان الرهيب؟. هنا سدد له متولي نظرة نارية وهو يبتلع كأسه في غضب.

قال مدحت: لا تخش منه، هو صحيح يشبه الضبع الضاري لكنه أليف! واستطرد متحدثاً عن متولي: إنه شريكي في السوبر ماركت وهو يملك صفات كثيرة طيبة لكن به عيباً واحداً. لمعت عينا متولي وزمجر محذراً، لكن مدحت لم يهتم وأكمل: عيبه الوحيد أن أمه اسمها "سنية أبانوز" قالها مدحت وانفجر في الضحك وكاد صاحبنا يحذو حذوه ويضحك ثم تذكر غباوة متولي فأمسك وتصنّع الوقار!.

مضى مدحت وقد أسكرته كؤوس الشراب التي عبّ منها الكثير: هل تعرف أن هذا المتولي قد حضر إلى أمريكا بباسبور مزور مثله مثل الكثيرين هنا بعد أن ارتكب جريمة قتل بمصر؟ وهل تعلم أن البوليس يبحث عنه لتنفيذ حكم بالإعدام صدر ضده؟.

قال متولي حانقاً: ناقص واحد في أمريكا يا ابن الجزمة لم تحك له قصتي موجود في هونولولو.. اذهب يا ابن المرة الـ.. وقلَ له الحكاية، ثم أردف موجهاً حديثه لصاحبنا: كل يوم يحكي هذه الحدوتة الماسخة للناس هنا بعد أن يسكر وهو يتصور أن هذا الأمر يضايقني. قال صاحبنا: وهل الكلام في هذا الأمر لا يضايقك؟ قال: يضايقني فقط لأن ابن الجزمة صاحبك يقصد أن يضايقني، لكن جريمة القتل ذاتها مصدر فخر لي. قال هذا ثم أفرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة وقال متسائلاً: هل يخجل الإنسان من قتل شخص أهان أمه؟ لو أن نذلاً حقيراً تناول سيرة الست والدتك بالباطل.. هل كنت تسكت له وتتركه ينعم بالحياة؟ ومضى متولي: رد يا بني آدم هل كنت تتركه يعيش؟ قبل أن يستمع إلى الإجابة استطرد قائلاً: إن هذا الجبان قد خاض في سيرتها من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

باب الفكاهة والضحك مع أصحابه الشاميين، فهل سيرة النساء مما يصح الهزار فيه لإضحاك الغجر والأوباش. كان صاحبنا ينصت ومتولي يجز على أسنانه وهو يحكي بصوت مرتفع: هذا الوسخ الذي أحدثك عنه قام بالسخرية من الحاجة وأطلق عليها اسمًا مضحكًا جعله ينتشر في الحارة كلها حتى إن النسوة الساقطات أخذن يرددنه ويتغنين به.

هنا قاطعه مدحت وهو يضحك في مجون: ماذا أطلق عليها يا متولي.. قل ولا تخجل.. إن هذا صديقي منذ الطفولة ولن يحكي لأحد.

نظر إليه متولي في استهانة وهو يلقي بكأس الويسكي في جوفه وقال: قل له أنت يا فكيك. فقال مدحت: نسيت أن أقول لك إن عائلة متولي كلها بمن فيهم الست والدته هم تجار مخدرات أبًا عن جد. قال متولي وقد صارت عيناه في لون الدم: نعم ولي الشرف أننا نتاجر في المخدرات.. لك شوق في حاجة؟.

رد مدحت: أريدك أن تقول له ماذا كانوا يسمون الست الحاجة؟.

قال متولي: أقول له يا عين أمك.. هل تظنني أخاف أو أخجل.. لقد أطلق عليها اسم سنية أبانوز وصار الكلاب في الحارة يقولون لي يا ابن سنية أبانوز.. هل هذا يسعدك؟. لم يرد فأكمل متولي: وأنا حتى الآن لا أفهم معناها، لكني فهمت أنه يريد الإساءة إلى أمي وجعلها مضحكة وسط الجيران، ولقد حاولت التفاهم معه بالحسنى

فاستخف بي وظنني أخشاه فكان لا بد أن أتعامل معه بلغة يفهمها فذبحته، فهل أكون مخطئًا في رأيك؟ قال جملته الأخيرة وصمت منتظرًا تعليقه. فرد هذا في تردد: ألم تكن هناك وسيلة أخرى للتعامل معه غير إنهاء حياته؟. فازدادت عيناه احمرارًا وقال في غضب: يا بني آدم لو واد صايع استلمك في ذهابك وجيئتك فسخر من أمك أمام كل السفلة وقال لك سلم لي على أمك الست سنية أبانوز فماذا كنت تفعل؟ ضع نفسك مكاني.

فقال صاحبنا وهو يحاول إرضاء الكائن البدائي القابع داخل متولي وعدم إثارة غضبه: بصراحة إذا المسألة وصلت لدرجة الأبانوز فأعتقد أن الدم لا بد أن يسيل!.

غرق مدحت في الضحك بينما انفتحت أسارير متولي وقال: كنت أعلم أنك رجل محترم، لقد دخلت قلبي من أول لحظة ولهذا سأشتري لك صندلاً من عند باتا، وأنا في الحقيقة لا أفهم كيف تصاحب هذا الحيوان وأشار إلى مدحت، ثم غرق الاثنان في الضحك وهما يحتضنان بعضهما بينما المطرب الشعبي في الصالة يصدح بالغناء في موال بنت السلطان لعدوية.

سرح صاحبنا في هذا الثنائي العجيب وأحس بالندم على إضاعة الليلة معهما وعزم على أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يتصل فيها بمدحت عند قدومه إلى نيويورك لأن مدحت القديم لم يعد له وجود.. الموجود الآن هو هذا الحيوان الذي يحتضن متولي!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طلب متولي الميكروفون ليشارك في الغناء فلما تأخر عليه المطرب قال له متوعداً: يعني عايزني أقوم لك؟ فخشي المطرب المسكين الذي يعرف متولي بلا شك وأسرع بتقديم الميكروفون إليه فأخذ ينشد وقسمات وجهه تشي بالانتشاء والسعادة: على كوبري عباس.. عباس ابن فرناس.. ماشية تبص عليك الناس.. يا فروتة وأناناس، ومدحت يرد عليه في سلطنة.

في ذلك الوقت دخلت مجموعة من الشباب الأمريكان الشقر من الباب.. صبيان وبنات في سن الجامعة. ويبدو أن يد متولي قد طالت إحدي الفتيات دون قصد وهو مندمج في الغناء فأسرع بالاعتذار وهو يدس عينيه في صدرها قائلاً: أنا آسف يا حلوة. نظرت إليه الفتاة في ازدراء وأشاحت بوجهها بعيداً عنه ومضت داخل المحل، فقام متولي من مكانه وقد تعكر مزاجه وترك الميكروفون متوجهًا إلى مجموعة الشباب وقال لهم بصوت جهوري: شاهدين.. لقد اعتذرت لها أمامكم رغم أنني لم أتعمد لمسها لكنها نظرت لي باحتقار فما رأيكم.. هل يرضيكم هذا؟ قولوا وأنا راض بحكمكم. بدا على الشباب الارتباك وقالت الفتاة لأصحابها: لا تردوا على هذا السافل ولا تعيروه اهتمامًا. فاستشاط متولي غضبًا ورد عليها بتشكيلة شتائم قادمة من قاع بروكلين، فما كان منها إلا أن بصقت في وجهه!.

ران على المكان صمت رهيب وبدا كأنني أتفرج على مشهد سينمائي

تم تثبيته، وداخلني شعور بالخوف وأدركت أن حدثًا جللاً سيقع بعد أن قامت الفتاة باستفزاز التمساح القابع داخل متولي.

تحرك مدحت بسرعة فأمسك صاحبه بقوة وطوقه بكلتا ذراعيه بغية منعه من ارتكاب جريمة، فتملص منه واندفع مسرعًا إلى الحائط وأخذ يضربه بقوة ويسدد إليه اللكمات حتى اخترقت قبضته الجدار الخشبي وخرجت غارقة في الدم وهو يصرخ: العاهرة بصقت في وجهي.. العاهرة بصقت في وجهي.

عندما لمح الشباب منظر متولي تكوروا على أنفسهم في فزع ثم نهضوا قاصدين الباب في الوقت الذي اندفع فيه متولي نحوهم فاردًا ذراعيه وأخذهم جميعًا في أحضانه وذهب بهم إلى الباب الزجاجي محطمًا إياه بأجسادهم ورؤوسهم وأوقعهم فوق بعض على الرصيف الخارجي، والزجاج الذي حطموه يتساقط عليهم ويعمل فيهم تجريحًا وتقطيعًا بينما صرخاتهم تملأ الشارع.

أسرع مدحت إلى صاحبه فرفعه من على الأرض التي امتلأت بالدماء وأدخله إلى المحل، وسرعان ما قام بالاشتراك مع عمال المحل بتهريبه من الباب الخلفي في اللحظة التي دخل فيها البوليس وأخذ يفتش عنه ويستجوب الموجودين، بينما سارينة الإسعاف تزعق في الخارج.

قامت سيارات الإسعاف برفع الأولاد والبنات الذين تمددوا على الأرض والدم ينزف منهم بعد الغارة العنيفة التي شنها عليهم متولي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما كاد البوليس ينصرف بعد أن فشل في العثور على الجاني حتى خرج صاحبنا مسرعًا مغادرًا المكان وهو يرتجف من منظر الدماء التي شاهدها. مشى دون أن يودع مدحت أو يسأل عن متولي ومضي نحو الفندق وهو لا يصدق ما شاهده للتو.

كان الندم يعتصره على تركه مسرحية سيجورني ويفر وذهابه لهذه السهرة الدموية وأخذ يلعن مدحت ويلعن الساعة التي فكر فيها أن يخطره بوجوده في نيويورك.

سار في شوارع مانهاتن المتقاطعة قاصدًا الفندق، وكانت الشوارع هادئة وتكاد تخلو من المارة في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

قبل الفندق بخطوات اعترضه أحد الأمريكان السود وكان فارع الطول وبوجهه ندبة من أثر جرح قديم وتوجه إليه قائلاً: هيه أنت.. أريد بعض الفكة. قال لنفسه: حلو.. لقد اكتملت الليلة. أخرج من جيبه وهو في حالة اضطراب ورقات من المال وبعض العملات المعدنية وقدم للرجل العملات المعدنية، فتفرس هذا في صاحبنا ونظر إلى الفلوس في يده ثم قال: لا يا حبيبي.. أريد من هذا، وأشار إلى الفلوس الورق. فكر أن يجري ويهرب من المكان لكنه لم يجد الحيز الذي يسمح بذلك وخشي أن يثير غضبه فيتحول الأمر إلى حالة عنف لم يخطط لها الشحاذ نفسه. فقدم له ورقة بخمسة دولارات فلم يكتف بها وقال: وهذه أيضًا، فأعطاه الأخرى وكانت بعشرين دولارًا. وهنا قال: هات الفكة.

فمنحه النقود المعدنية وهو يتذكر الفنان عبد الفتاح القصري في موقف مماثل عندما طلب منه الرجل دبابات وصواريخ وفي النهاية طلب كتاكيت.!

لكنه لم يستطع أن يكمل المشهد على طريقة القصري الذي نكش شعره ودخل على الرجل بعينين محولّتين فأدخل الرعب في قلبه ونجح في استرداد طائراته ودباباته و.. كتاكيته.

في الفندق أغلق على نفسه باب الغرفة بالمزلاج وهو يسترجع أحداث الرحلة التي بدأت بسرقة الحقيبة على يد آسيوي وانتهت بتقليبه في الشارع بواسطة أفريقي وتخللها لقائه بلص الساعات اللاتيني، أما "الماستر سين" في العرض كله فكان سهرته القانية مع متولي القاتل الدموي الرهيب.

وأدرك أن هذا البلد على روعته وعظمته ربما يكون المأوى الطبيعي لكل المجرمين من أبناء.. سنية أبانوز!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرحلة 990..على ضفاف المأساة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الساحل الشرقي للولايات المتحدة حيث سقطت الطائرة المصرية واستقرت في قاع المحيط، كانت المأساة كاملة. واستمرت توابعها تترى على الساحل نفسه في متوالية حزينة بعد وصول أُسر الضحايا إلى ولاية "رود أيلاند" حيث أقرب بقعة من مكان السقوط.

رغم كل شيء، فالمكان بديع، فندق "دوبل تري" مستقر العشاق ومأوى الحالمين بالحب والسكينة، تحوطه المياه من كل جانب، كما تضفي مزارع الورد على المكان سحراً وعبقًا.

الاسم الرسمي للجزيرة هو "جزيرة الماعز"، أما سكان مدينة نيو بورت التي يفصلها عن جزيرتنا جسر يعلو المحيط، فيسمونها جزيرة الفردوس.

كان الفندق قد تم إخلاؤه تمامًا من النزلاء بتعليمات قاطعة من البيت الأبيض، وتم تسكين أسر الضحايا بمساعدة مندوبي شركة الطيران ومؤسسة مساعدة أسر الضحايا. عقد أول مؤتمر يضم الثكالى والأرامل واليتامي الذين فقدوا ذويهم مع رئيس المجلس الأمريكي لسلامة النقل الجوي في وجود مندوبين عن البحرية الأمريكية.

القاعة ضخمة جدًا، ومن الواضح أنها أعدت على عجل لاستقبال هذا العدد الكبير من أهالي الضحايا سواء الذين وفدوا من أنحاء الولايات المتحدة، أو الذين حملتهم الطائرة من القاهرة. سماعات

الترجمة الفورية متاحة للجميع، الصليب الأحمر موجود لتقديم المساعدة، وكذا العديد من الجمعيات الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية.

بعض التنافس الخفي لتأكيد الحضور يمكن ملاحظته، الشيوخ والقساوسة يحاولون تهدئة النفوس الملتاعة، المحامون الباحثون عن أفضل استثمار للكارثة يسعون لجمع التوكيلات، صرخة هنا ونحيب هناك، ونشيج مكتوم في كل مكان، حالة إغماء يهرع إليها رجال الإسعاف، صوت جريء يسأل عن موعد العشاء! . . . المشهد مأساوي بكل معنى الكلمة.

لافتة "ممنوع التدخين" واضحة للجميع شأن أي مكان عام بأمريكا، لكن من ذا الذي يجرؤ على تطبيق القانون بالقاعة الآن؟ كل ما فعلوه أنهم فصلوا أجهزة الإنذار بالحريق ونشروا طفايات السجائر بكل مكان لينقذوا الأرضية من الدمار.

ألمحه وسط الجمع يجلس متململاً على كرسيه، يقف ثم يجلس، ينهض ويسير خطوتين ثم يعاود الجلوس، يرفع رأسه لأعلى فأرى الزيغ في نظراته، أقترب منه حتى أواجهه، عيناه مجهدتان من طول البكاء، أسأله: هل أستطيع أن أساعدك؟ فيجيب: بل تستطع أن تتركني وشأني. قلت: هذا أسهل ما يمكنني القيام به ولكني أود مساعدتك. نظر إليّ بعينيه المكدودتين في شك، ثم طلب مني أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجلس بجانبه وأن أساعده إذا أمكن في الحصول على ملابس لأن جلبابه قد اتسخ، وأخبرني أنه وصل إلى مطار القاهرة من بلدته بعد أن علم بالكارثة غير مصدق أن أخاه الوحيد قد مات. ثم حدث كل شيء بسرعة، تم تصويره واستخراج جواز سفر وتذكرة وتأشيرة، ثم وجد نفسه داخل الطائرة مع حشد من أهالي الضحايا. لأول مرة يركب طائرة في حياته، نام على مقعده حتى أيقظوه وأخبروه أنه وصل أمريكا.

انقطع الحوار بيننا عند بدء المؤتمر وران على القاعة صمت عميق، ثم بدأ السيد "جيم هول" بتقديم العزاء للحاضرين ثم شرع يشرح تفاصيل ما سجله الرادار، ويشرح الإجراءات المعتادة في مثل هذه الحوادث، ومن بعد اعتلى مندوب البحرية الأمريكية المنصة وأمسك بالميكروفون وأخذ يعدد الصعوبات التي تعترض وصول سفينة البحث عن الحطام بسبب الأحوال الجوية الصعبة. ثم بدأت الأسئلة تنهال على المنصة من كل جانب عن فرصة وجود ناجين وانتشال الجثث وشهادات الوفاة وتحديد المسؤولية وصرف التعويضات.

وسط هذا كله وجدت الرجل إلى جانبي يقوم من مقعده ويتجه نحو الميكروفون ثم يوجه سؤاله: لماذا نحن هنا يا جماعة.. هلا أخبرتموني عن سبب وجودي هنا بينكم؟ كانت الترجمة الفورية تتابعه، ومن ثم جاءه الرد الآلي من المنصة يحمل التعزية والتعاطف والرغبة في

تقديم المساعدة.. فقال: نعم، نعم أنا أشكركم على كل هذا لكني بعد لم أفهم لماذا أتيتم بي إلى هنا وماذا على أن أفعل، أو ما هو المطلوب مني بالضبط؟. إذا كان أخي قد مات فامنحوني جثمانه وشهادة الوفاة حتى أدفنه في "البلد"... أنتم تقولون إن الجثث يصعب استخراجها الآن، وشهادات الوفاة مرتبطة بوجود الجثمان، وصرف التعويض مرتبط بالاثنين، فلماذا أحضرتموني إلى هنا وقد كان يمكنني أن أتفرج عليكم في التليفزيون، ثم تهدج صوته وغلبه البكاء، فقام إليه بعض الرجال يهدؤونه ويعيدونه إلى كرسيه، ويبدو أن بكاءه قد نكأ المشاعر الملتهبة فانتشرت العدوى ولمعت العيون بالدموع.. وهنا اندفع رجل أمريكي في منتصف العمر فقد أمه في الحادث كما عرفنا وأمسك بالميكروفون وبيده الأخرى بطحة خمر أخذ يعب منها وتساءل في استنكار غاضب: هل تريدون أن تقنعوني أن الولايات المتحدة بكل معداتها البحرية وإمكاناتها التكنولوجية الهائلة تعجز عن انتشال الطائرة الغارقة وجثث الضحايا لمجرد أن أمواج البحر مرتفعة؟! إني أشم رائحة غير طيبة وأشعر أن لديكم ما تودون إخفاءه.

ومرة أخرى يأتي رد المنصة رسميًا، حكوميًا معلبًا، به من المواد الحافظة ما يجعلك تعافه وتعجز عن ابتلاعه كما وصفه الرجل ثم واصل: أنا لا أصدقكم ولا أثق بكم ولن أستمع إليكم بعد الآن، أنا ذاهب ومعي صديقي هذا ـ و أشار إلى صاحبنا ـ إلى مكان ليس به

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طبيخ فاسد! وأخذ ذراع الرجل الذي قام إليه في سكينة وخرجا من القاعة.

بعد انتهاء المؤتمر الصحفي لمحت الرجل الأمريكي يجلس مع الفلاح المصري داخل البار يتبادلان حديثًا ضاحكًا، فلم أستطع أن أداري دهشتي. اقتربت منهما وسألت المصري: هل تعرف اللغة الإنجليزية؟ فأجابني: ولا حرف واحد، سألت الآخر: هل تعرف العربية؟ فكف عن الضحك وقال بجدية: ما لا تستطيع أن تفهمه تستطيع أن تحسه، ثم رفع كأسه لرفيقه وتبادلا الأنخاب، فتركتهما وانصرفت.

في الصباح التقيت صاحبنا المصري على الإفطار يجلس وحيداً، فجلست أفطر معه وسألته عن أحواله فأجابني: نمت نومًا عميقًا، ولم يبدأ الكابوس إلا حين استيقظت! . شعرت أنه قد أنس إليّ فمضينا في جولة داخل ردهات الفندق حتى وصلنا للباب الخارجي، فأبصرت مندوبي شبكات التليفزيون يقفون وكاميراتهم مصوبة في وجه كل من يطل برأسه خارج الباب، ذلك أن دخولهم إلى الفندق كان ممنوعًا.

توجه إلينا أحدهم محييًا وطلب منا أن ندلي بحديث، فاعتذرت له في أدب وهممت أن أمضي إلا أن صاحبنا أمسك ذراعي بقوة وأوقفني قائلاً: أنت لا تريد أن تتحدث إليه وهذا شأنك ولكني أريد أن أكلمه. سألته وقد أخذتني الدهشة: ماذا تريد أن تقول له؟ وكيف تراك ستحدثه؟ بالإشارة؟ أم تظنه مثل صديقك الفيلسوف المخمور سيحس

بك دون أن تنطق؟ فانفعل بشدة مؤكداً أنه قادر على أن يقدم نفسه للمشاهدين بشكل طيب ويشرح لهم قضيته! طلبت منه أن يشرح لي قضيته هذه أولاً فأجابني بجرأة: وما شأنك أنت يا متطفل. . مطلوب منك فقط أن تقوم بالترجمة. وهنا انتبهت إلى أن عشرات الكاميرات تسجل ما يحدث بيننا، وقد التقطت حاستهم الصحفية أن هناك من يريد أن يتحدث وشعروا من لهفته أن لديه معلومات مهمة، فمد أحدهم ميكروفونه وسأله عن اسمه، فأجاب: محمد. من أين أنت يا محمد؟. نقلت له السؤال فأجاب: من ميت أبو الليل، ثم استطرد موجهًا سؤاله للصحفي: وأنت. . ما اسمك؟.

نظر إلى الصحفي متسائلاً، فقلت له: يسألك عن اسمك. أجاب: اسمي توماس أندرسون.

وهنا بادره محمد بسؤال آخر: من أين أنت يا توماس؟. . و هنا لم أتمالك نفسي من الضحك وسألته: يا عم محمد. . هل أنت الذي يوجه الأسئلة؟. فرد بنفاد صبر: دعني يا فيلسوف زمانك أتعرف إليه على طريقتي وكُف عن تمثيل دور الحكيم.

شعرت ببعض الضيق لكني تذرعت بالصبر وقلت له: حاضر يا سيدي ثم للصحفي: إنه يسألك يا مستر توماس من أي بلد أنت؟. فابتسم قائلاً: أنا من "مينيسوتا".

وبشحنة من الود الصادق رد محمد عليه قائلاً: "أجدع ناس".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كدت أقع على الأرض من شدة الضحك، لكنه قال لي: لا تضحك وترجم يا باشا.

قلت له وأنا غير مصدق: ماذا أترجم؟ أنا ماشي يا عم محمد وأكمل أنت حوارك معه بمعرفتك.

ولدهشتي وجدته يتعلق بذراعي وكأنني صرت كل أمله في الحياة، وفي ضراعة استحلفني: لو كنت تحب النبي لا تتركني يا شيخ.. لقد سألتني بالأمس إذا كنت أحتاج إلى مساعدة، فهل كان عرضك مجرد كلام.. بالله عليك لا تخيب رجائي وقل له كلامي كما هو.

اجتاحتني حزمة من المشاعر المتناقضة ما بين إشفاقي على الرجل من أن يصير أضحوكة وبين رغبتي في مساعدته.. ثم قررت فجأة أنه ليس من حقي أن أقرر للناس ما ينفعهم وعزمت على أن أساعده فيما يريد وليكن ما يكون.

قلت للصحفي الذي كان ينتظر نهاية الجدال بيني وبينه في فضول كبير: يا مستر أندرسون.. هذا الرجل يخبرك أنك إنسان صالح وأن أهل ولايتك أناس طيبون!.

تجاوز الرجل دهشته بسرعة وسأل: ماذا لديك يا مستر محمد؟.

وهنا جلس محمد على الأرض مربعًا استعدادًا للحكي بعد أن أمسك بالميكروفون من يد توماس ثم شدني لأجلس إلى جانبه، لكني أفلت يدي منه وبدأ يتكلم: أنا الأخ الأكبر لأربع فتيات ورجل واحد

ابتلعه هذا البحر الذي أمامك، وابتلع معه أحلام الأسرة كلها.. كان قرة عين والديه وفخر البلدة وزين شبابها، كان متفوقًا منذ الطفولة فلم يكلف أهله مليمًا في التعليم حتى أصبح مهندسًا وعمل بشركة البترول، على عكسي أنا الخائب الذي لم أفلح في التعليم ولا في أي عمل.

حاولت أن أوقفه لأقوم بعملي في الترجمة فنظر لي معاتبًا وكأنني ارتكبت خطأ وأكمل: كان أخي الباشمهندس يتولى الإنفاق علينا جميعًا.. زوجته وأبنائه وأمه، حتى شقيقاته المتزوجات كانوا كلهم يعتمدون عليه.. وأنا الرجل الطويل العريض كنت أنتظر معونته الشهرية وكان هو الذي يعولني. ثم تحول محمد نحوي وأعاد التأكيد: أي والله يا أستاذ هو الذي كان ينفق عليّ. هممت بأن أقول شيئًا لكنه سبقني ونهض من جلسته فاقترب من الصحفي الأمريكي وسأله بصوت مرتفع: قل لي بالله عليك يا مؤمن.. ماذا أفعل الآن؟ إن أولاده سيقبضون مبلغ التأمين وهذا حق ربنا بلا جدال.. ولكن ماذا عني أنا؟.

أشرت إليه بأن يسكت قليلاً لأنني لم أعد قادرًا على المتابعة لكنه لدهشتي الشديدة لم يعرني التفاتًا واستمر في مونولوجه الطويل وقد بدا عليه التأثر ولمعت عيناه بالدموع: لقد كنت بفضل علو شأنه أتجاسر على كل أهل البلدة، والآن سيدوسونني بسنابكهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قمت بالتربيت على كتفه في رفق عند نهاية جملته الأخيرة، لكنه كان لا يزال متوجهًا بكليته نحو الصحفي، ثم قام في مفاجأة كبيرة بنقل دفة الحديث في اتجاه آخر لم أتوقعه عندما قال: لكنكم بالطبع يا أمريكان أهل مروءة، وبالتأكيد لن تقبلوا لي الهوان ولن ترضوا أن أمشي في الشارع أمد يدي بالسؤال للناس. . كل ما أريده منكم أن تنقلوا رسالتي للرئيس كلينتون، أريد كشك سجاير أتعيش منه في بلدكم الطيب هذا، ولن أطلب منكم شيئًا بعد ذلك.

أنهى جملته هذه ثم لكزني في جنبي وقال لي: هيا. . ترجم.

نظرت إليه في حيرة وشعرت بارتباك من غرابة ما سمعت، لكنه وكأنما أحس أنني قد أتدخل بعمل مونتاج للحديث فاستبق الأمر وطلب مني أن أقسم بالله على عدم تغيير أي حرف مما قال.

تحريت الدقة قدر طاقتي في نقل كل ما قاله بما فيه موضوع كشك السجاير وأنهيت المهمة الصعبة بسلام.

قدم الصحفي لنا شكره وقام بالشد على يد محمد الذي لم يتردد في معانقته وكأنه صديق قديم! ولم ينس أن يسأله عن موعد إذاعة اللقاء، فأخبره أنه سيذاع بعد ساعة في القناة المحلية.

استدار إليّ وسألني: هل سيراني العالم كله في التليفزيون؟.

قلت له: في الغالب نعم.

قال: والرئيس كلينتون؟.

قلت له: هيا اصعد إلى غرفتك لتشاهد اللقاء على الشاشة، وربما يراك الرئيس كلينتون.

تركني وكل قسمات وجهه تنطق بالسعادة.

في الأيام التالية صار إنسانًا آخر. كنت أراه مزهوًا بنفسه يسير في ردهات الفندق متطاوسًا في خيلاء وكأنما أصبح من المشاهير. وكان يجلس معظم الوقت بالمطعم أو بالبار وحوله جمع من الأصدقاء مستمتعًا بالطعام والشراب والصحبة. وأحيانًا يطلب الطعام والشراب بالغرفة ويدعو الأصدقاء عنده. كما كان يخرج في المساء يتنزه بالبلدة ويتفرج على المحلات، ثم زادت مطالبه إلى حدود غير معقولة لدرجة أنه أصر على إحضار ملابس داخلية له ماركة "كالفين كلاين" متأسيًا بصديق له طلب الشيء نفسه!. وصار زبونًا معروفًا في مقاهي وبارات مدينة نيو بورت، وراق له بشدة التعاطف والمودة التي كان يلقاها من السكان الذين تعاملوا بحب مع الغرباء الذين ظهروا في البلدة وكان واضحًا أنهم بالضرورة من أهالي ضحايا الماساة التي وقعت على شاطئهم، وفي إطار هذا التعاطف فقد نال من أحضان وقبلات النساء ما جعل رأسه يدور وجعل إقناعه بالعودة إلى مصر أمرًا صعبًا!.

وأصبح وقوفه وسط الكاميرات يقص سيرته الذاتية شيئًا عاديًا وفي نهايتها لا ينسى أن يطلب الكشك من الرئيس الأمريكي.

ومن الواضح رغم إخلاصي في مساعدته أنه لم يكن راضيًا عن أدائي فاستغنى عن خدماتي ووجد مترجمًا آخر. لكنه حين كان يمر بي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يكن يتردد في إعطائي أوامره بصوت مرتفع قائلاً: إذا سأل عني توماس أو أحد من التليفزيون فأنا بالمطعم ولن أتأخر . . فاهم؟ ! .

ما زلت أسترجع تلك الأيام السوداء الثقيلة بصحبة أهالي الضحايا وكان لكل منهم حكاية تذيب الصخر، لكن هذا الرجل بالتحديد وقفت عنده طويلاً بالتأمل والتفكير ذلك لأنه حفر في داخلي أسئلة أليمة مثل: ألم يكن ممكنًا لهذا الرجل أن يسافر إلى أمريكا في ظروف أخرى طبيعية؟ وهل كان لا بد لثمن الرحلة أن يكون بهذه الفداحة فيفقد أخاه الوحيد وعزّه وسنده من أجل أن يحظى بهذه الإقامة الطيبة بفندق خمسة نجوم في أجمل مكان، ويرتدي الملابس الجديدة من كل الماركات ويتناول من الأطعمة ما لم يسمع عنه، ويخالط أناسًا من كل جنس ولون ويتمتع بإعطاء الأوامر التي لا ترد، ويظهر على شاشات التلفاز، ويمارس أحلامه وأوهامه في الشهرة الزائفة وهو الذي لم يغادر بلدته قط؟

وهل كان أخوه كريمًا في عطائه حتى النهاية، فاستقر بقاع المحيط بهذه المنطقة ليمنحه أسبوعًا مجانيًا في جزيرة الورد؟ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من ضحايا 11 سبتمبر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بجامعة "ميموريال نيوفاوندلاند" الكندية في أقصى الكرة الأرضية كان يقضي أيامه للدراسة من أجل الرسالة العلمية التي أتى لإنجازها.

كان يود أن يكمل دراسته بإحدى جامعات أوروبا، لكن هذه الجامعة فقط هي التي قبلت تخصصه ومنحته تخفيضًا جزئيًا في المصروفات، فانتقل من القاهرة إلى مدينة سانت جونز عاصمة مقاطعة نيوفاوندلاند الواقعة في الشمال الشرقي من كندا على المحيط الأطلنطي حيث الصقيع والبرد الشديد معظم شهور السنة.

لم يشأ أن يقيم بالمدينة الجامعية حتى لا تزداد عزلته وإحساسه بالوحدة واختار أن يسكن قرب الجامعة بالجزء التجاري من المدينة وذلك حتى يشعر بالونس في هذه العاصمة الهادئة قليلة السكان.

ولما لم يكن له أصدقاء فإنه كان يقصد البارات في المساء ليتحدث مع البشر حتى منتصف الليل ثم يعود إلى غرفته منهكًا فينام. وكثيراً ما

كان يصطحب معه إحدى النساء الوحيدات اللاتي يخرجن في المساء مثله على أمل لقاء رجل يجدن لديه الدفء والأمان.

غريبة هي الوحدة الضاربة أطنابها في نفوس الجميع هنا، والأغرب أن الكل تواق إلى التلاقي والتعارف، لكن لا أحد يبادر بأخذ الخطوة الأولى خشية أن يتعرض إلى جرح مشاعره!.

لهذا فقد نشأت سلسلة من المحال التي تقدم المشروبات عرفت باسم "ليلة الخميس" كان الغرض منها أن يذهب الرجال الوحيدون والنساء الوحيدات من أجل التلاقي والتعارف.

إدراكه لتلهف الناس هنا على الحب والتواصل منحه جرأة في التعرف إلى النساء وهو مطمئن أن واحدة لن تكسر خاطره حتى لو لم تكن راغبة في علاقة.

عرف نساء كثيرات وأقام علاقات متعددة، لكنه رغم ذلك كان يتلهف على معرفة فتاة صغيرة وجميلة مفعمة بالحيوية والتفاؤل والبراءة، بخلاف أولئك النسوة المحمّلات بالذكريات والمرارات الكاسرة للقلوب من العلاقات السابقة التي تراوحت بين الحب المجهض والحب المرفوض.

قضى ليال على النت يجوب مواقع الدردشة ويحرث الفضاء بحثًا عن الفتاة المطلوبة، وأنفق الكثير من الوقت في الدردشة والمحادثة، لكنه لم يجد من تملأ خياله وتلهمه فيمنحها حبه ومشاعره.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان في البداية يبحث في محيط سكنه، ثم قام بتوسيع الدائرة لتشمل خمسة عشر كيلو متراً خارج نطاق المدينة ثم شمل البحث منطقة الساحل الشرقي كله متضمناً مقاطعة نوفاسكوتشيا وبها مدينة هاليفاكس ثم دخل على مقاطعة نيوبرونزويك.

كان يضيق بمن تريد محادثة بذيئة وينصرف عنها متجهًا إلى حجرة أخرى للدردشة.

قام بتجربة الحجرات الرومانسية وحجرات القلوب الوحيدة، ودخل على حجرات للبنات فقط ولاحقته السخافة في غرف المراهقين، ومع ذلك لم يظفر بمطلبه.

عجب لنفسه أنه كان قبل أن يأتي إلى كندا ويستقر بهذه المدينة للدراسة يعتقد أن كل الفتيات الغربيات الشقر هن بالضرورة جميلات، ثم اكتشف أن قلة نادرة منهن يمكن أن توصف بالجمال، ويقل العدد كثيراً إذا أضفت إلى الجمال الثقافة وخفة الدم.

قام بتوسيع النطاق فدخل إلى غرف المحادثة بالفرنسية التي يتقنها وضم مقاطعة كيبك إلى ساحة البحث.

بعد عدة أسابيع أعيته المحاولة فدخل على موقع "ياهو" الذي سمع أن به قسمًا كبيراً لراغبي التعارف والباحثين عن توأم الروح فوجد استمارة تتعلق بمواصفات الرفيق ومواصفات الطالب. قام بملئها وكتب: شقراء، متوسطة الطول، دقيقة الملامح، مرحة، ساخنة،

لا يهم الدخل السنوي، لا يهم نوع الوظيفة، لا تحب القطط والكلاب، حنونة، السن لا يتعدى 35سنة. ثم انتظر النتيجة ففوجئ بأن الموقع يطلب منه حتى يفتح له الباب أن يدفع مبلغًا من المال بكارت الائتمان نظير هذه الخدمة. وعلى الرغم من حذره الدائم من وضع رقم بطاقته البنكية على النت إلا أنه جازف وقام بتحويل المبلغ المطلوب.

لكنه صدم أن النتيجة لم تكن جيدة والحصيلة كانت ضئيلة للغاية، واكتشف أن إحدى المواصفات التي كتبها وقفت عائقًا في وجهه وهي (لا تحب القطط والكلاب) وعرف أن المرأة هنا تحجم عن معرفة رجل لا يحنو على الحيوانات الأليفة!..

اضطر أن يقوم بالتعديل ويحذف هذا الشرط فانفتحت أمامه مغارة علي بابا وبها من كل صنف.. نساء.. صبايا.. مُزز.. أحمدك يا رب.

لمح صورة واحدة من طالبات التعارف رآها تمثل النموذج الذي يهواه، وقرأ البروفايل الخاص بها فوجدها تعمل طبيبة، كما ذكرت أن دخلها مرتفع (في الحقيقة لم تكن تعنيه مسألة الدخل هذه لأنه لم يكن يبحث عن امرأة تنفق عليه) ووضعت صورة جميلة التقطت لها في حديقة البيت الذي تسكنه، وللصدف الحسنة كانت تسكن في مدينة قريبة بنفس المقاطعة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أكمل قراءة الصفحة فوجدها صريحة للغاية ولا تريد أن تثير في الرفيق المرجو آمالاً كاذبة فكتبت عن نفسها أنها مشغولة معظم أيام الأسبوع بالعمل المتصل ولا تستطيع أن تلتقي بالرفيق كثيراً، لذا فكل ما تريده منه هو لقاءات قصيرة ساخنة! ولا تود من الرجل أن يفكر في الإقامة معها في بيتها أو يطلب منها أن تنتقل لبيته.

شعر أن هذه الشروط قد تكون مغرية بالنسبة له لأنه أيضًا لم يكن يريد واحدة تكلبش في رقبته.. لكن ضايقه أنها ليست عاطفية ولا يشغلها الحب كثيراً.

مع هذا قرر أن يجرب ويرسل لها.

أتاه ردها بعد يومين وطلبت منه أن يدخل على المسنجر في موعد حددته له.

عندما كان يحادثها أدرك من طول فترات غيابها في الرد أنها تحادث آخرين في الوقت نفسه، وعندما سألها عن ذلك لم تنكر وأخبرته صراحة أنها تحادثه هو وثلاثة آخرين لتنتقي من بينهم واحداً!.. وعلى قدر حماسه في البداية لأن يحظى بها فإنه شعر بعدم رغبة في أن يكون هذا الرجل الذي ستسمح له بلقاءات قصيرة ساخنة!.. وبعد قليل انصرف عنها وأغلق الكمبيوتر.

بعد عدة أيام وكان لا يزال يجوب الفضاء الإلكتروني وقعت عيناه على فتاة جميلة تميل إلى النحافة كما يحب البنت أن تكون وشعر بارتياح

عند النظر إليها. أدهشه أنها كانت تطلب صديقًا يفهمها ويحس بها ولا تطلب حبيبًا!.

قام من فوره بمراسلتها ولم ينتبه في البداية إلى أنها تسكن مدينة فانكوفر في أقصى الغرب الكندي على ساحل المحيط الهادي!. كان ردها مشجعًا ودخلت معه في محادثة مباشرة عن طريق المسنجر فأخبرها أن اسمه عادل وعرف أن اسمها "ليا". قالت له إنها بعد المدرسة الثانوية التحقت بالعمل في أحد المولات بوسط فانكوفر حتى تتمكن من الإنفاق على دراسة الموسيقى بأحد المعاهد، وكانت تعيش مع صديق لها لثلاث سنوات ثم انفصلت عنه منذ وقت قصير وتحاول أن تلملم نفسها عاطفيًا في الوقت الحالي.

سألها إن كانت تحب الدخول في تجربة عاطفية جديدة فأبدت تخوفها وإن كانت لم تغلق الباب.

كان يعود كل يوم من الجامعة ويظل يتسكع حتى موعد عودتها من العمل ودخولها على النت في العاشرة مساء. أعجبته صراحتها وبساطتها وأدهشه أنها لم تسأله من أي بلد هو.. لقد كان قد أعد نفسه لأن يحكي لها عن مصر ويقص عليها ما يبهرها لكنها لم تسأل، فلما أبدى دهشته من عدم اهتمامها بمعرفة أصله أجابت بأن كندا بلد متعدد الثقافات والأجناس ولا أحد يسأل عن تاريخ أحد. الجميع كنديون وهذا يكفي. لكنها أضافت بأنه يسعدها سماعه لو كان يحب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يحكي لها عن موطنه الأصلي. شعر بخيبة أمل عندما لم تعرف أين توجد مصر وأدهشه أنها سمعت بمنطقة اسمها الشرق الأوسط لكنها لا تعرف أسماء بلدانها باستثناء إسرائيل. صارحها بأن إسرائيل هي كيان سرطاني في المنطقة وأعطاها موجزاً للتاريخ الإجرامي للدولة العبرية فأبدت دهشة شديدة.

لم يسمح لجهلها بالجغرافيا والتاريخ أن يفسد علاقته بها. والحقيقة أنه وجد معرفتها بالعالم محدوداً مثل معظم الناس في أمريكا الشمالية، لكن للحق كانت تملك ذوقًا موسيقيًا رفيعًا وشاركته الغرام بالموسيقى الكلاسيك. قص عليها ذكرياته بجامعة عين شمس حيث تخرج وروي لها جانبًا من علاقاته العاطفية كما طلبت، وكان سعيداً لأنه يحكي لها بلا تحفظات دون أن يخشى عاقبة هذه الصراحة، على العكس من الأمر في مصر حيث الكذب ضروري لإنجاح العلاقات!. كانت مبهورة بثقافته وأخبرته أنها لم يسبق لها أن تعرفت بشخص مثله يتأهب لمناقشة الدكتوراه وقارئ جيد للأدب العالمي ويتحدث ثلاث لغات ويعرف تاريخ كندا أكثر مما تعرفه هي، كما يلم بالأحداث السياسية في العالم كله، ورأته مختلفًا عن كل من حولها من الذين لا يعرفون من الدنيا سوى مقاطعة كولومبيا البريطانية!.

مع الأيام أخذت العلاقة بينهما تنمو وأحست بألفة شديدة نحوه فحكت له عن أبيها القاسي الذي لم يهتم بها أبدًا، كما حدثته عن

أمها التي هربت مع رجل أحبته وتركتها مع أخيها الصغير، وسالت دموعها وهي تروي ذكرى أيام طويلة مريرة قضتها وحيدة.

في هذه الليلة عندما آوى إلى فراشه سأل نفسه: لماذا كلما توطدت علاقته بفتاة بدأت تحكي له عن أشياء مأساوية؟ ولماذا تبدو الواحدة في البداية مرحة ولطيفة لكنها ما إن تثق به وتأنس إليه حتى تفتح ألبوم الذكريات التي تكون بالضرورة مؤلمة وكئيبة. حدث له هذا كثيراً في مصر وخارج مصر.. فهل الإناث في العالم كله هكذا؟. لكنه تغلب على تساؤلاته عندما تذكر جمالها ورقتها وفيض رومانسيتها التي يحتاجها في غربته ووحدته وصقيعه الداخلي.

أخبرته ذات ليلة أنها لا تذهب إلى الكنيسة إلا نادراً وسألته إن كان هذا يسوؤه!. أجابها بأنه أيضًا لا يذهب إلى الكنيسة.. وإن كان يذهب أحيانًا إلى الجامع، وشرح لها أنه مسلم فلم تفهم ماذا يعني، كما لم تبدُ مهتمة بأن تعرف المزيد عن دينه.

بعد مرور أسبوعين على بدء تعارفهما ومحادثتهما الليلية بدأت تفصح له عن مشاعرها التي تحركت نحوه حتى كأنها تعرفه من زمان. وللمرة الأولى طلبت أن ترى صورته، وأسعده أنها ازدادت اندفاعًا نحوه بعد أن أعجبها شكله، وصارحته بأنها كانت تخشى أن يكون قبيحًا.!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قالت له : أما آن الأوان لأن نلتقي؟ فسألها إن كانت تستطيع المجيء لزيارته في سانت جونز ، لكنها أكدت استحالة هذا لأن ثمن تذكرة الطائرة مرتفع ويفوق قدرتها . . حتى القطار الذي يقطع الرحلة في أربعة أيام لا تقدر على تذكرته ! .

حملت الليالي التالية بالنسبة له استمالات عاطفية مؤثرة لم تكف فيها عن ترديد أنها تتطلع إلى لقائه بفارغ الصبر وأنها لم تشعر بحب جرف ومشاعر فياضة مثلما تشعر الآن معه ، وسرح مع الأحلام عندما كتبت له أنها تتمنى أن تنام وتستكين في حضنه . سألها إن كان يستطيع أن يزورها في بيتها فردت بأنها ستكون أسعد إنسانه في الدنيا إذ تستقبله ضيفًا في الأستوديو الذي تسكنه لأي مدة يريدها .

وجد نفسه هو الآخر مشدوداً إليها وأحس بأن سعادة كبيرة تنتظره في صحبتها ، لكنه أشفق على نفسه من زمن الرحلة ومن ثمن التذكرة ، فسبع ساعات طيران هي نفس زمن الرحلة من مصر إلى تايلاند ، ولهذا كان يتطلع إلى رفقة صديقة تعيش بمدينة سانت جونز أو بالقرب منها ، لكن النصيب جعله يعثر على فتاة الأحلام في أقصى الغرب وعليه الآن أن يدبر ثمن الرحلة ثم يعاني طوال الأشهر القادمة من الإفلاس .

أخذ القرار الجريء وأخبرها بأنه قادم إليها وحدد يوم الحادي عشر من سبتمبر موعداً لزيارتها التي قدّرها ستستمر أسبوعًا فقط حتى لا

تتعطل دراسته . طلبت منه أن يطيل الزيارة ويجعلها شهراً بأكمله فوافق ونسي الدراسة ! .

بدأ العد التنازلي والشوق بينهما يرتفع والحوارات تزداد حرارة ، ثم بدأت ترسل له قبلات عبر الهواء وأحس أنه لا يستطيع الانتظار ، كما راودته فكرة الزواج بها لأنه لا يريد لعلاقتهما أن تكون عابرة وموقوتة ببقائه في كندا وإنما تمنى أن يأخذها لتعيش معه إلى الأبد .

أخيراً جاء يوم الثلاثاء 11سبتمبر . . موعد لقاء الحبيبة فاستيقظ مبكراً وأعد حقيبته ثم حملها إلى المطار .

عندما خطا أول خطواته داخل صالة السفر لاحظ تجمهراً حول شاشات العرض التي تبث الأخبار ووجد قناة CNN تضع عنوانًا إلى جانب الشاشة : " أمريكا تحت الهجوم " فلم يفهم الأمر في البداية وتابع الأنباء التي تحدثت عن طائرة ركاب أمريكية تصطدم بأحد برجي مركز التجارة العالمي وضحايا بالآلاف .

أخذ ينظر للشاشة غير مصدق ، وبينما الكاميرات تركز على صورة أنقاض البرج المضروب وسحابات الغبار التي ترتفع في الجو إذا بالمفاجأة الرهيبة تحدث أمام عينيه على الهواء بالصوت والصورة لطائرة تقترب من البرج الآخر ثم تصطدم به وتخترقه وتخرج من الجهة الأخرى وكتلة من اللهب تأخذ مساحة الشاشة بأكملها ! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقف وسط الناس مشدوهًا بالحدث وقد شلّت الدهشة تفكيره ووجد كل الواقفين إلى جواره في حالة ذهول مثله ينظرون إلى بعضهم البعض ثم يعاودون التحديق في الشاشة .

عاد إلى البيت بعد أن تم إلغاء كل الرحلات في أمريكا الشمالية انتظاراً لجلاء الموقف وزوال الخطر ، وبدأ يتابع الأخبار من البيت .

أراد أن يتصل بحبيبته "ليا" التي لا شك عرفت بما حدث وأدركت أنه لن يستطيع المجيء ، فاكتشف للمرة الأولى أنه لا يعرف رقم تليفونها وتذكر أنهما كانا قد اتفقا على عدم الكلام في التليفون وانتظار اللقاء وجهًا لوجه .

دخل على المسنجر فلم يجدها ورجّح أنها ذهبت للعمل . في المساء وعند موعد حديثهما كل ليلة فتح الكمبيوتر فلم تظهر أيضًا مما جعله يتوتر ويخشى أن يكون مكروهًا قد ألّم بها .

قام بكتابة رسالة إلى بريدها الإلكتروني وطلب منها أن تدخل إلى المسنجر لكنها لم ترد .

قضي ليلته مؤرقًا وشاعراً بالعجز وأرسل لها أكثر من رسالة دون فائدة .

في اليوم التالي ظل على الكمبيوتر يترقب ظهورها ولم تتوقف رسائله إليها .

قبل أن يغرق في النوم على كرسيه عند الفجر لمحها تظهر على المسنجر ففرك عينيه وسارع يناديها : ليا حبيبتي . . أين أنت ، لقد قلقت عليك منذ الأمس . . أين كنت يا حبيبتي؟ . اليوم أعلنوا عن قرب استئناف الرحلات الجوية مرة أخرى وسأقوم بالحجز من جديد لأحضر إليك بعد يومين أو ثلاثة . . ليا . . لماذا لا تردين؟ . ليا . . هل ستتركينني أكلم نفسي؟ . بعد فترة مرت كأنها دهر كتبت له : عادل . . هل أنت مسلم؟ .

أدهشه سؤالها لكنه رد : نعم مسلم وقد أخبرتك بهذا من قبل .

اختفت من على الشاشة ولم تظهر بعدها مرة أخرى! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفاة أعز أصدقائي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندما حضر رامي إلى البحرين ليعمل معنا في الشركة كانت. فرحتنا به كبيرة نحن المصريون الذين تغص بهم المؤسسة. كانت بشاشة وجهه ودماثة خلقه ووسامته الظاهرة أبوابًا دخل منها إلى قلوبنا.

الأجمل أنني وجدته عاشقًا لمحمد منير وعلي الحجار ولديه تسجيلاتهما كلها، كما أسعدني حبه للسينما وفرحت لأنني وجدت أخيرًا من يقبل أن يشاركني هوسي بالأفلام. أخذته منذ يومه الأول وأوجدت له سكنًا معي بنفس البناية في شقة تعلو شقتي بمنطقة "الجفير" القريبة من الخليج بمدينة المنامة، وتطوع آخرون لمساعدته في فرشها فكانوا يتجولون معه في الأسواق حتى اكتمل كل شيء واستقر في إقامته.

كنت سعيداً باصطحابه معي إلى العمل ذهابًا وإيابًا.. حتى أطفالي أحبوه وتعلقوا به وصاروا ينتظرونه كل مساء عند عودته ومعه الشوكولاتة واللعب. إلى هذا الحد كانت مودته مع الجميع. الخلاصة أنه أدخل البهجة على مكان العمل حيث كنا نلتقي في الصباح، ونقل ذات البهجة إلى البيت.

أذكر أنني كنت أقدمه للأصدقاء على المقهى في المساء بعد قدومه مباشرة، وكان يدهشني أنني أجد من قدمته لهم بالأمس ساهرين عنده في البيت في الأمسية التالية!.. بهذه السرعة كان يعقد الصداقات ويقتحم القلوب حتى إن الكثير من السيدات اللاتي كنا نعرفهن قد تبارين في إحضار العرائس له وعرضهن عليه، وكل منهن تمني النفس بأن يكون من نصيب ابنتها. حتى بعد أن عرفنا أنه مرتبط وأن خطيبته بالقاهرة تقوم ببعض التجهيزات قبل أن تلحق به لتزف إليه في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البحرين، فإن هذا لم يؤثر على الموقف منه ولا غير من المشاعر الطيبة نحوه.

في هذا الوقت كانت "عصمت" المعروفة لدينا بأم المصريين لطيبتها وحنوها علينا وتدخلها في أحوال كثيرة للحئول دون "تفنيش" أحد المصريين من خلال علاقاتها الواسعة والمتشعبة بحكم أنها تقيم بالبحرين منذ عشرات السنين. كانت عصمت تذهب معي أنا ورامي إلى الجمعية الاستهلاكية وبالذات إلى برادات الجزيرة التي كان يحبها رامي لتشرف بنفسها على شراء احتياجات الأسبوع الخاصة به، وكثيراً ما كانت تفاجئنا بصينية أو طاجن صنعته بنفسها تدخل علينا به في الأمسيات، وقد زادت مفاجآتها الدسمة كثيراً بعد مجيء رامي.

كنا نذهب مرتين أو ثلاثة كل أسبوع إلى السينما وكنا زبونين مستديمين على سينما الدانة القريبة من منطقة "السنابس" أو سينما سار.

انتظرته ذات صباح في السيارة أسفل البناية كالمعتاد ليذهب معي للشركة لكنه لم يظهر. صعدت إلى شقتي واتصلت به تليفونيًا فلم يرد. دفعني القلق للصعود إليه. وضعت أصبعي على جرس الباب وأرهفت السمع. وخيل إليّ أنني سمعت صوتًا خفيفًا بالداخل لكن هذا الصوت انقطع وساد الصمت. لم أعط للأمر أهمية كبرى وذهبت للعمل وحدي.

أثناء النهار أخبرني الزملاء أنهم اتصلوا به كثيراً دون جدوى. قمت بالاتصال بعصمت عسى أن يكون لديها أخبار عنه فنفت أن تكون قد رأته منذ بضعة أيام.

عند رجوعي في المساء طرقت عليه الباب فلم يفتح أيضًا. انقبض قلبي وخفت أن يكون قد ألمّ به مكروه.

قبل أن أذهب إلى النوم عند منتصف الليل قمت بمحاولة جديدة وطرقت الباب بعنف ويدي الأخرى على الجرس لا تبرحه. سمعت خطوات تأتي من بعيد فدق قلبي بالفرحة، وبعد ثوان انفتح الباب ورأيته يفرك عينيه كالقائم لتوه من نوم أهل الكهف وكان يسعل بشدة وشعره مشعث وغارق في عرق غزير.

ما بك؟.. قلت له، فرد وهو يتثاءب: ياه.. يظهر أني نمت طويلاً دون أن أدري! شهقت من الدهشة: نمت طويلاً دون أن تدري؟ لقد أفزعتنا يا بني آدم.. طول اليوم ونحن نتصل بك، ما لك هل أنت مريض؟ قال: يبدو أن حالة التسمم التي أصبت بها العام الماضي في مصر ما زالت تترك عليّ بعض آثارها على شكل نوبات طويلة من النوم الذي يشبه الإغماء، تلك الحالة التي تعاودني من وقت لآخر. لم أكن أعرف شيئًا عن حالة التسمم هذه لكن منظره أخافني.

عرضت عليه أن يأتي معي إلى المستوصف القريب لكنه هوّن من الأمر وطمأنني إلى أنه بخير وأنه سيذهب بنفسه إلى المستشفى حتى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يطمئن ويطمئننا، قال هذا وهو يمد يده إلى زجاجة دواء الكحة التي على المنضدة. أعدت عليه عرضي بالذهاب إلى الطبيب فربت على كتفي وهو يضحك ويرفع زجاجة الدواء إلى فمه ويشرب ما يزيد على نصفها مرة واحدة ثم يقول لي: لا تخف عليّ، أؤكد لك أنني لن أموت الآن، أمامي أشياء كثيرة لم أفعلها بعد ولا أنوي أن أموت قبل أن أتمها، عندي زوجة لم أدخل بها وأطفال لم أنجبهم وأفلام لم أشاهدها وحفلات لمحمد منير لم أحضرها وطواجن حمام بالفريك لم ألتهمها ونُكت لم أضحك عليها، ثم أردف: أولست أنت القائل إن أجمل دقيّة بامية هي تلك التي لم نأكلها بعد؟ قلت له: بلي أنا القائل بهذا. فقال: خلاص.. اطمئن وانزل نام. قلت: ألم تلاحظ أنك شربت معظم زجاجة الدواء يا مجنون؟ نظر نحوي في دهشة وقال: غير ممكن.. أنا لم أشرب منها سوى جرعة صغيرة تساوي ملعقة. قلت: وهل الدواء يتم شربه بالزجاجة؟.. أخذني من يدي حتى باب الشقة وفتح الباب وهو يدفعني في رفق وأوصلني إلى المصعد وهو لا يكف عن الضحك!.

عندما اجتمعت شلة الأصدقاء للتباحث في أمره عللت عصمت المسألة بأنه يشعر بالوحدة ويحتاج إلى أن يتزوج بأسرع وقت ممكن، وأرجعت الأمر كله إلى حالة اكتئابية بدأت أعراضها في الظهور.

بعد يومين حضرت عصمت لزيارتي وكانت منزعجة للغاية بعد أن نزلت من عنده. سألتني إن كنت قد لاحظت آثار الإبر المنتشرة في ذراع رامي. قلت لها إنه أخبرني أنها نتيجة المحاليل التي علقوها له بالمستشفى التي ذهب إليها وحده.

رمقتني بنظرة حائرة وتساءلت: وهل تصدق هذه الحدوتة؟. قلت مذهولاً: ماذا تقصدين.. إياك أن تكوني تقصدين.. قالت: نعم أقصد ذلك ويجب أن نتحرك لإنقاذه.

قلت لها: لا شك أن حرصك عليه هو الذي جعل خيالك يشطح لبعيد.

قالت: ليت الأمر يكون كما تتمنى لكنني اليوم تلقيت مكالمة من صديق في الشرطة طلب مني أن أذهب لزيارته، وفي مكتبه قال لي: نحن نعرفك من زمان وأنت نعم الأخت ونعم الصديقة، لهذا نود أن ننبهك أن صدفة عجيبة وضعتك في حالة تماس مع عملية كنا نرصدها، فلما سألته في فزع عن الأمر قال: كنا نراقب تاجر مخدرات ونرصد تحركاته ووجدناه يصعد لشقة رامي وبعد نزوله تصادف صعودك إلى رامي.. لهذا أحببنا أن ننبهك إلى تحذيره من لقاء الأشقياء لأن القانون لن يرحمه.

عندما صارحت رامي بهذه الأشياء ضحك بمنتهى البراءة وقال إنه يقدر اهتمامنا به ولكن لا يجب أن يشتط بنا الخيال إلى حد تشويه سمعته!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم أعد أنتظره في الصباح لأنه كان يتسبب في تأخيري عن العمل، ثم أصبح غيابه المتوالي أمراً عادياً وبدأت معاملته في الشغل تتغير ونال تنبيهات ولفت نظر ثم إنذاراً بالرفت.

شعرت أنني أحمل مسؤولية عنه وأن من واجبي أن أحميه من نفسه فقررت أن أفعل أي شيء. قمت بالاتصال بوالده في مصر وحكيت له بعضاً مما يمر به رامي واقترحت عليه أن يعجل بتزويجه، ففوجئت بالرجل يسب ويلعن ويؤكد أن هذه العروس هي سبب مشكلته وأنه قد خطبها دون رضى منه وهو لا يتمنى لهذه الزيجة أن تتم.

قلت للرجل: إن المشكلة أكبر من موضوع الزواج لأننا نعتقد أن رامي يتعاطى المخدرات. صرخ الرجل في التليفون مؤكداً أن ابنه "زي الفل" ولا يمكن أن يكون كلامي صحيحاً فلما أكدت له أن حبنا له وحرصنا عليه هما سبب اهتمامنا رجاني ألا أردد هذا الكلام واستحلفني أن أرعى رامي وآخذ بالي منه. طلبت منه أن يأتي ليرى بنفسه فاعتذر بكثرة المشاغل!.

حرصت بعد ذلك ألا أترك رامي يأكل وحده فكنت أناديه ليتناول الطعام معنا في البيت. وكان هناك مجمع سينمائي جديد قد ظهر هو مجمع "السيف" الذي يضم عدداً كبيراً من قاعات السينما فكنت أصطحبه إلى هناك لنشاهد فيلماً جديداً كل ليلة.

بعد السينما كنا نطوف بالسيارة عبر دولة البحرين كلها متنقلين من المحرق إلى المنامة ثم نعبر جسر "سترة" وندخل إلى منطقة النبيه صالح

ونصل إلى منطقة سند ونتجول بها ثم نوغل حتى حي العكر والمعامير والنويدرات ثم نعود على أعقابنا ونكمل التسكع بالسيارة تصاحبنا شرائط منير ونصل إلى "الرفاع" ثم نتسكع في شارع البديع قبل أن نتوجه إلى منطقة الدبلوماسيين بحي "سار" التي يقطنها الأجانب ونعود آخر الليل.

كانت خطتي أن أنهكه تماماً حتى يعود فينام على الفور.

حمدت الله على أن حالته تحسنت واسترد شهيته للطعام وبدأ يعود نفس الشخص الذي عرفناه وأحببناه.

بعد عدة أيام فاجأنا بأنه سينزل في إجازة بمصر ولن يعود إلا وفي يده عروسه.

افتقدناه في غيابه وشعر كل منا بأن شيئاً أساسياً في حياته قد نقص. عندما عاد كان بادي السعادة وأخبرنا أنه نجح في إقناع والده بالعروس وحصل على رضاه، كما بشرنا بأنها قادمة بعد أسبوع.

اتفقنا جميعاً على أن نتقاسم نفقات إقامة حفل له في قاعة محترمة نقوم بتأجيرها، ونزلت معه عصمت لشراء فستان الزفاف.

في مساء اليوم التالي صعدت إليه لأصطحبه إلى القهوة على الخليج حيث الأصدقاء في انتظارنا. لاحظت أنه وبينما يفتح الباب يتلفت في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلق، وعندما خطوت داخل الشقة لمحت شبح شخص يرتدي دشداشة يختفي داخل إحدى الغرف.

سألته: هل لديك ضيوف؟ أفزعني أنه أنكر واعتذر بعدم استطاعته الخروج معي. وقفت طويلاً بصالة الشقة أحملق فيه ولا أدري ماذا أفعل.. هل أندفع وأقوم بضبط المختبئ بالداخل مع ما يحمله هذا من انهيار مؤكد في علاقتي برامي، أم أنسحب في هدوء؟.

تركته وأنا في غاية الحزن ولم أعد مطمئنًا لأي شيء بشأنه. صارحت عصمت بمخاوفي فأعربت عن أن هذا الشخص الذي اختبأ عند قدومي لا بد وأن يكون تاجر الصنف الذي يمده بالمخدرات. قضيت ليلة عاصفة أسأل نفسي عن واجبي بعد أن تأكدت من حالته وما الذي أستطيع أن أفعله لأنقذه من المصير الذي يندفع إليه.

في الأيام التالية كنت أبدو هستيريًا وأنا أناقشه بمنتهى العنف ثم بمنتهى اللين وأهدده ثم أحتضنه وأصرخ في وجهه ثم أبكي وأنا أتمنى عليه أن يقلع عن تعاطي الهباب الذي يأخذه. كان يضحك ويتهمني بالهلوسة وأشار عليّ بأن أرى طبيبًا!.

أصبح أملي الوحيد هو أن تأتي عروسه وأن تنجح فيما فشلنا فيه.

قبل حضور العروس بليلة واحدة اتصل بي ودعاني إلى العشاء مع شلتنا التي قام بدعوتها في شقته للاحتفال بآخر أيام العزوبية. اعتذرت

عن العشاء لأني كنت قد اعتزمت أن آخذ أولادي إلى الملاهي، لكني وعدته بأن أمر عليهم بعد عودتي.

عندما كنت أضع المفتاح في الباب كان جرس الهاتف يرن في شقتي، لكنه توقف عن الرنين قبل أن أرفع السماعة.

تذكرت رامي وكنت قد أحضرت له بعض الحلويات لزوم السهرة.

قبل أن أخرج دق جرس الباب دقًا طويلاً متصلاً. تساءلت عن هذا المزعج الذي لا يرفع إصبعه عن الجرس. لما فتحت الباب وجدت أحد زملائنا ممتقع الوجه وما إن رآني حتى أخذ يهزني في عنف ويبكي وهو يسألني: أين كنت.. أين كنت؟ سألته في رعب: ماذا دهاك يا مجنون؟ فألقى الخبر في وجهي: رامي مات.

مادت الأرض بي ثم نظرت إلى أفراد أسرتي فرأيتهم متسمرين من الذهول بعد أن سمعوا الخبر. احتضنت أولادي وهدأت من روعهم وأنا لا أكاد أستوعب ما حدث.

قفزت السلم وجسمي يرتعش بشدة ودخلت إلى الشقة التي توافد عليها أناس كثيرون علموا بالخبر من أصدقائنا الذين كانوا عنده بالبيت. وجدته مسجى على السرير فظللت أنظر إليه في دهشة ولا أتكلم حتى خشي على الموجودون فأجلسوني وهم يرددون: صلي على النبي.. البقاء لله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت لهم : أنا أعلم أن البقاء لله لكن لماذا لا يتحرك رامي؟ .

جلست أسمع الحكاية وقد تملكتني رعشة لا تريد أن تنتهي .

قالوا لي أنه استأذن منهم ودخل الحمام، ولما طال غيابه طرقوا الباب فلم يرد فكسروه ودخلوا ليجدوه ممدداً على الأرض وقد فاضت روحه . قمت ونظرت في الحمام فوجدت فوضى شديدة وأخبرتني الصورة التي رأيتها بالسيناريو الذي حدث . رأيت على الأرض حزاماً معقوداً وملعقة وولاعة وفص ليمون معصور وسرنجة فارغة ملقاة إلى جانبه، كما وجدت زجاجة صغيرة مغلقة تحوي بودرة بيضاء . فأدركت أنه وضع البودرة في عصير الليمون وقام بتسخين المزيج في الملعقة ثم سحبه بالسرنجة وحقن نفسه، ولما كانت الجرعة أكبر من اللازم فقد شعر بالاختناق وحدث له هبوط بالدورة الدموية فسحب الحزام المعقود حول يده، ومادت الأرض به فتعلق بالحوض والمرآة ثم سقط ساحبًا معه كل ما طالت يديه .

ورغم أن الموت يهز البشر هزاً عنيفًا ويجعلهم يخشعون لسلطانه، ورغم أنني ظللت أرتعش عدة أيام من هول فقد صديقي بهذا الشكل المأساوي، فإن هناك من البشر ضباعًا ضارية تقتات على اللحوم الميتة . منهم أحد الزملاء الذي لا أدري كيف واتته الجسارة ونحن نقف على رأس صديقنا الميت لأن يجوس بالشقة يتفحصها والدواليب يفتحها والأدراج يلملم ما بها مما خف حمله وغلا ثمنه حتى ملأ حقيبة

كبيرة لا أدري متى وكيف أحضرها . ملأها بالتحف والمقتنيات التي كان المرحوم خبيراً بها، ثم وضعها بجوار باب الشقة وعاد إلينا ينعي الفقيد ثم حملها وخرج . ولا يفيد بشيء أن أروي ماذا فعلت به في ثورتي الجنونية بعد أن نبهني البعض لما فعله زميلنا الكافر .

عدت إلى رامي بعد أن استخلصت أشياءه من اللص وصرخت فيه وهو ميت : أرأيت . أنت الذي فعلت بنفسك هذا . لو أنك لم تقتل نفسك لما جرؤ الكلب الذي كان يتودد إليك كل يوم على انتهاك بيتك . ثم سقطت مغشيًا عليّ .

احتجت إلى فترة طويلة لأتخلص من إحساسي بالذنب نتيجة شعوري بالتقصير والإهمال في حمايته، رغم أنني عرفت أن أباه كان على علم بإدمانه الهيروين وكذلك خطيبته وأهلها وأنهم أرسلوه إلى البحرين ليبتعد عن رفاق السوء في مصر، لكن من الواضح أن هؤلاء الرفاق يسهل عليهم جداً أن يهتدوا إلى بعضهم البعض في أي مكان . اليوم بت مقتنعًا بأن شيئًا لم يكن في الإمكان فعله لمنعه من ملاقاة مصيره المحتوم . . . رحمه الله .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سفاري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هبطت الطائرة في مطار نيروبي، ورغم أن البداية لم تكن لطيفة حيث إن رجال الجمارك لم يمنحوه الختم على الجواز إلا بعد أن دفع

المعلوم، ومن بعدهم استلمه رجال الجمارك فعاملوه بغلظة وأفرغوا حقيبته مما بها وراحوا يعبثون بمحتوياتها ولم ينقذه غير دفع المعلوم.

الغريب أنهم بعد أن تقاضوا منه الإتاوة لم يحسنوا معاملته وكأن ما دفعه لهم هو ضريبة مستحقة وليست رشوة.. فتركوه يجمع ملابسه التي بعثروها ويعيد إغلاق حقيبته.

رغم كل هذا إلا أنه كان فرحًا مستبشرًا ولم يشأ أن يسمح للكدر بالتسلل اليه، وأقنع نفسه أن هذا عادي ويحدث في بلاد كثيرة فقيرة وأن أشياء شبيهة به تحدث أحيانًا في مصر!.

شعر بالإثارة لفكرة أنه أخيرًا سيتمكن من القيام برحلة إلى الغابات الكينية الشهيرة، ويصور بالكاميرا فيلمًا يحتفظ به في أرشيفه

كان يحلم بهذه الرحلة منذ زمن ويخطط لها فقرأ كثيرًا عن الغابات والمحميات الطبيعية وأنواع الحيوانات كما درس الخرائط وقرأ بعض مذكرات الرحالة الإنجليز الذين كتبوا عن مناطق مثل "ماساي مارا" وقرر أن يأخذ هناك جولة فوقية بالمنطاد الذي يطير فوق المنطقة كاشفًا الحياة البرية في الطبيعة الساحرة وكذلك منطقة ناكور ومحمية تاسفو.

كانت نسائم الصباح الباكر منعشة، والسيارة الأجرة تقطع الطريق إلى فندق هيلتون بقلب المدينة حيث يأخذ قسطًا من الراحة قبل أن تأتي سيارة الشركة السياحية في المساء ليبدأ رحلة السافاري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الطريق الطويل إلى الفندق الذي تم شقه وسط الأحرش راح يتطلع إلى أكواخ الصفيح المتناثرة على الجانبين، كما راح يتطلع إلى قوافل الرجال والنساء الذين يسيرون على الأقدام في صفوف غير منتظمة ولاحظ أن من بينهم رجالاً يرتدون بزات كاملة وربطات عنق ونساء يرتدين أزياء مودرن. علّق السائق على المشهد شارحًا له أن هؤلاء المشاة هم موظفون وعمال في طريقهم إلى أشغالهم بالمدينة سيراً على الأقدام، حيث يقتضي توفير ثمن تذكرة الأوتوبيس التضحية ببعض الحيوية!.

أدهشه منظر الأعداد الغفيرة ورغب في أن يسجله بالكاميرا، ولكن نظرة صارمة من السائق أقنعته بالعدول عن الفكرة.

في فندق هيلتون الذي يقع بميدان "أراب موي" أكبر ميادين العاصمة استراح قليلا ولم يشأ أن يضيع ما تبقي من وقت على موعد قدوم السيارة بغير أن يفعل شيئًا، فبدل ثيابه وانطلق إلى الشارع.

كان الزحام شديدا للغاية. آلاف البشر من كل الأعمار يغص بهم الميدان والشوارع المحيطة. كانوا يجلسون على الأرصفة وعلى المقاعد الحجرية في سيمفونية بصرية شديدة النشاز، ولاحظ بينهم عدداً من الرجال والنساء والأطفال مكوّمون في أحد الأركان والقروح تغطي أجسادهم النحيلة وليس بهم من مظاهر الحياة إلا عيون متسعة تحدق بلا رجاء.

التف حوله جمع من المتسولين راحوا يتبعونه ويمسكونه من ثيابه فأخرج لهم بعض الفكة حتى يصرفهم، لكن هذه كانت غلطة كبيرة إذ إن متسولي الميدان تنادوا والتفوا حوله يجذبونه من ثيابه ويتحدثون إليه بلغة لا يفهمها، فلم يجد أمامه غير أن يعود مسرعًا إلى الفندق ويحتمي برجال الأمن الذين كانت نظراتهم كافية لبث الرعب في قلوب المتسولين فتفرقوا وانتشروا في الميدان.

نصحه أمن الفندق بأن يجلس في الكافيتيريا أو على حمام السباحة حتى يحين موعد رحلته ولا يوغل في السير وحيداً.

جلس في الكافيتيريا وكان يجلس بها عدد من أفراد طواقم شركات الطيران التي تنزل بالفندق. أبصر شخصًا يعرفه فقام وسلم عليه وجلس معه يتناول القهوة.

حكي له الرجل الذي يعيش ويعمل في نيروبي منذ سنوات عن خطورة هذه المدينة التي فاقت كل حد، وقص عليه كيف قام المجرمون ذات ليلة باعتراض طريق أحد الأوتوبيسات وكان يحمل طاقمًا جويًا لطائرة كانت ستقلع من المطار بعد ساعة، وقام المجرمون بإنزالهم إلى الطريق وأخذوا منهم حقائب سفرهم وأفرغوا ما في جيوبهم وخلعوا ساعاتهم وحليهم ثم أمروهم تحت تهديد السلاح بخلع ملابسهم كاملة واستولوا على اليونيفورم الذي كان يرتديه الكباتن والمضيفات وتركوا الجميع عرايا في الطريق كما ولدتهم أمهاتهم!. ولم ينس أن يخبره أنه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شخصيًا يخاف حتى أن يتوقف بالسيارة في إشارات المرور حتى لا ينقض عليه أحد أثناء وقوفه بالسيارة كما فعلوا بأحد القناصل الأوروبيين الذي لقي حتفه عندما رفض أن يخرج ما معه من نقود. سأله: وماذا تفعل عند الإشارة الحمراء؟. قال: إذا وجدت الإشارة حمراء من بعيد فإنني أبطئ في التقدم نحوها حتى تخضر عند وصولي إليها!. قال له: الحمد لله أنني لن أقضي أيامي هنا.. رحلتي كلها ستكون في الغابات الآمنة مع الحيوانات التي لا تؤذي من يسالمها.

كان الوقت يمر بطيئًا خاصة بعد انصراف الرجل، لهذا فقد قرر ألا يجعل الحكايات المخيفة التي سمعها تثنيه عن الاستمتاع برحلته، وكان راغبًا كعادته في الغوص بقلب المكان واستكشاف البشر الذين كان يستمتع بالاقتراب منهم. وتذكّر أنه على كثرة سفراته لم يكن يكترث بالتحذيرات التي توصي بعدم التجول في مناطق معينة في بعض الدول بعد الغروب، وكان منطقه الذي يطمئن إليه أنه يعتبر نفسه قريبًا من هؤلاء الفقراء ولا يتصورهم يفكرون في إيذائه!.

خرج مرة أخرى من الفندق ولم يستجب هذه المرة لأي شحاذ وظل يتجول بالشوارع المحيطة بالفندق.

هاله منظر هذا الجمع الحاشد من العاطلين الذين تمتلئ عيونهم بالتحفز والرغبة في الانقضاض وأدرك أن كل هؤلاء الضائعين يخرجون بأعداد كبيرة من أحيائهم البائسة وقراهم على الأطراف ويتوجهون إلى

قلب العاصمة فيفيضون على الميدان الكبير الذي تنتشر به الفنادق والمطاعم وشركات الطيران والمحال الكبرى ويكثر به السياح الممتلئة جيوبهم بالمال.

في أحد أركان الميدان وبجوار مطعم ومبنى رأى شخصًا يرتدي ثياب كاهن وقف يخطب في جمع من الناس بدوا غير مبالين به. كان الرجل يرسم دوائر على الأرض ويشرح للناس في أداء مسرحي زاعق خطورة الخطايا التي يرتكبها الإنسان والشر المتأصل في النفوس وأخذ يروي تفصيلات عن الجحيم الذي ينتظر العصاة، ودعا من يريد الخلاص إلى أن يتبعه. راح السامعون يتضاحكون بينما يزداد هو غلوًا وعروق رقبته النافرة تكاد تنفجر من شدة الانفعال.

تابع مشاهداته وتوغل في الميدان ثم انحرف يمينًا إلى شارع "جومو كينياتا" ولاحظ أن مكاتب شركات الطيران والسياحة جميعها أقامت سياجات حديدية حول واجهاتها الزجاجية، وضاعفت من أفراد الأمن والحراسة الذين راحوا يذهبون ويجيئون أمام المحلات وفي أيديهم هراوات ضخمة.

كانت خطواته قد أخذته بعيدًا بعض الشيء عن الفندق ووجد نفسه على غير العادة يحس بتوجس ويحاول أن يقنع نفسه بالعودة والبقاء بالفندق ولا داعي للمكابرة والتظاهر بمظهر من لا يبالي بالخطوب.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقدم منه بعض الشباب في الشارع وعرضوا عليه أن يقوموا بضمه لرحلة سفاري ستنطلق بعد دقائق . شكرهم ومضى في سبيله ، ثم تقدم منه شخص يحمل بعض التماثيل الخشبية وألح في محاولة حمله على الشراء . اعتذر بلطف واستدار فاصطدم بشاب ابتسم له وعرض عليه أن يشتري الدولار منه بسعر مرتفع . أخبره أنه لا يحمل دولارات . قال الشاب : أي عملات . . إسترليني ، فرنكات ، أي شيء .

بدأ القلق يتسلل إلى نفسه لوجوده وحيداً في مدينة يسكنها الجياع وأحس أن كل الموجودين بالشارع ينظرون إليه ويخططون لسلبه ما معه من مال .

قرر أن ينهي كل هذه الهواجس ويستمع لصوت العقل ويعود .

عندما استدار للعودة إلى الفندق سمع جلبة وصياحًا على الرصيف المقابل فالتفت ليشاهد رجلاً أسود يجري بأقصى سرعته حاملاً زوجًا من الأحذية ، وفي أثره رجل آخر حافي القدمين يلاحقه بكل قوة . كان الرجل الثاني آسيوي الملامح وربما كان يابانيًا . وتذكر النصيحة التي سخر منها عندما سمعها والتي شددت عليه ألا يخلع حذاءه لأي ماسح أحذية يعرض عليه تلميعه ! . وجد نفسه يجري هو الآخر على رصيفه مشدوداً للمشهد الغريب على الجهة الأخرى ، وغمره شعور بالإعجاب لتصميم الرجل الآسيوي وإصراره على استرداد حذائه عندما قفز في الهواء في حركة سينمائية متعلقًا بقدمي اللص الذي انكفأ

على الأرض زاحفًا بجسده على الأسفلت لينقض فوقه صاحب الحذاء ممسكًا به من عنقه ، ودارت بينهما معركة قصيرة حسمها الآسيوي بانتزاع الحذاء ، ولكن ما كاد ينهض حتى هجم عليه عدد من الشباب الذين كانوا بالشارع وأخذوا يكيلون له الضربات في كل أنحاء جسده ولم يتركوه إلا وقد تمزقت ملابسه واندفع الدم من رأسه ووجهه ليقوم بعد ذلك متحاملاً على نفسه متجهًا إلى صيدلية كانت تقع بالميدان بعد أن فقد حذاءه نهائيًا .

وقع هذا المشهد من نفسه موقعًا سيئًا وأحس بأن شرًا مستطيراً يتربص به ، فأسرع الخطى عائداً باتجاه الفندق ، لكن شابًا ضخمًا قاسي الملامح اعترض طريقه بوقاحة مخيفة وقال له : أنا جائع . . وقف متردداً لا يدري ماذا يفعل ثم تشجع وقال : ليس معي نقود . قال الشاب : بل معك وستعطيني .

أغضبته وقاحة الشاب وبدأت غدد التحدي تفرز في داخله وشعر بالأدرينالين يتساب في عروقه لمواجهة الموقف . . لكنه سمح للعقل أن يتدخل وأن تكون له الغلبة لأنه أدرك أن هذا الشاب ليس وحده بالتأكيد وحتى لو كان وحده فإن المواجهة العنيفة معه قد تكلفه حياته ، فقرر أن يشتري عمره ومد يده في جيبه كي يتقي الشر الذي بدأت نذره في التجمع وأخذ يتلفت حوله ، كانت هناك المئات من العيون تتطلع عبر الشارع إلى يده المرتعشة وهي تخرج ورقة بمائة شلن لتعطيها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للشاب. نقده إياها ثم أسرع مبتعداً عنه وقد اجتاحه شعور ممض بالعجز وانعدام الحيلة، وكان هذا الشعور مؤلمًا جداً بالنسبة له، لكنه قرر احتماله لأنه أرحم من الموت.

حاول لملمة شتات نفسه وعيناه تدوران بسرعة في كل أنحاء الشارع، وتجمعت كل آماله في تلك اللحظة في فكرة واحدة هي أن يتمكن من الوصول إلى فندقه بسلام. ، فراح يمد في خطوه وصارت مشيته أقرب إلى العدو.

وأخيراً ظهر أمامه الفندق وحول مدخله الرئيسي عدد كبير من رجال الشرطة يقومون على حراسته. أبطأ من خطوه حين اطمأن لوجود الشرطة على مقربة منه.

ولكن على حين غرة أطبقت على عنقه من الخلف قبضة حديدية. . قبضة جبارة عاصرة، وأحس بأن قصبته الهوائية تكاد تنكسر من شدة الضغط، وحاول أن يقاوم فلم يستطع، وشعر بأياد عديدة تمتد داخل جيوبه لتفرغها بوحشية، وصكت مسامعه أصوات تمزقات ملابسه في كل مواضعها ثم ضاق تنفسه وبدأت الصور من حوله تشحب وهو يسقط على الأرض بين أيديهم.

لم يعرف كم مضى من الوقت وهو مغمى عليه عندما فتح عينيه ليجد نفسه ملقى على الأرض والناس يمشون بجواره يرمقونه بعيون خالية من أي شعور، وقد فقد نقوده وكروت الائتمان وجواز السفر

وكل ما كان يحمله في جيوبه، وتعرت أجزاء كبيرة من جسده بعد أن تمزقت ملابسه تماماً بينما راحت دفقات مرعبة من الدماء تخرج من فمه. وفي غمرة شعوره بالإنهاك والضعف لمح رجال الشرطة واقفين في مكانهم على بعد خطوات منه كأنهم خيالات المآتة التي ألفتها الجوارح، فجاشت نفسه بانفعال شديد.

وفي إعصار من المشاعر العارمة التي انتابته راح يبكي على رحلة للغابة لم تتم. . . أو لعلها تمت!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنا والسيناتور.. في تايلاند

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حطت بنا الطائرة في مطار بانجكوك قادمة من سنغافورة التي كانت محطتنا الرئيسية في هذه السفرة وذلك لحضور اجتماع لا معنى له .

بعد انتهاء أعمال المؤتمر تظاهر أفراد معظم الوفود بالتعب والإرهاق من الجهد الذي بذلوه في حضور الاجتماعات وتنسيق اللجان، وأعربوا عن رغبتهم في القيام برحلة ترفيهية في واحدة من بلدان جنوب شرق آسيا .

اتفقنا ـ زميلي وأنا ـ أسوة بالآخرين أن نتظاهر بالتعب والرغبة في الاستجمام والاسترخاء . لهذا فقد قررنا الذهاب إلى بانجكوك من أجل الشراء والتبضع والاستفادة من رخص الأسعار مقارنة بسنغافورة .

لم تكن هذه هي زيارتي الأولى للمدينة، فقد حللت بها عدة مرات من قبل وكنت خبيراً بدروبها وأسواقها، لهذا فقد وثق بي رفيقي وقرر أن يتخذني هاديًا ودليلاً .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من الواضح أن تغييراً كبيراً قد طرأ على البلد يمكن أن تلمسه ما إن تطأ قدمك صالة المطار . . النظافة التي كانت مفتقدة صارت ملمحًا واضحًا ، كذلك النظام تطورت مظاهره بشكل ملحوظ .

الذي لم يتغير هو الابتسامة التي يلقونك بها في كل مكان . . لا أدري لماذا قارنت بين الابتسامة السنغافورية والابتسامة التايلاندية . . ما يجمع بين الاثنين هو الأدب الآسيوي الشهير ، لكنهم في سنغافورة يقدمونها بعد أن امتلأت نفوسهم بقدر كبير من الرضا والإحساس بالأمان نتيجة التحسن الكبير الذي طرأ على الاقتصاد واستيعاب السكان كلهم في سوق العمل وتحقيق معدلات نمو عالية ، أما في تايلاند فالابتسامة هي مقدمة لعقد صفقة . . إما صفقة بيع ملابس أو أي منتجات أخرى ، أو صفقة تأجير امرأة ! .

ما إن تخرج من المطار وتطأ قدماك أرض الشارع بجوار موقف التاكسي حتى يقفز إليك شخص تسبقه ابتسامته يمد يده داخل جيبه ويستخرج الكتالوج .

لا أحد تقريبًا يخلو جيبه من الكتالوج أيًا كانت وظيفته الأصلية . . يقترب منك في أدب ثم يسألك : ليدي سير؟ هل تريد ليدي؟ ثم يبدأ في إطلاعك على ما يحمله من صور .

أغرب ما في الموضوع أنهم يسمّون المومس ليدي ! ! .

تشكره وتركب التاكسي فيفاجئك السائق ويخرج كتالوجه الخاص ، ثم يغمز لك بعينه ويناولك الصور . . هذه تايلاندية وهذه هندية ، لدينا فرنسيات وأميريكيات وأفريقيات ، كذلك عربيات وإيرانيات وأتراك ، وإذا أردت سويدية نحضرها لك .

لم يكن المشهد السابق يثير دهشتي حيث طالعته كثيراً في زياراتي السابقة . لكن الذي أصيب بالدهشة ، بل قل بالذهول هو رفيقي في الرحلة سيادة السيناتور .

والسيناتور هو اللقب الذي كنت أناديه به لأنه كان عضواً بالمجلس عن بلدته في أكثر من دورة سابقة قبل أن يفقد الكرسي ويعود موظفًا من جديد .

ظل السيناتور فاغراً فاه منذ ركبنا التاكسي ، وقد أخذ جولة مستفيضة داخل الكتالوج تفرج فيها بإمعان على السيقان والأذرع والنهود العارية . شعرت بقلبه يدق وأنفاسه تتهدج ثم قال لي وهو يقطب جبينه ويناولني الكتالوج : أعوذ بالله من غضب الله ! .

نظرت إليه فرأيت عينيه تلمعان ! . قلت له : إوعى يا سيناتور تفكر في التجربة . . هؤلاء مومسات محترفات ولا يأتي من ورائهن إلا الخراب والمرض .

قال في ثقة : لا تقلق يا صاحبي . . أنا لست صغيراً ، وأضاف : إنني فقط آخذ فكرة من باب العلم بالشيء .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصلنا إلى الفندق في قلب العاصمة، وقد اخترناه صغيراً ونظيفًا.

استقبلنا صاحبه بابتسامة ودودة وكان يرتدي عمامة السيخ التي توضح أصله الهندي وقدم لنا مشروب الضيافة. وقفنا نتحدث معه وكانت تجاوره زوجته وطفله الصغير.. قدم لنا نصائحه بخصوص الأماكن التي يتعين زيارتها وعرض علينا رحلة إلى شاطئ باتايا الشهير، ولم ينس أن يمنحنا الكتالوج الخاص به ويحوي صور الفتيات في نطاق منطقة نفوذه وقال لنا إن الأجر يتم دفعه بالساعة، وفي الإمكان عمل تخفيض جيد في حالة المبيت ليلة كاملة، ثم قدم العرض الكبير بتخفيض ضخم في حالة بقاء الفتاة مع الضيف طوال مدة الإقامة.

شكرناه على نصائحه وعروضه وهممنا بالصعود فاستوقفنا قائلاً: إذا كان لكم أي طلبات خاصة فإن في الإمكان تدبيرها بسرعة مع نسبة خصم خاصة بالضيوف الأعزاء.

سألته في دهشة: طلبات خاصة بأي معنى؟. قال وابتسامته تتسع: كأن تحتاج إلى فتاتين أو أكثر معًا أو تحتاج إلى فتاة من جنسية نادرة.. أي شيء يخطر على بالكما لا تترددا في طلبه، ثم مال علينا هامسًا: أنتما الآن في تايلاند ولستما في مصر.. يعني بإمكانكما إطلاق كل الرغبات مهما جمحت دون خشية من أي شيء.

لاحظ الرجل جحوظ عيني السيناتور الذي كان يرقب الحديث الإيروتيكي ويفهم بعضًا منه.

قال لي رجل السيخ وهو ينظر إلى زميلي الذي كان طويلاً عريضًا: يبدو أن صديقك هذا رجل شديد الفتوة ويحتاج إلى نصف دستة من النساء في الليلة الواحدة!.

قلت له حتى أنهي الموضوع ولا يصدعنا به مرة أخرى: صديقي ليس له في صنف النساء بتاتًا، ففوجئت به يرد في سرعة كمن يجد الحلول لكل المشاكل: ليست هناك مشكلة.. يمكنني أن أحضر له رجلاً!.

ما كدت أسمع عرضه الأخير حتى غرقت في الضحك فعاجلني السيناتور في لهفة: ماذا قال.. ماذا قال؟.

أجبته وأنا لا أزال أضحك: إنه يريد أن يحضر لك رجلاً يؤنس وحدتك.

كان السيناتور فلاحًا ابن فلاح لذلك فقد استشاط غضبًا وهم بأن يفتك بالرجل لولا أن وقفت بينهما وأنا أشرح له أن الرجل يريد أن يخدم ولا يقصد الإساءة.

بعدها أخذت صديقي وصعدنا وهو لا يزال يسب الرجل ويلعن قلة تربيته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دخلت غرفتي وفتحت الشنطة ثم بدأت أستعد لآخذ حمّامًا قبل النوم عندما فوجئت بالسيناتور يطرق الباب بشدة.

فتحت له فاندفع للداخل وهو ممتقع الوجه كأنه قابل عفريتًا لتوه وقال في ذهول: غير ممكن، غير معقول.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا.

قلت له: لقد أفزعتني.. ما الحكاية يا عم السيناتور؟.

قال: هذا الرجل صاحب الفندق.

قلت له: ما له؟.

صاح: الرجل الشايب العايب ذو اللحية والعمامة.. هل رأيت آخر مباذله ومخازيه؟.

قلت: هل عرض عليك كتالوج الرجال لتنتقي من بينهم؟.

قال: بعد أن دخلت غرفتي سمعت طرقات.. فتحت الباب فوجدته وفوجئت به يعتذر عن سوء الفهم ويرجو مني أن أسامحه.

قلت له: سامحتك يا سيدي.. شيء آخر؟.

وهنا قدم لي عرضًا ذكر أنه لا يقدمه لأحد، وأخبرني أن وجهي الطيب وأخلاقي الدمثة هي ما شجعه على أن يعرض على زوجته وهو واثق أنها ستكون في أمان معي.. مع أنه لا يفعل هذا أبدًا!.

وجدت نفسي أضحك بشدة وأنا أقول له: لا تنكر يا عم السيناتور أنها هندية حلوة ذات حُسن ودلال وضفائر طويلة وعينان واسعتان كحيلتان، فرد غاضبًا: يا سلام!.. ما رأيك إذًا أن تفوز بها ما دامت تروقك؟.

قلت له: أولاً أنا لا أتعامل مع المحترفات على الإطلاق، ثانيًا زوجها لم يخترني أنا لكن اختارك أنت ولا شك أنه يعرف ما ينفع امرأته!.

صاح منفعلاً: هل تريد أن تدفعني للجنون.. أي بلد هذا الذي جئت بنا إليه؟.

قلت أهدئ من انفعاله: رويدك يا سيناتور.. هون على نفسك ولا تنفعل.. لقد صدمت مثلك عند زيارتي الأولى، لكني فهمت بعد ذلك أن الاختلاف الثقافي بيننا وبينهم هو الذي يجعلنا نجفل ونذعر من مثل هذه العروض الغريبة بينما هم يقدمونها بمنتهى الهدوء، بل ويندهشون من رد فعلنا. وأضفت: هم لا ينظرون إلى الجنس نظرتنا إليه وليس له عندهم الهالة التي نحيطه بها، فضلاً عن أن الديانات التي يدينون بها لا تحرم الممارسات الجنسية، غير أن العامل الأساسي في انتشار الدعارة هنا هو الفقر المدقع وانتشار الفساد، كذلك تشجيع الولايات المتحدة بلدانًا مثل تايلاند والفلبين على الدعارة الكثيفة من أجل الجنود الأمريكان الموجودين بالمنطقة، ومن المهم أيضًا لدولة كأمريكا تمنع الدعارة على أراضيها أن توفر لمواطنيها، خصوصًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأثرياء العواجيز، منتجعات آمنة بتكلفة معقولة فاختارت بلدان آسيا التابعة مسرحًا للمرح!.

قال السيناتور: أنا أعلم بحالة هذه البلاد ولديّ فكرة عن انتشار الدعارة بها، لكني لم أتصور أن يصل الأمر إلى هذا الحد.. أن يقدم لك الرجل زوجته.

قلت له: معك حق.. هو فعلاً أمر صادم لكن لا تنس أن النسوة العاملات في هذه التجارة لكل منهن زوج وأخ وأب.. وأحد هؤلاء في الغالب يكون هو الراعي الرسمي للفتاة ومدير أعمالها.

استمر يرغي ويزبد ويلعن الكفرة والمشركين فأخذته من يده وأوصلته حتى باب الغرفة وقلت وأنا أفتح له الباب: اذهب يا رجل إلى غرفتك ونم ولا تفكر في النساء، وغدًا نقوم بجولة في المدينة ونزور معالمها.

عاد السيناتور إلى غرفته بعد أن هدأت "الخضّة" فجريت إلى الحمام وأخذت دشًا منعشًا ثم استسلمت للنوم.

في الصباح الباكر استيقظت على جرس تليفون منه. قال لي: لم أنم ولا دقيقة واحدة.. ظللت أحملق في السقف حتى طلع النهار.. هيا نخرج.

قلت معترضًا: ما زال الوقت مبكرًا وأريد أن أكمل نومي.

قال لي: لا أريدك أن تتركني وحدي لأن الأفكار السيئة تغزو رأسي، تعال ننزل نفطر ونتفرج على المدينة.

انتزعت نفسي من السرير انتزاعًا وغيرت ملابسي ثم خرجنا من الفندق وعرجنا على شارع "سوكومفيت" الرئيسي بوسط المدينة.

لاحظت أن المدينة قد أصبحت أكثر حداثة وأكثر نظافة من ذي قبل، وكنت في زياراتي السابقة أعاني وأفزع من الصراصير الطائرة التي كانت تحط على الرؤوس دون إنذار!. اختفى هذا المنظر ومن الواضح أن طفرة صحية وإنشائية قد تركت بصمتها على المكان. الشيء الذي لم يختف هو رائحة الطعام المنتشرة بقوة من خلال آلاف المطاعم التي تقدم الأسماك وغيرها.. هذه الرائحة ما زلت أذكرها وهي تملأ الجو وتعبئه بالزفارة وتثير لديّ إحساسًا بالغثيان.

لا أدري لماذا لم أشعر بالتآلف مع الطعام في هذه المدينة أبدًا.. ربما بسبب روائح الزيوت والدهون وأساليب الطهو التي لم أعتدها.

لاحظت أن صاحبي يتطلع مدهوشًا إلى كل ما يراه، وأشار بإعجاب إلى عربات اليد الخشبية التي تقف على الناصية تقدم الطعام وكانت تشبه عربات الفول عندنا في مصر.. الفرق أنها تقدم هنا الأرز والسمك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اقترب صديقي السيناتور من إحدى العربات ودعاني لتناول الإفطار وأصر على أن يكون على حسابه .

كانت هناك مجموعة من القدور تغلي على النار ، وكل قدر به سائل ملوّن يغطس فيه كل طرح البحر من محار وأسماك صغيرة وكائنات تشبه الدود . وكانت العربة تعرض أسماكًا مقلية مقطوعة الرؤوس ومعلقة على حبل يحيط بالعربة من الجوانب الأربعة ، وكانت الأسماك على الحبل ممسوكة من أذيالها بمشابك الغسيل ! هذا إلى جانب قدر كبيرة الحجم تمتلئ بالأرز المطهو على البخار .

من الواضح أن هذه العربات توفر للشعب إفطارًا رخيصًا ، وكل الناس تقريبًا يقومون بعمل " اصطباحة " أرز وسمك قبل الذهاب لأشغالهم .

تناول صاحبي طبق أرز مع مغرفتين من السوائل العاجة بالبحريات الصغيرة التي لا نعرفها ، وأخذ يأكل في شهية غريبة . أما أنا فقد اكتفيت بقطعة خبز قمت بتسقيتها في كوب شاي .

من أعجب الأشياء التي شاهدناها قيام الرجل النشيط صاحب عربة السمك بإخراج كيس من أحد الأدراج وكان ممتلئًا بالجراد ، ثم فتح الكيس وأسقط حمولته في الزيت المغلي وأخذ يخرجه بعد التحمير ويملأ به أكياس بلاستيك ثم يقوم بتدبيسها وبيعها للتلامذة الصغار كأنها أكياس شيبسي ! .

بعد الإفطار أخذنا توك توك وطلبنا منه توصيلنا إلى سوق " باتونام " الشهير . . كان هذا قبل سنوات عديدة من دخول هذه المركبة إلى مصر ، وكان السيناتور مبهورًا وهو يخرج رأسه ويطل على الشوارع يعبرها التوك توك في خفة . والحقيقة أن هذا النوع من العربات يناسب العاصمة التايلندية تمامًا بعد أن اختنقت وأصبح المرور بها بطيئًا ، والوقوف في بعض الإشارات يستغرق أحيانًا عشر دقائق ، لكن الفرق بين بانجكوك وبين القاهرة رغم ازدحام كل منهما الشديد هو أن العدالة واضحة في بانجكوك ، ومظهر العدالة هو إشارة المرور التي يحترمها الجميع ، فلا يفتئت أحد على حق أحد ، ولا تكون أولوية العبور للأكثر وقاحة وتهورًا ونفوذًا كالحال في قاهرة المعز ! .

وصلنا إلى السوق الذي يحتل بمحاله وفرشاته الشارع على الجانبين . . كل البضائع التي تخطر على البال معروضة . . ملابس ، مجوهرات حقائب ، تحف ، لوحات السيرما اليدوية البديعة . كل الماركات العالمية حاضرة بأسعار رخيصة للغاية والسبب أنهم يقومون ب " ضرب " الماركات وتقليدها في مصانع تنتشر في كل مكان وتعتمد على عمالة كثيفة بشكل يشبه السخرة ، فتقل تكلفة الإنتاج ويصبح في الإمكان طرحها بسعر رخيص .

والفصال أو المساومة هو القانون الطبيعي في السوق ، وقد تعلمت أن البائع عندما يقول هذه السلعة ثمنها مائة " بات " أقول له سآخذها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعشرة! . في البداية كنت أجد حرجًا من التخفيض الرهيب في ثمن الساعة لكني أدركت أن هذا الخجل يجعلني فريسة للبائع فلم أعد آبه لرد فعله ولم يعد يغير من موقفي احتقان وجه البائع بالغضب وحديثه إلى السماء وصراخه العالي أو استنجاده بالآلهة وترديده لكلمات مثل إنكم تخربون بيتي . . كل هذا الفيلم هو جزء من عملية البيع وفي النهاية يقبل بالمبلغ المعروض وهو كسبان! .

اشتريت ملابس لأطفالي واشتريت بعض المشغولات اليدوية والتحف، ولاحظت أن السيناتور يحذو حذوي في كل شيء، ويشتري مثل ما أشتريه تمامًا فأبديت دهشتي وسألت: أنت ليس لديك أطفال صغار ومع هذا تشتري مثلي . . ما السبب؟ فقال: أنا أثق في ذوقك وسأهدي هذه الأشياء لأطفال العائلة، فقلت له: يا عم السيناتور يمكنني أن أساعدك إذا أردت شراء أشياء أخرى. قال: لا عليك . . اتركني على راحتي! . أحسست أنه رجل طيب بسيط وأنه يثق بي ويسلمني زمام أمره فأحببته ولم أتركه وحده. وكانت هذه السفرة هي أول معرفتي به حيث كان كل منا ممثلاً للجهة التي أوفدته .

عدنا إلى الفندق وذهبنا إلى مطعم أفغاني مجاور يقدم كبابًا وكفتة بعيدًا عن الأكل الذي كاد يخرج معدتي من مكانها .

في المساء ذهبنا إلى ملهى ليلي عثرنا عليه يقدم الرقص الشرقي بواسطة راقصات عربيات، كما استمعنا إلى أغاني أحمد عدوية بصوت مطرب فرز رابع يعيش ويرتزق من الغناء في تايلاند للسياح العرب .

في آخر الليل ونحن في طريقنا للعودة لمحت صديقي السيناتور يتطلع إلى واجهات المحلات في شغف . قلت له: هل تبحث عن شيء؟ قال: أوصاني أصدقائي قبل السفر بضرورة أخذ حمام تركي وضرورة عمل مساج سلطاني وإلا اعتبرت الزيارة كأن لم تكن .

قلت له: يعني أنت تخشى أن يفوتك ثواب الزيارة إن لم تقم بعمل حمام ومساج؟ .

قال: الله ينور عليك .

قلت له: بسيطة يا عم السيناتور، أنت تقف بالمصادفة الآن تمامًا أمام محل لهذا الغرض . دخلنا إلى المحل الكبير فخف لاستقبالنا أحد الموظفين . . طلباتكم؟ قال السيناتور: مساج، نريد مساج . دخل بنا الرجل إلى صالة فسيحة، وأضاء النور فوجدنا عددًا كبيرًا من الفتيات ينهضن واقفات، وكنّ جلوسًا قبل أن ندخل.

قال لنا الرجل: ليختر كل منكما الفتاة التي يريدها أن تحممه وتعمل له المساج .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت للسيناتور: اختر يا إكسلانس على راحتك، أما أنا فسأنتظرك في الكافيتريا لأني لا أريد مساجًا أو حمامًا.

قال: هل تريدني أن أشعر بالحرج لأنني وحدي الذي يقبل على المساج وأنت ستعيش في دور الرجل الفاضل الذي يطاوع الشاب الطائش ويتحمل نزقه؟.

قلت له: يا عمنا أنا لا أعيش أي أدوار.. لقد جربت هذا من قبل ولم يعجبني فلماذا تريدني أن أنفق فلوسي في شيء لا أحبه؟ قال: سأدعوك على حسابي. قلت: ولماذا أنفق فلوسك في شيء لا أحبه؟.

لم يجد مني فائدة فقال مستسلمًا: كما تشاء لكن على الأقل ساعدني في الاختيار. قلت له: خذ العصفورة الصغيرة التي تجاور الباب فأشاح بيده مستنكرًا سوء اختياري.

همست في أذنه: قبل أن أتركك رجاء من أجل خاطري.. مساج فقط يا صاحبي.. فاهم؟ إياك أن تتورط في أكثر من هذا. قال: طبعًا طبعًا.. وهل ظننتني عيلاً صغيرًا؟.

أخذ يتطلع إلى الفتيات، وكلما أشرت له إلى واحدة رفضها في تأفف. تركته ومضيت إلى الكافيتريا وجلست أشرب شاي. بعد قليل مر بي وفي يده امرأة ضخمة تشبه الملاكم الأمريكي "مايك تايسون". قلت له مدهوشًا وأنا أضحك: مش تشيل على قدك يا سيناتور!.

اختفى السيناتور ومعه الوحش الآسيوي وغاب في الداخل.

بعد مضي ساعة انتابني القلق فسألت عنه مدير المكان. أخبرني أن صديقي سعيد للغاية ولا يتعجل الخروج. سألته: ومن أدراك؟. قال: نحن نتفقد زبائننا لنرى إن كان ينقصهم شيء!.

كنت متعبًا وأريد أن أرجع للفندق لأنام، لكني خشيت أن أتركه فلا يعرف كيف يعود وحده.

عرفت من هذا الرجل الطيب الذي له كرم وشهامة أهل الريف أنه لم يسبق له أن غادر مصر من قبل إلا من أجل رحلات الحج والعمرة. اختاروه في الحزب للانتخابات حتى يحصلوا منه على تمويل كبير وزوروا الانتخابات من أجله، وفي الدورة التالية رفض أن يدفع، فتخلوا عنه، فعاد للوظيفة ومعه لقب نائب سابق.

خرج أخيرًا بعد ثلاث ساعات وكان منتشيًا للغاية يكاد يرقص من السعادة وطول الطريق كان يغني بصوت عال.. بدأ بأغنية "أمانة عليك يا ليل طول" وعندما وصلنا للفندق كان يختم بأغنية "يادي النعيم اللي أنت فيه يا قلبي"!.

في اليوم التالي لم يطلبني ليوقظني في الصباح الباكر وإنما أنا الذي صحوت قبله وأخذت وقتًا أحاول أن أستحثه على الاستيقاظ.

أخذته في زيارة إلى أحد المعابد البوذية القديمة. أتى معي وهو متضرر.. كان يريد أن يصحو من النوم فيعود إلى محل المساج من جديد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كنت حازمًا معه ونهرته بشدة لأني لاحظت أنه منذ خرج من محل المساج لم يعد نفس الرجل المتزن وخشيت عليه من نفسه. قضى اليوم معي عابسًا ولم يتكلم طوال اليوم.

عدنا إلى الفندق آخر النهار ورأيت أن أتمدد في السرير قليلاً قبل أن ننزل لنتعشى، لكنه غافلني في المساء ونزل وحده دون أن يخبرني. كان القلق ينهشني عليه خصوصًا وأن ميعاد إقلاع طائرتنا إلى القاهرة لم يبق عليه سوى بضع ساعات.. وعاد قرب الفجر.

في الصباح كنت قد حزمت حقائبي استعدادًا لرحلة العودة. ذهبت إليه وكان لا يزال نائمًا. فتح لي الباب وعاد للنوم. قلت أستحثه: يا سيناتور الطائرة ستفوتك، هيا استيقظ. ففتح نصف عين وقال: لن أسافر معك اليوم، لقد قررت أن أمضي أسبوعًا آخر هنا.. سأذهب إلى شاطئ "باتايا" وقد قاموا بعمل الحجز لي.

قلت له: من هم الذين قاموا؟.

قال: صديقتي التايلاندية في محل المساج.

قلت له: مايك تايسون؟.

قال: نعم، ثم أردف كأنما يتعجل مفارقتي: أشوف وشك بخير، وقام فمنحني حضنًا ميكانيكيًا سريعًا وعاد للنوم.

عدت لمصر ولم يفارقني القلق عليه.

بعد أسبوع اتصلت به فقالوا لم يعد بعد. وكنت أعاود الاتصال كل يومين فأتلقى نفس الرد.

بعد شهر علمت أنه عاد فاتصلت به وأنا شغوف إلى معرفة أخباره لكنه لم يتحدث كثيراً. قال إنه بخير، لكن صوته لم يكن ينبئ بهذا. طلبت منه أن يخبرني بما حدث في رحلته بعد أن تركته، فلم يشأ أن يتحدث في الأمر.

لم تمض أسابيع حتى قرأت نعيه في الصحف فبكيته.. وما زلت حتى الآن أجهل سر الشهر الذي قضاه في تايلاند بعد افتراقي عنه.. رحمه الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرنسا.. وعنب فرنسا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(1)

كانت الجلسة اليومية تنعقد بعد الغروب على قهوة قشتمر بالظاهر بين مجموعة الأصدقاء الذين يعتزمون السفر للخارج بعدما انتهى العام الدراسي الجامعي .

ليسوا جميعًا في كلية واحدة، لكنهم ينتمون لخليط من الكليات والمعاهد . تجمعهم صداقة عمر ورفقة المدرسة الثانوية والحلم المشترك بعبور المتوسط وتنسم ريح الشمال في أوروبا.

كان أصدقاؤهم الأكبر سنًا قد ملأوا خيالهم بالأحلام العظيمة عن أوروبا الجميلة التي تتوق للمصري الذي يؤكل حافـًا من حلاوته! . وسرت بينهم جميعًا نغمة لم يعرف أحد من الذي أطلقها عن قصص النجاح التي تحققت لمصريين كانوا جميعًا يشبهونهم، ولم تخرج قصة كل منهم عن حدوتة المصري الذي ذهب لمزرعة العنب بفرنسا فوقعت في هواه ابنة صاحب المزرعة فتزوجها وصار هو السيد الآمر الناهي في المزرعة وأصبح من أعيان فرنسا، أو عن الآخر الذي عمل بأحد المطاعم في لندن فصرع بوسامته الشرقية ابنة صاحب المطعم وفرض

على أبيها تزويجه ابنته ووريثته الوحيدة، وسرعان ما توفي الأب وترك لصاحبنا المطعم الشهير بميدان بيكاديللي! أو عن الثالث الذي ذهب يبيع الجرائد بالنمسا فاستلطفته وتعلقت به زوجة الباترون النمساوي الذي يرأسه في العمل وتركت زوجها من أجله وفتحت له مشروعًا صغيرًا في فيينا.

لعبت هذه القصص بمخيلتهم وصاروا يعتقدون أن الحصول على الفيزا فقط هو ما يفصلهم عن تحقيق أحلام الحب والمغامرة والثراء الفاحش في أوروبا، فانطلق كل منهم إلى إحدى السفارات ومعه جواز سفره الصالح لمدة ستة شهور فقط . بعضهم عاد مظفرًا ومعه تأشيرته والبعض أخفق في الحصول عليها فأجل حلمه للعام القادم.

من حسن حظه أنه كان من المحظوظين الذين ذهبوا للقنصلية الفرنسية الكائنة بحارة صغيرة خلف شارع الشواربي، ومن خلال شباك يطل على الرصيف قدم لهم الجواز مع الطلب الذي قام بملئه، ومن عجب أنهم منحوه الفيزا السياحية لمدة أسبوع رغم أنه لم يكن يمتلك سوى ورقة مالية بمائة دولار كلفته 69 جنيهًا بأسعار أواخر السبعينيات أخذهم من والده بعدما وعده بإحضار المروحة والكاسيت وهو عائد متوج بأكاليل الغار من باريس.

ركب الطائرة للمرة الأولى في حياته، وأثناء الرحلة تعرف على شاب مصري اسمه إميل كان في الطريق إلى باريس ومعه خطيبته

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفرنسية "سيلفي" التي حضرت لزيارته بالقاهرة والتي يعتزم الزواج منها بعد بضعة أيام في باريس. قام بتبادل السجائر والحكي مع إميل فنشأ بينهما شعور بالألفة والمودة وأخبره بأنه يسافر للمرة الأولى ولا يعرف أحدًا بفرنسا، بل لا يعرف حتى إلى أين يذهب بعد أن يخرج من المطار.

قبل هبوط الطائرة كانا قد أصبحا وكأنهما صديقين منذ زمن حتى إن إميل صارحه بأنه غير متحمس تمامًا للزواج من سيلفي لكنها لن تتركه يفر منها!

بعد أن أخذ حقيبته من على سير الأمتعة خرج إلى الرصيف خارج مطار أورلي يتلفت حوله فلمح أوتوبيسًا مكتوب عليه: "عندما تكون في باريس افعل كما يفعل الباريسيون" فامتلأ بالحماسة والإثارة وحدّث نفسه بأنه غدًا سيعرف ما يفعل الباريسيون ولسوف يفعل بالتأكيد مثلهم.

عندما همّ بركوب الأوتوبيس فوجئ بإميل ينادي عليه ويخبره بأن سيلفي قد وافقت على أن يبيت الليلة معهما ببيتها، على أن يغادر في الصباح ويشق طريقه في باريس بمعرفته.

كرها كثيرًا وركب معهما تاكسيًا حملهم إلى ضاحية "لا ديفانس". كان يتطلع من الشباك والتاكسي يقطع الطرقات ويعبر الكباري وينزل إلى الأنفاق، وأدهشه الإحساس الذي يعرفه الناس جميعًا عندما يمرون

بموقف يبدو لهم أنه قد حدث من قبل وأن هذه ليست المرة الأولى التي يعيشون فيها ويرون ما يرونه. شعر أن ركوب السيارة بصحبة هذين الشخصين والشوارع التي تقطعها والمناظر التي يراها. شعر أن هذا كله قد عاشه من قبل وأن هذا المشهد قد سبق له رؤيته، ولكن كيف وهذه هي أول زيارة له إلى فرنسا؟ لا شك أن هذا قد حدث في حياة سابقة.!

عند وصول التاكسي حاول أن يشارك في الأجرة إلا أن إميل رفض رفضًا قاطعًا.

اليوم وبعد مرور ما يقرب من ثلاثين سنة على تلك الأيام كثيرًا ما سأل نفسه: هل ما زال هناك شاب مثل إميل موجود في مصر يمكن أن ينفتح قلبه لشاب مصري ليس مسيحيًا مثله وأن يبدد وحشته ويستضيفه ليبيت معه دون أي مصلحة؟. هل ما زالت هذه الأشياء موجودة؟.

كانت "سيلفي" تسكن بالطابق العشرين بإحدى ناطحات السحاب التي كانت شيئًا جديدًا أخذ يتمدد في الضواحي بعيدًا عن قلب باريس الذي لم يتغير بمبانيه الأثرية الجميلة.

قضى الليلة على أريكة بالصالة وفي الصباح نزل إلى الشارع يسبق إميل الذي أصر على ألا يتركه قبل أن يطمئن عليه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سار قليلاً في الشارع أسفل المنزل ولاحظ أن سائقي السيارات يصرخون وهم يعبرون بجواره في سرعة كبيرة وأشار له أحدهم بيده بعلامة تدل على الجنون. سرعان ما أدرك السبب عندما وجد نفسه بحكم التعود يسير في نهر الشارع وليس على الرصيف، وخشي أن عادة القاهريين بالسير مع السيارات في الشارع قد تقصف عمره في باريس! . سأله إميل إن كان هناك أي أحد يعرفه ولو من بعيد يمكن الذهاب إليه، فكر قليلاً ثم أخبره بأن معه عنوانًا لأحد جيرانه من سكان نفس شارعه بالظاهر وإن كان ليس صديقًا له. قال إميل: لا يهم. مؤكد سيتعرف على شكلك ولن يمانع في مساعدتك. قصدا إلى العنوان بشارع "راسباي" عند تقاطعه مع "مونتبارناس" وصعدا إلى الطابق الأخير. طرقا الباب وعندما انفتح بدت مجموعة مألوفة من الوجوه كلهم من الظاهر. تعرفوا عليه فوراً فرحبوا به وشكروا إميل على صنيعه ودعوه إلى كوب من الشاي شربه ثم ودع صاحبنا وانصرف.

كانت الغرفة هي سكن عاطف الذي دأب منذ سنوات على القدوم لباريس والعمل في أحد المطاعم ثم العودة للجامعة مع حفظ مكانه بالمطعم للصيف التالي. تمنى من قلبه لو استطاع أن يحصل على غرفة مماثلة حتى لو كان حمامها مشتركًا لخدمة سكان الطابق كله مثل هذه!

أخذه عاطف من يده وحمل عنه الحقيبة وتلا على مسامعه مجموعة من الدروس عن باريس. قال: أنا لا أريد أن أحبطك، ولكنك جئت إلى باريس وهي في أسوأ أحوالها، البطالة متفشية، والعمالة من أوروبا الشرقية تتمنى أي فرصة عمل وهم أفضل منا بكل المقاييس، فكل منهم يتقن حرفة ولديهم دأب وقدرة على العمل الشاق على العكس منا نحن الذين لا نعرف سوى الأونطة والفهلوة! وأضاف عاطف إن الطلبة المصريين ملأوا باريس وأصبحوا يفترشون محطات القطارات الرئيسية سواء "جار دي نور" أو "جار دي ليون" أو "جار دي ليست" والبوليس يقوم بجمعهم من الشوارع والحدائق ويشحنهم على الطائرات إلى القاهرة.

لم ينس عاطف أن يزوده ببعض النصائح المستمدة من خبرته بالبلد وأوصاه عندما يسمع صيحة "عباس" في الشارع أن يهرب فوراً ويروغ من الموقع حيث إن عباس هو الاسم الحركي الذي اخترعه المصريون للبوليس في أوروبا! ليس البوليس فقط وإنما المفتش في المترو والأوتوبيس هو أيضًا عباس! . أدهشه موضوع عباس هذا فسأل عاطف في براءة: ولماذا أهرب من هذا العباس إذا كنت لم أرتكب أي مخالفة؟ . رد عاطف: لا تتعجل سترتكب مخالفات أقلها كسر الفيزا، وأضاف: أهم شيء الآن هو السكن والاستقرار ثم يأتي بعد ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البحث عن عمل، وأنا الآن سآخذك لأحد الفنادق حتى تضع حقيبتك وتستقر، ثم ليعنك الله على باريس.

قطعا المسافة سيراً على الأقدام ودخلا إلى شارع سان ميشيل ثم انعطفا يميناً حيث توقف عاطف أمام بناية في غاية الفخامة والعراقة تحمل اسم: فندق الرجال العظماء. خطا عاطف إلى الفندق وتبعه إلى الداخل ولاحظ أن عاطف لم يتوقف عند موظف الاستقبال وصعد السلم مباشرة. صعد خلفه فهبّت على أنفه روائح كريهة تجتاح السلم ميز من بينها رائحة بول فائحة. كان السلم مظلماً فسار على خطى عاطف حتى وصل الأخير إلى أحد الأبواب وطرقه عدة طرقات. وقف هو إلى جانب السلم ينتظر. انفتح الباب وخرجت من الحجرة المضيئة سحابة كثيفة من دخان السجائر المحبوس ملأت الردهة. قال عاطف: سلامو عليكو يا رجالة. جاءت الأصوات من الداخل محيية ومرحبة. عاطف: عندكم مكان يا رجالة؟ علت أصوات متداخلة من الغرفة: زبون طازة.. هاته يا سيدي زي بعضه!. عندما سمع كلمة هاته وشاهد الدخان المحبوس شعر بعدم ارتياح. لكن عاطف تجاهل امتعاضه وسلّم عليه مبرئًا ذمته منه وسأله قبل أن يختفي: أي خدمة أخرى؟. شكره على كل شيء وخطا إلى الداخل فوجد نفسه في غرفة صغيرة بها سرير لفرد واحد يجلس عليه مجموعة من الشباب يلعبون كوتشينة، ومجموعة أخرى تفترش البلاط.

أخذ يحصي سكان الغرفة فوجدهم 12 فرداً، ولاحظ أنهم متآلفون مع المكان ولا يشعرون بالرائحة الكريهة التي تعبئه. سألوه في تحفز: ما الذي أتي بك إلى فرنسا؟ ألا تصل إليكم أخبار البطالة وترحيل المصريين كل يوم؟ لم يعرف ماذا يجيب وانزوى في ركن من الغرفة وهو ذاهل تماماً ولا يصدق ما تراه عينيه. إن منظر الفندق الفخيم من الخارج لا يوحي على الإطلاق بكل هذه القذارة وكل هذا العفن، ولم يتصور في أسوأ كوابيسه أن تكون إقامته بباريس بمكان كهذا، بل لم يتصور أصلاً أن يوجد بفرنسا مكان كهذا.

عرف أن صاحبة الفندق اللبنانية تؤجر الغرفة لفرد واحد ولا تبالي بكم يسكنها، ولقد تركت المكان يتحول إلى زريبة قذرة فلا تقوم بإصلاح دورات المياه وتترك النزلاء يقضون حاجتهم كل حسب اجتهاده وفي المكان الذي يروق له!. شعر بغثيان شديد وخشي أن يتقيأ فيصيب الإخوة الملتصقين والمحيطين به من كل جانب. أنقذه أحد الرفاق بالغرفة واسمه حمزة قائلاً: ما رأيك أن نخرج لأفرجك على باريس ولنذهب مثلاً إلى برج إيفل؟ فقال على الفور: نعم نعم نخرج. ترك حقيبته وانطلق مع حمزة إلى محطة المترو. همّ بقطع تذكرة من الشباك فأمسك به حمزة قائلاً: ماذا تفعل يا مجنون؟ لو عوّدت نفسك على شراء التذاكر فستفرغ ملاليمك بعد أيام قلائل. افعل مثلي، وأعقب كلامه بقفزة من فوق الحديدة فأصبح في الداخل. حذا حذوه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الفور وقفز فأصبح على الرصيف، لكنه شعر بقشعريرة من الخجل نتيجة نظرات القرف والاستنكار التي حدجه بها الركاب الذين شاهدوا فعلتهما النكراء. لاحظ حمزة ارتباكه فطلب منه أن يتسلح بالنطاعة ولا يبالي بنظرات الآخرين، ثم ركبا المترو إلى محطة "تروكاديرو". كان الجو جميلاً في تلك الليلة الصيفية من شهر يوليو، ولم يضايقه سوى حمزة الثرثار الذي حكى له قصصًا كثيرة لا تعنيه وغير مسلية بالمرة، وظل يطن في أذنيه وهما يجلسان تحت البرج الشهير ولا يكاد ينهي حدوتة حتى يدخل في واحدة جديدة حتى فاتهما آخر مترو وتعذر عليهما الرجوع للفندق.

للحق لم يشعر بأي خسارة، على العكس حمد الله أنه سيقضي الليلة في الهواء الطلق بعيداً عن الغرفة العفنة بالفندق الحقير. طلع النهار عليهما وما زال حمزة يثرثر، وكانت الحديقة تضم آخرين سهروا حتى الصباح يتسامرون.

مع أول مترو قفلا عائدين إلى "فندق الرجال العظماء" ودفعا باب الحجرة فارتطم ببعض الرؤوس التي كانت تستند إليه. أخذ يبحث عن أي بلاطة خالية، وتغلب التعب والإرهاق على الشعور بالغثيان فاستلقى بين الرؤوس والأقدام وغاب عن الوعي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(2)

استيقظ من نومه عند الظهيرة وكل عظامه تؤلمه من النوم على البلاط. فتح عينيه وأبصر الغرفة خالية إلا من شخص واحد يجلس على السرير ممدداً قدميه وكان يعتمر قبعة فوق رأسه مثل أبطال أفلام الويسترن.

سأله عن مكان الحمّام فأشار إلى أنه في آخر الردهة إلى اليسار. توجه حيث أشار جوني ووكر ذو القبعة وكلما اقترب أكثر أحس بالرائحة النتنة تخنقه، وعندما وصل إلى الحمام وجده بدون باب تملؤه القذارة والأوساخ ولم يستطع أن يفر قبل أن تتقلص أحشاؤه ويتقيأ ما في معدته. أسرع يعدو مبتعداً وهو يسب فرنسا ويلعن عاصمة النور التي أصابت خياله في مقتل!.

حمل حقيبته وهمّ بالخروج فاعترضه الجالس على السرير قرب الباب قائلاً: حساب الإقامة الملوكي بفندق الرجال العظماء عن الليلة الماضية يا إكسلانس. سأله: كم تريد؟ فأجاب وهو يخلع قبعته ويمدها للأمام: سبعة فرنكات. لم يكن في الحقيقة يعرف إذا كان هذا المبلغ قليلاً أم كثيراً لكنه وجد نفسه من باب الاحتياط يخرج فرنكين ويلقيهما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في القبعة ويغادر الغرفة . . وعلى السلم ظل يستمع إلى فاصل من السباب والوعيد أطلقه خلفه صاحب القبعة ولاحقه السباب حتى خرج إلى الشارع وبدأ يتنسم هواء نظيفًا.

عبر الشارع فوجد نفسه داخل حدائق لوكسمبرج الشهيرة. كان يشعر بحاجة ماسة إلى أن يأخذ حمامًا ساخنًا ولم يدر أين يذهب، لكنه اكتفى مؤقتًا بدخول دورة مياه نظيفة في الحديقة فاغتسل وجلس على دكة يفكر في الأيام القادمة التي لا شك ستكون صعبة، ثم غادر الحديقة وأخذ يتجول في المنطقة وتوقف عند فاترينة خارج أحد المحال تعرض سندوتشات الجبن والبيض الفرنسية الشهيرة في خبز الباجيت فاشترى واحدًا (في السنوات التالية وعند كل زيارة لفرنسا كان يلاحظ اختفاء الأكل الفرنسي وحلول الهامبورجر الأمريكي محله!) سار حتى وصل إلى كنيسة نوتردام الشهيرة وأخذ يسير بحذاء نهر السين وشاهد المراكب السياحية تحمل السياح الأمريكان واليابانيين تطوف بهم فوق صفحة النهر وتساءل هل يأتي عليه يوم يقوم فيه مثلهم بالفسحة والاستمتاع في فرنسا وإنفاق المال ببذخ، لا الحضور من أجل جمع ثمن الكتب والملابس للعام الجامعي.

ظل جالسًا على النهر حتى المساء ثم توجه إلى عاطف مرة ثانية بعد أن ضمن عودته من العمل لكي ينقذه من الغرفة القذرة التي ابتلاه بها في الليلة السابقة.

ضحك عاطف بشدة وهو يرى أمارات الانزعاج والغضب بادية في صوته وعلى محياه وهو يحكي عن قذارة الغرفة والحمّام والفندق كله.

قال عاطف: واضح أنك مش وش بهدلة. أجاب: بهدلة الشغل مقدور عليها، أما حياة الحيوانات فشيء آخر. كان عاطف يطهو دجاجة مع صينية بطاطس بالفرن وأصر أن يدعوه إلى الطعام فرحب بالدعوة. بعد الأكل قال لعاطف: ما أريده بشدة هو أن أستحم، فهل لديك حمّام؟ أجاب عاطف بالنفي وأضاف إنه يخرج كل ثلاثة أيام ومعه الفوطة والليفة والصابونة إلى حمام قريب بخمسة فرنكات حيث يستمتع بحمام ساخن عظيم.

بعد الشاي أخذه عاطف وقصدا فندق الرجال العظماء مرة أخرى. شعر والفندق يدنو بأن معدته تصعد إلى حلقه، ورجاه أن يذهب به إلى أي مكان آخر، فقال عاطف: الفنادق كثيرة يا صاحبي لكني أشفق على ميزانيتك العليلة من أسعارها. . عندما تجد عملاً فإن الظروف ستتغير تلقائيًا، وأنا شخصيًا عشت بهذا المكان لفترة قبل أن أستقر في سكني الحالي، وأؤكد لك أن الوضع بالفندق هذه المرة سيكون مختلفًا. استسلم في يأس وهو يدخل إلى غرفة بها ثلاثة أشخاص سلموا على عاطف في حرارة وجلسوا يتضاحكون. . من الواضح أن عاطف يعرف الكثيرين من نزلاء الفندق الوضيع! . لاحظ أن الغرفة مرتبة وسكانها منظمون يعلقون ملابسهم على شماعات ولديهم دولاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحفظون به أغراضهم والأهم أن رائحة الغرفة محايدة، ووضح له أنهم مصممون وهم يسكنون بهذا المكان البشع أن يحافظوا على الحد الأدنى من آدميتهم حيث رآهم مهندمين ولا يتسم مظهرهم بالقذارة مثل سكان الغرفة الأخرى. عرف أنهم أصدقاء يعملون معًا ولا يقبلون أن يسكن معهم غريب. بصعوبة شديدة قبلوا رجاءات عاطف بأن يقبلوه معهم لأيام قليلة حتى يدبر أموره وطمأنهم عاطف بأن القادم الجديد يختلف في السلوك والأخلاق عن سكان الغرف المجاورة الذين يعلو صراخهم وسبابهم في جوف الليل عندما يختلفون على أماكن النوم. شعر بارتياح إليهم وبعد انصراف عاطف كرر شكره ووعدهم بأنهم لن يشعروا بوجوده كما أنه سيدفع نصيبه في الإيجار مثلهم.

كان الثلاثة طلبة في كلية الطب جامعة القاهرة يأتون لفرنسا للعام الثالث على التوالي. أخبروه أنهم يعملون ليلاً في سوق للخضروات واللحوم يقع خارج باريس ويعودون في الصباح ويقضون النهار في النوم. أسعده خبر عملهم الليلي بشدة لأن السرير الصغير قد يكون خاليًا معظم الليالي، لكنه مع هذا سألهم إن كانوا يستطيعون أن يأخذوه ليعمل معهم بالسوق. رحّب خالد وهو زعيمهم فيما يبدو وطلب منه الاستعداد للنزول بعد قليل، بينما تشكك زميلاه في قدرته على احتمال العمل الشاق بالسوق نظرًا لحجمه الصغير نسبيًا. شعر بالفرحة لفرصة العمل التي اقترحوها رغم إحساسه بالأسف على فرصة النوم على السرير التي لاحت لثوان ثم ضاعت!.

كان السوق يقع خارج باريس بعد منطقة فرساي. وصلوا إليه عند منتصف الليل، وأخذه خالد من يده وعرفّه بالباترون الفرنسي الذي استخف به لصغر حجمه وسأله إن كان يستطيع أن يصمد للأحمال التي يتعين عليه نقلها؟ طمأنه خالد قائلاً: إنه على ضمانتي، وحصل على موافقته.

والحقيقة أن التجربة كانت في غاية المشقة والصعوبة. كل اثنين من العمال يتوليان أمر شاحنة فيقوم أحدهما بالصعود إلى داخلها ويبدأ في مناولة من يقف بالأسفل صناديق الفاكهة وأقفاص الخضار، فيقوم هذا برصها على الرصيف. استطاع أن يصمد لمدة ساعتين متصلتين للعمل الشاق، ولم تكن هناك دقيقة واحدة للراحة وشعر أنه حمل من الأقفاص والصناديق في هاتين الساعتين ما يزيد على ما حمله طوال التسعة عشر عامًا التي تشكل عمره كله. لكن الذي جعله يرفع الراية البيضاء ويوقن من الفشل في الاستمرار هو الشاحنة الأخرى التي كانت محمّلة بذبائح الأبقار والجاموس الضخمة. وجد نفسه يأخذ الفخذة على كتفه ثم يهوي بها إلى الأسفل من ثقلها. أسرع خالد إليه قبل أن يراه الباترون ورفعها عنه وظل يعاونه حتى مرت الليلة على خير. في الصباح ركب معهم الأوتوبيس وعاد إلى الغرفة منهكًا خائر القوى فارتمى على الأرض ونام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندما استيقظ هرع إلى الشارع يبحث عن مكان يستحم فيه ودلّه أولاد الحلال على حمّام بشارع سان ميشيل. كانت سعادته لا توصف عندما وقف تحت الدش ورأى الماء الساخن ينزل على جسده ويزيل إحساسه بالقذارة. خرج وهو يشعر بالرضا لأنه رغم صدمته في الفندق الوضيع المليء بالصراصير، كان محظوظًا فعثر على عمل من ثاني يوم وهو الأمر الذي لا يصادفه الطلبة المصريون عادة، وسكن بصحبة طلبة يشبهونه على عكس الغرفة الأولى التي حفلت بأصناف غير مريحة بالمرة، لكنه عقد العزم على أن ينتقل إلى سكن محترم بمجرد أن يأخذ أول قبضية ويبدأ في تذوق الفرنكات الفرنسية. لم يكدر إقامته مع طلبة الطب الثلاثة سوى أن أحدهم واسمه ياسين أيقظه من النوم أكثر من مرة وطلب منه النزول إلى الشارع وإخلاء الغرفة لأن صاحبته ستحضر بعد قليل.

كان ياسين دائم الحديث عن صاحبته، كثير التغني برقتها وحسنها بشكل تمنى معه أن تكون له هو أيضًا صاحبة مثلها. الغريب أنه بعد أن رأى صاحبة ياسين الدميمة شعر بالغضب ليس فقط لذوقه الرديء ولكن لأنه شخصيًا لم يكن ليوقظ رجلاً "شقيان" من نومه لأجل هذه!

من الأشياء التي يذكرها عن عمله بهذا السوق أنه التقى فيه بشخص كان ملء السمع والبصر في مصر بعد عدة سنوات هو أشرف

سعد صاحب الشركات الشهير الذي فتح المسؤولون له أحضانهم ونالوا عطاياه السخية من فلوس الناس واستمتعوا بكشوف البركة التي مكنتهم من مشاركته أموال الغلابة، ثم عصفوا به في نوبة غدر ليست مستغربة عليهم! . ومما يذكره أن أشرف كان في غاية الرجولة والشهامة، وقد حمل عنه أثقالاً من اللحوم وساعد في مد أجل وجوده في هذا العمل لأسبوعين آخرين.

لكن في النهاية كان لا بد أن ينكشف، فهو لم يخلق لهذا العمل الذي يحتاج لقوة جسمانية هائلة لا يملكها. انتهى الأمر بإعطائه حسابه وصرفه من العمل.

لم يصدق نفسه وهو يقبض في يده ثلاثة آلاف من الفرنكات عن أيام عمله بالسوق.

والحق أن هذا العمل المضني كان يدفع أكثر من أي مكان آخر طبقًا لما أخبره به خالد، ولهذا كان حلم كل الطلبة المصريين.

بعد أن أمسك بالفلوس لم يتردد فسلم على خالد ورفيقيه معانقًا وشكرهم على قبولهم له بالغرفة ثم دفع نصيبه من الإيجار وانطلق إلى الشارع ومعه حقيبته فقصد فندقًا آخر بالحي اللاتيني.

لم ينخدع بمنظره من الخارج وخشي أن يكون من الداخل مزبلة فقام بفحصه جيدًا قبل أن يتورط بالحجز ودفع النقود، ولم ينس أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فندق الرجال العظماء يبدو من الخارج آية في الروعة والبهاء. صعد كل طوابق الفندق وأخذ يتشمم ردهاته ويعاين حماماته ثم طلب أن يحصل على غرفة وحده. وحتى بعد أن حصل على المفتاح من الموظفة طلب منها أن تؤكد له أن الغرفة ستكون له وحده، ولم يبال بالدهشة في عينيها وأصر أن يسمع منها الإجابة، فاصطحبته إلى الغرفة وفتحت الباب بالمفتاح وتركته وسط الغرفة يحملق في السرير الجميل الذي افتقده بشدة طيلة الأيام السابقة التي افترش فيها ملابسه ونام فوقها على الأرض.

وكان سعيداً للغاية بالتواليت الصغير الملحق بالغرفة لأنه حتى هذا الصباح كان يغادر البناية كلما رغب في دخول الحمام ويقصد أحد المطاعم بالشارع وبعضها كان يطرده ولا يسمح له باستعمال الحمام!. ولم يقلل من سعادته أن الحمّام ذا الدش الساخن كان في الردهة خارج الغرفة من أجل استعمال نزلاء الطابق كله.

نظر من شباك الغرفة فأبصر مطعماً تونسيًا بالأسفل. هبط ودخل إليه وتناول طبق كسكس وطبق مرجاز وتعرف على مجموعة التونسيين العاملين وصارحهم بأنه يحسدهم على لغتهم الفرنسية التي تجعل ولوجهم إلى المجتمع الفرنسي سهلاً، على العكس من المصريين الذين يجدون عناء في التواصل مع هذا المجتمع، لكن التونسيين لم يشاركوه الرأي وأخبروه أن لغتهم الفرنسية هذه لا تكفل لهم التواصل مع

الفرنسيين الذين ينظرون إليهم باستعلاء ولا تمنحهم سوى أحط الأعمال إن وجدت!.

سرح في فكرة أن أحط الأعمال هذه هي حلمه هو ورفاقه من المصريين الطلبة.. وغير الطلبة!.

(3)

قضى الأيام التالية في باريس كسائح حقيقي، فقام بزيارة متحف اللوفر ومتحف أورسي وخطف رجله إلى قصر فرساي وصعد إلى برج إيفل وجالس الفنانين والرسامين في مونمارتر، كما استقل مركبًا عائمًا طاف به المدينة في رحلة سياحية. كان يريد أن ينفض عن روحه فزع الأيام التي قضاها في "فندق الرجال العظماء" الذي تأنف سكناه الحشرات والقوارض رغم أنها تسكنه!. وعندما كان يمر إلى جواره كانت معدته تتقلص وكان عقله يستحضر لاإراديًا رائحة المكان. في هذه الأيام القليلة الجميلة تعرف في السوبر ماركت للمرة الأولى على منتج عجيب هو أكياس الشيبسي التي لم تكن قد دخلت مصر بعد ووجدها اختراعًا ممتعًا للغاية، وانتابه شعور يشبه ما حدث للفنان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علي الشريف في فيلم الأرض عندما شاهد الناس في البندر يأكلون طعمية في عيش فينو فقال قولته المشهورة: ياما انتوا ممتعين نفسكم يا أهل مصر!.

كان يخرج في الصباح يسير على ضفة نهر السين ثم يجلس على دكة من تلك المنتشرة على الممشى السفلي المحاذي للنهر وكان بفعل الفراغ والدعة كثير الشرود والتأمل، وألحت عليه كثيرًا أفكار عن الغنى والفقر والتقدم والتخلف بعد أن شاهد مصريين من خريجي الجامعات بالإضافة إلى أفارقة وآسيويين وهم يعتمدون في غذائهم على صفائح الزبالة. وجرحه إلى أبعد حد نصيحة قدمها له مصري قديم يغسل الصحون منذ 20 سنة عندما أراد أن يخدمه فأخذه من يده إلى تجمع كبير لصناديق القمامة وفتح أحدها ثم مد يده وأخرج بعض حبات الخوخ والموز المعطوبة جزئيًا وقال له: خذ.. مد يدك، غيرك يتمنى يعرف هذا المكان.. تستطيع أن تعتمد على هذا المخزن في غذائك وتوفر نقودك لأشياء أهم!!. شعر وقتها بإهانة وجرح عميقين ولم يفهم مع تقديره لحسن نية الرجل كيف تصوره سيفرح بعيشة الكلاب الضالة هذه؟ وهل تتبقي للإنسان روح تسمح له بالتمتع بأشياء أخرى إذا وافق على أن يتغذى على الفضلات؟.

طافت بخياله صورة زملائه الأكبر في الجامعة الذين سبقوه في السفر وعادوا يرتدون بنطلونات الجينز الأصلي ويدخنون المارلبورو ويحكون

قصصًا كاذبة عن أيامهم ولياليهم المظفرة في أوروبا، ولم يعد يصعب عليه الآن تصور أين كانوا ينامون وماذا كانوا يأكلون حتى يوفروا فلوسهم لأشياء أهم!.

انسلت الأيام الحلوة سريعًا من بين يديه وبدأ يشعر بالخطر عندما اكتشف أن ما تبقى في جيبه من نقود لن يصمد لأيام قليلة يعود بعدها لحياة الشقاء والسكنى المرعبة، فأخذ يجد في البحث عن عمل في كل أنحاء باريس. كان بحثه مركزًا في المطاعم التي تغص بها المدينة والتي لا شك تحتاج إلى من يغسلون الصحون. كان يركب المترو وينزل في أي محطة ثم يطوف بالمطاعم ويدخلها واحدًا واحدًا وبعد أن يتلقى الرد السلبي المعتاد يذهب إلى حي آخر ويعيد المحاولة، لكن كان واضحًا أن العمالة في باريس كانت فائضة والأجور طبعًا متدنية وكان على استعداد لقبول أي أجر، لكنه لم يظفر بأي فرصة رغم بحثه الدؤوب.

الآن لا مفر من مغادرة باريس.. هكذا حدث نفسه، خصوصًا وأنّ أوان جمع العنب قد اقترب، وهو الحدث الذي ينتظره آلاف الطلبة المصريون، لكن مشكلته أنه لا يدري إلى أين يذهب وأي القطارات يركب وفي أي اتجاه؟ لم يتوقع أن يدله أحد ببساطة ويعطيه معلومة مفيدة في هذا الشأن.. كانت الأنانية تفتك بالشباب وتجعل كل من لديه علم عن أماكن محتملة للشغل يطوي عليه صدره خشية أن تطير الفرصة لغيره.. بالعكس انتشرت في تلك الأثناء المعلومات المضروبة التي كانوا يمررونها لبعض بغية إفساح الطريق لأنفسهم والوصول قبل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غيرهم إلى مزارع العنب. لقد عرف أن مزارع العنب تقع في الجنوب. . فليذهب جنوبًا إذن. ذهب إلى أحد المكاتب التي تقدم خدماتها للسائحين وحصل على خرائط وكتالوجات عرف منها ومن أصدقائه التوانسة الذين يعملون بالمطعم أسفل فندقه مدنًا مثل "نيم" و"أفينيون" تنتشر مزارع العنب في الأرياف المحيطة بها.

وذات صباح كان يسير على ضفة النهر بجوار كنيسة نوتردام يفكر في الأيام المقبلة عندما صادف عصام وهو أحد الطلبة الذين التقاهم من قبل بالفندق الوضيع، وكانت له هناك واقعة مشهورة عندما اختلف مع زميل له على بكرة ورق تواليت لأيهما تكون، وقد دخلا في عراك شديد وخرج كل منهما متورم الوجه، وفي هذه الليلة كان سبابهما المقذع يخترق الجدران ويكاد يصل إلى الشارع. هذا وقد أسماه رفاقه في الغرفة بعد هذه الموقعة "عصام تواليت".

فاجأه عصام وهو يسير معه قائلاً: إن سكان فندق الرجال العظماء يتحدثون عنك باعتبارك المحظوظ الأكبر الذي وجد عملاً بمجرد وصوله ويسكن الآن لوكاندة نظيفة في غرفة بمفرده. قال له: يا ساتر يا رب. أكمل عصام: وهم كذلك يتناقلون الحكايات عن المرأة العجوز التي تعيش معها وتنفق عليك من وسع!. صاح مشدوهًا: أي امرأة تلك التي تصرف عليّ؟ من أين أتوا بهذا الهراء؟ قال عصام: لقد شاهدك بعضهم تتناول الطعام بمطاعم يعملون بها، وهذا ما جعلهم

يتحدثون عن شنطة الفلوس التي عثرت عليها أو عن العجوز التي تؤويك، وهذه لعلمك هي السبل الوحيدة التي يفهمونها للنوم في مكان نظيف وتناول طعام طيب في فرنسا!

ضحك طويلاً على الخيال الخصب الذي يزوده الحرمان بالوقود كل يوم. قال عصام جادًا: وحياة الأخوية يا شيخ لو كان في حياتك امرأة عجوز حقًا. . اطلب منها أن تعرفني بصديقتها لأنني لم أعد أحتمل النوم على البلاط، واستطرد: هل تصدق أنني لم أستحم منذ ثلاثة شهور وأصبحت أخجل من ملابسي الداخلية التي فقدت لونها الأبيض الأصلي وأصبحت بني في أسود!. شهق في فزع: ثلاثة أشهر يا ابن المعفنة. . وكيف تحتمل نفسك؟ رد عصام: أنا هنا منذ سنتين، أتيت بعد الامتحانات ولم أعد إلى معهد التعاون مرة أخرى وبالتأكيد رفدوني، لم أعمل طيلة السنتين إلا أيامًا معدودة في التنظيف بمحل "تاتي" قرب محطة "بير حكيم" لكنهم سرعان ما استغنوا عني وعينوا أفريقيًا من السنغال، لكن لا يهم. . أنا وأنت يا فرنسا والزمن طويل، لن أعود قبل أن أحقق أحلامي كلها.

رد عليه: أنا متفائل بشأنك يا عصام وأشعر أنك ستعثر قريبًا على عجوز أحلامك وأنها ستأخذك تحت الدش وتدعك جسمك بالحجر وتحقق لك باقي الأحلام بالنوم على مرتبة ومضاجعة حسناء الحي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللاتيني التي أسعدت جنود الحلفاء عندما حرروا باريس عام 45 . . تفاءل يا رجل وهيا لأدعوك على واحد قهوة عند "شي ماريان" .

بانت السعادة على وجه عصام وقال : أولاد الناس أمثالك هم الذين أعانوني على البقاء كل هذه المدة . . كوب شاي من هنا وسيجارة من هناك ، فلتحيا الجدعنة وربنا يخلي لك المرة العجوز التي ترعاك في الغربة ! . قال هذا وتأبط ذراعه ومضى نحو المقهى . لاحظ نظرات الناس لهما فانتبه إلى أن الناس ينظرون بريبة إذا رأوا شابًا يتأبط ذراع شاب آخر . صحيح الحرية هناك مقدسة لكنك لن تسلم من النظرات . سحب ذراعه من عصام بسرعة . في السنوات التالية لاحظ تغيرًا ملحوظًا في الغرب تجاه هذه الظاهرة حتى صار من العادي الآن بالنسبة لهم في أوروبا تبادل السلام مع الأحضان والقبلات بين الرجال . . هذه العادة التي تعلموها من العرب ! .

سار معه في شارع سان ميشيل وقبل أن يبلغا المقهى بدأ المطر يهطل . لم تكن معهما مظلة فاحتميا بأحد المحلات . لاحظ أن شخصًا مُسنًا يحدق فيهما بصورة ملحوظة . . أشاح بوجهه ثم عاد يتفقد الرجل فوجده ما زال شاخصًا ببصره نحوهما . نظر إلى عصام قائلاً بصوت خفيض : هذا الرجل ينظر إليك فهل تعرفه؟ أجاب عصام : ألاحظ نظراته ولا أعرفه لكني سأتعرف إليه حالاً فربما يكون لديه ما ينفعنا . ابتسم للرجل الذي رد بابتسامة متسعة وتقدم منهما مخرجًا علبة

سجائره فقدم سيجارة تناولها عصام على الفور ثم قدم له هو أيضًا واحدة لكنه لم يقبلها لارتيابه في الرجل .

قال عصام : حلو . . عشاء الليلة سيكون على هذا الفرنسي العجوز .

عاجله قائلاً : كنت أظن تحقيق أحلامك منوط بامرأة عجوز لا رجل .

قال عصام : لا فرق . . كلهم كائنات طيبة يرسلها القدر لنأكل ونجد نومة طرية ! .

حاول أن يفرمل اندفاع عصام فقال : تمهل حتى تعرف أولاً ماذا يريد منك .

رد باستهانة : أيًا كان ما يريد فهو عندي ! .

أدهشه استعداد عصام لكل أنواع التنازلات . كان الرجل يتابع حديثهما ثم تشجع وسأل : أراكما تتحدثان العربية فهل أنتما مغاربة؟ قال عصام : نحن من مصر . صاح : آه مصر . . الهرم ، أبو الهول ، الكرنك ، الصحراء . . وماذا تفعلان في باريس؟ قال عصام : جئنا نبحث عن عمل . . هل تعرف أحدًا يقوم بتشغيلنا في باريس أو في مزارع العنب بالجنوب . لمعت عينا الرجل وقال : نعم أستطيع تشغيلكما في مزرعة ابن عمي في بلدة "سان بازيلي" في الجنوب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رغم قلقه من الرجل فقد شعر بسعادة وتمنى أن تكون هناك فرصة شغل حقيقية. هنا قرر الرجل أن يطرق الحديد وهو ساخن فقال: يسعدني أن أستضيفكما في شقتي في شارع "الهارْب" على بعد خطوات، ثم أذهب بكما في عطلة نهاية الأسبوع إلى الجنوب. قال عصام: هذه فرصة ذهبية لا يجب أن ندعها تفلت.

لاحظ عصام تردده فاستحثه قائلاً: سكن مجاني وفراش بغطاء ومرتبة وفرصة عمل بالجنوب وما زلت تفكر. قال: وما المقابل الذي سيطلبه لقاء كل هذا؟.. من الواضح أنك تفهم قصدي. رد: نعم أفهم قصدك لكني حسن الظن بالناس وما زلت أثق بوجود الخير بالدنيا على عكسك!. لم يتمالك أن يقول لعصام بصوت خفيض: آه يابن الفاجرة!.

في هذا الوقت كانت نقوده في الرمق الأخير وكان نزوحه إلى فندق الرجال العظماء أمراً محتمًا في خلال يومين إذا لم تحدث معجزة فقرر أن يغامر بالذهاب معهما.

صعد الدرج مع عصام ومع الرجل الذي قدم نفسه باسم دانييل ومنه عرفا أنه يعمل بكتابة الروايات. في داخل الشقة أشار إلى زجاجة نبيذ متسائلاً: أصدقائي المغاربة يشربون، فهل أنتما مثلهم أم أن لديكما تحفظات دينية على الخمر؟. سارع عصام: نحن نحب النبيذ جدًا لكننا اعتدنا أن نأكل أولاً.. فهل لديك ما يؤكل؟. قام دانييل إلى

الثلاجة وقال: عندي شرائح من لحم الخنزير المقدد هل أجهزها لكما؟ رد عصام: نعم وبسرعة من فضلك لأني أكاد أموت جوعًا.

لم يفهم طبيعة الظروف البشعة التي جعلت من عصام ما هو عليه.. خمر ماشي، خنزير لا بأس، امرأة أو رجل عجوز أهلاً وسهلاً.

قام فاستأذن ليذهب إلى الفندق القريب لإحضار حقيبته. سأله عصام: ألا تنتظر حتى تتعشى معي؟ فرمقه بقرف دون أن يرد.

ذهب إلى الفندق وتناول ساندوتش ثم عاد بالحقيبة فوجد عصام يلتهم وجبة من لحم الخنزير والبطاطس. بعد العشاء اقترح الرجل الصعود للطابق الأعلى حيث حجرة النوم. كانت الحجرة تضم سريراً كبيراً قال دانييل إنه يكفي ثلاثتهم.

شكره برفق وطلب منه أي شيء يفرشه على الأرض مع غطاء. تململ دانييل وأكد على أن نومة الأرض غير صحية بالمرة فلما لمس إصراره وضّب له ركنًا ينام فيه، أما عصام فكانت فرحته بالسرير لا توصف.

لم يلبث حتى غرق في النوم وهو يحلم بالعمل في مزرعة العنب ويحلم بأن يزور بقية المدن الفرنسية قبل أن يعود إلى مصر مظفراً، لكن أيقظه من حلمه صوت اهتزازات مجاورة يسمعها. فتح عينيه وكانت الدنيا ظلامًا لكن صوت لهاث وهمهمات وهزات ما زال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مستمراً. اعتادت عيناه الظلام فأبصر فوق السرير شبحًا يعتلي شبحًا آخر ممدداً، ولم يكن صعبًا رغم الظلام أن يميز ما يحدث فشهق منددًا: الله يخرب بيت أمك. . ماذا تفعل يا ابن الحرام؟ فجاءه رد عصام وهو في خضم الأكشن في منتهى الغضب والعصبية: اخرس ولا تفتح فمك نهائيًا. . يكفي أنك نائم في الأمان وتاركني أنا أدفع فاتورة إقامتك. . يعني أنت لا ترحم ولا تترك رحمة ربنا تنزل، ثم أضاف في حزم: لا أريد منك دروسًا في الأخلاق بعد الآن واتركني في حالي. . فاهم؟

انكمش على نفسه في ذهول يحاول هضم ما يحدث وانتابه إحساس مرير بالضياع، ولم يدرِ ماذا يفعل ولا ما تخبئه الأيام القادمة.

(4)

في الصباح التالي أفاق من نومه على يد تمتد إليه بشكل غير بريء. نظر فوجد دانييل يرقد إلى جواره على الأرض. انتفض صارخًا وهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يسب ويلعن، الأمر الذي ألقى الرعب في قلب الفرنسي العجوز فتراجع في فزع وهو يكرر اعتذاره.

قال لدانييل: أنا صحيح أحتاجك لتذهب بي للعمل في مزرعة قريبك لكن هذا لا يعني أنني سأقبل هذه الأشياء، ثم مضيفًا: إذا أردتني أن أغادر بيتك فسأنصرف فوراً.

قال دانييل: لا عليك.. آسف إن أغضبتك، يمكننا على أي حال أن نكون أصدقاء.. ثم مضى مبتعداً.

الغريب أنه بعد أن قام بتسوية الأمر مع دانييل وحسم هذا الموضوع بدأ يكتشف أن بالرجل على الرغم من دائه اللعين صفات طيبة، وأنه على العكس من رفاقه المصريين لا يغش ولا يكذب، وأيقن أن الفقر ينجح بجدارة في اغتيال البراءة والنزاهة ويزرع مكانها صفات منحطة، ووقر في نفسه من يومها أنه لا الأديان ولا المواعظ ولا النصح والإرشاد يمكنها أن تنشر الفضيلة بين الجياع.

أخذ دشًا سريعًا ونزل إلى الصالة فوجد عصام يجلس أمام التليفزيون وأمامه طبق بيض مقلي يأكل منه في نهم.

كان يجلس أيضًا ضيف مغربي اسمه محمود وهو من أصدقاء دانييل. نشأت مودة سريعة بينه وبين محمود المغربي فاقترح عليه النزول وتناول قدح من القهوة في الشارع. من محمود عرف أن دانييل يعد

واحدًا من أكبر الروائيين في فرنسا وأن مكانته الأدبية محفوظة وسط المثقفين، وعرف أيضًا أن محموداً متزوج من ابنة أخت دانييل وأن الأسرة كلها متوجهة في الغد إلى بيتهم الريفي في الجنوب.

تشجع ووجه لمحمود سؤالاً كعربي مسلم عن رأيه فيما يفعله دانييل وهل يراه عاديًا! قال محمود: الأمر هنا يختلف عنه في بلادنا.. الحرية هنا أعز على الناس من الحياة، وما يفعله دانييل هو صورة متطرفة من صور ممارسة الحرية، وعلى أي الأحوال فإن أحداً لا يدفع ثمن الخيارات سوى الشخص الذي اختارها، وأنا شخصيًا أتوقع لدانييل نهاية تراجيدية فاجعة على يد أحد الرعاع الذين يحضرهم من الشارع. قال هذا ثم انتبه إلى أنه يتحدث إلى واحد منهم فبادر بالاعتذار، ودعا هذا صاحبنا إلى التأكيد على أنه ليس من هؤلاء وإنما هو طالب عمل لا أكثر. قال محمود: أنا أصدقك وأراك مختلفًا عن النماذج الغريبة التي أراها بصحبته، وأضاف: أنا أحضر إليه كل يوم لأطمئن عليه عملاً بوصية زوجتي التي تخشى على خالها الذي كفلها ورباها بعد وفاة والديها. سأله محمود عن عصام ومدى معرفته به فقص عليه لقاء الصدفة الذي جمعهما في الطريق، وبدا أن محمود غير مستريح له.

ترك الشاب المغربي وهام على وجهه حتى المساء وشعر بأنه لا يريد أن يعود ويقضي الليلة في بيت دانييل حتى لا يشهد منظراً فاجعًا كالليلة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الماضية، ودعا الله أن تمر ساعات الليل على خير وفي الصباح يكون السفر إلى الجنوب.

ذهب إلى المطعم التونسي وروى لأصدقائه بالمطعم الحكاية مع دانييل فوافقوا على أن يسمحوا له بالمبيت داخل المطعم حتى الصباح.

أفاق مبكراً وعنقه يؤلمه من النوم على الكرسي وذهب من فوره إلى شقة دانييل وأخذ حقيبته وتوجه إلى محطة القطار بصحبة عصام بعد أن أخذ منهم الخريطة التفصيلية إلى بلدتهم التي كانت على مسافة ساعتين بالقطار، وذهب دانييل مع ابنة أخيه وزوجها المغربي بالسيارة، وعلم أنه يهوى الذهاب للبيت الريفي كثيراً ليكتب في هدوء.

كانت بلدة سان بازيلي شديدة الهدوء والصفاء وتمني وهو يخطو بها خطواته الأولى أن يقضي بقية عمره بها. أسعده أن يجد الورود تملأ الشرفات وأحس براحة وهو يتمشى في طرقاتها الضيقة الحميمة. بعد يومين بدأ العمل في جمع العنب، وكان هناك رجل يشرف على العمل ويقوم بتحديد المناطق وتوزيع المهام على العاملين الذين كانوا خليطًا من الأسبان والمغاربة والمصريين. أشجار العنب بطبعها منخفضة وعملية الجمع كانت تقتضي الانحناء والسير والتنقل على وضعية القرود لساعات طويلة حتى انه في نهاية اليوم كان يجد صعوبة في فرد ظهره والعودة إلى وضعية الإنسان من جديد.

قضى دانييل بضعة أيام بالبلدة في بيته ومعه قريبته وزوجها ومعهم عصام! أما هو ففضل أن يعيش بالعنبر الخشبي الكبير الذي يبيت به العمال ورفض دعوة دانييل، كما لم يلتفت لكلام عصام عن النومة المريحة والطعام الطيب وباقي الأسطوانة المقززة، ولم يستطع أن يتخلص من إحساس النفور الذي لازمه تجاهه، وقد لاحظ عصام هذا فلم يعد يتحدث إليه كثيراً. لقد شعر بعدما رأى محصول العنب وتسلم الشغل أنه إنسان حر، ومن يومها وهو يحترم العمل ويقدسه ويراه من أسباب عزة الإنسان وعاصمًا له من الذل مهما كان نوعه وأيًا كانت مشقته.

في الأمسيات كان يذهب إلى واحد من المقاهي القليلة بالبلدة ويتناول طعامه هناك ويظل يثرثر مع الناس الذين يرحبون بأي مستمع. أما في أيام السبت والآحاد فقد كان يذهب إلى شاطئ النهر ويجلس على دكة خشبية ومعه واحدًا من الكتب التي اصطحبها معه من مصر. وعلى هذه الدكة الخشبية تعرف على كاترين ذات الثمانين عامًا التي أنست إليه وظلت تحكي له بلا انقطاع حكايات من الحرب العالمية الأولى وقت أن كانت فتاة مراهقة، ثم عبرت فترة ما بين الحربين وقصت عليه روايات من الحرب الثانية بعد أن دهست جيوش النازي بلدتهم وقت أن كانت زوجة وأمًا، وقصت عليه حكايات عن المقاومة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشعبية ثم ختمت بوفاة زوجها ورحيل الأبناء والبنات بعيداً عن البلدة.

الغريب أنه كان يشعر براحة مع كاترين وكان يفضل قضاء الوقت معها عن الجلوس مع الأسبان رفاق العنبر الذين كانوا لا يرحبون بالغرباء، كما كان يفضلها عن صحبة عصام وأمثاله من المصريين العاملين معهم والذين لم يشعر برغبة في مجرد التعرف عليهم.

ووسط كل هذا الجمع نظر حوله يبحث عن ابنة صاحب المزرعة التي بشرته الأساطير بأنها ستقع في هواه من أول نظرة وتتزوجه ثم تأتي المرحلة التالية عندما يطلب من حماه أن يستريح بالبيت ويصير هو صاحب المزرعة والسيد الآمر الناهي المطاع فيها.. لكنه لم يجدها، فبحث عن ابنة صاحب الحانة أو ابنة صاحب المخبز أو ابنة أي أحد تقبل أن تصادقه وتخفف أيامه، ثم أدرك عقم المحاولة عندما حاول أن يتخيل نفسه مكان بنت من هؤلاء البنات وسأل نفسه إذا كان ممكنًا أن تتعلق بشاب مثل عصام لا يستحم بالشهور ولا يغسل أسنانه أبداً ولا يحسن الحديث بأي لغة مفهومة.. فمن هي الجميلة التي تترك جيرانها وزملاءها من الشباب الفرنسي وتقع في هوى جربوع أجنبي لا قيمة له.

كل العلاقات التي شاهدها تنشأ بين أقرانه الطلبة وبين نساء، كانت بطلاتها ممن أصابهن العطب، فمنهن بائعة الهوى ومنهن شديدة

القبح أو العجوز المتعلقة بأهداب الأنوثة. ضحك في سره عندما تذكّر الحواديت التي سمعها قبل أن يأتي إلى هنا من المصريين في الجامعة أصحاب التجارب في السفر عندما كان كل منهم يتحدث ببساطة عن فتاته الجميلة التي تركها في فرنسا أو إيطاليا أو النمسا وما زال يراسلها على أمل اللقاء في الإجازة القادمة، وضحك أكثر عندما مر بخاطره موضوع الصور الفوتوغرافية التي كثيراً ما كانوا يعرضونها على زملاء لهم مع فتيات جميلات كدليل على صدق حكاياتهم عن الصديقات الأوروبيات. الآن عرف الحقيقة بعد أن أصبح لديه هو شخصيًا ألبومًا من الصور التقطت له على ضفاف نهر السين مع فتيات لا يعرفهن لا يجدن غضاضة في التصوير مع أي أحد كتذكار!.

أخذت مستحقاته المالية عند "روجيه" صاحب المزرعة تربو وتزيد ولم يكن يأخذ منها إلا القليل الذي يكفي طلباته البسيطة، أما الباقي فقرر أن يدخره مع الرجل وأن يحصل عليه كاملاً بعد نهاية الموسم.

وعاش عصام في كنف دانييل يبيت معه ولا يحضر للعمل بالمزرعة إلا لامامًا، و يذهب معه إلى باريس ويعود وقتما يشاء، وبدا أن الدنيا قد ابتسمت له وحقق ما كان يتمناه بالعثور على عجوز أحلامه.

انقضى موسم العنب على خير فتوجه إلى "روجيه" ليأخذ حسابه فعلم أنه في باريس وسيعود خلال يومين، واقترح عليه دانييل أن يرحل معه ومع عصام إلى باريس وهناك يمكنه أن يقابل "روجيه" ويحصل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على فلوسه دون أن يضطر لانتظاره. قال دانييل هذا ثم أتبع اقتراحه بمكالمة تليفونية لابن عمه وسأله إن كان بحوزته ما يكفي لدفع كافة المستحقات المتراكمة لديه فكان رده إيجابيًا.

ركب السيارة معهما وحطوا جميعًا عند منزل دانييل بالحي اللاتيني. وضع الحقيبة لدى العجوز الفرنسي ونزل إلى الشارع لشراء علبة سجائر.

كان في ذلك الوقت يشعر بسعادة لا حدود لها ونوى بعد أن يقبض راتبه أن يشتري كل الملابس والهدايا والعطور التي حلم بها حتى يكون شكله في الجامعة لائقًا بشاب قادم من باريس! كما نوى أن يرد لأبيه الفلوس التي أخذها منه وأن يحضر له الكاسيت والمروحة اللتين طلبهما، وأن يلبي كل الطلبات الموجودة بالقائمة في الخطاب الذي أرسله له أخوه من مصر وتشمل القائمة طلبات إخوته وأخواته الستة. عقد العزم كذلك على أن يقوم بزيارة إميل الشاب المصري الأصيل الذي مد له يد العون دون سابق معرفة واستضافه في بيت صديقته دون مقابل وقرر أن يشتري لهما هدية زواج.

كان سارحًا في كل هذا وهو يقف بباب بيت دانييل على ناصية الشارع عندما اقترب منه رجلان أبرزا تصريحًا في وجهه فهم منه أنهما من رجال البوليس وطلبا منه أوراقه. سألهما في جزع: أي أوراق؟ قال أحدهما أوراق الإقامة وقال الآخر: نقصد جواز سفرك. تردد في

إخراج الجواز لأن التأشيرة الحاصل عليها من القاهرة كانت تسمح له بأسبوع واحد فقط وهذا الأسبوع قد انقضي منذ أربعة أشهر! مادت الدنيا به واسودت في وجهه. لقد كان يعلم أنه سيتم ترحيله فوراً إلى القاهرة. نسي خطته في التجول بالمدن الفرنسية ونسي الهدايا والملابس وزيارة إميل. نسي كل شيء عدا أنّ فلوسه في حوزة روجيه، وقرر أنه سيعد نفسه منتصراً إذا قبض على الفلوس ثم فليفعلوا به ما يشاؤون. أخرج جوازه من جيبه الخلفي وهو يرجوهما أن يصعدا معه إلى دانييل حتى يتصرف في موضوع الفلوس ثم يذهب معهما حيثما شاءا.

لم يستجيبا لضراعته وأصرا على اصطحابه في سيارة أخذته إلى أحد المباني في حي "شاتليه" وهناك وجد نفسه داخل صالة كبيرة بها أسرّة بدورين يشغلها بشر من كل نوع عرب وأتراك ويوغوسلاف جميعهم سيتم ترحيلهم إلى بلادهم. أخذ يصرخ على الحراس مطالبًا بأن يستمع إليه أحد. استمعوا اليه ثم أهملوه، وعندما ملّوا من إزعاجه حملوه فوضعوه داخل زنزانة وحده وأغلقوا عليه الباب.

كان شعوره بالحسرة والقهر لا حدود له. نادى على السجان ورجاه أن يقوم من أجله بمكالمة دانييل ويخبره بمكانه فأعرض عنه. تكوم على المرتبة المفروشة في الأرض متكوراً على نفسه وهو يبكي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الصباح أخذوه إلى أحد المكاتب وعملوا له ملفًا وأخذوا بصماته ثم أركبوه سيارة شقت طريقها بسرعة كبيرة نحو المطار . في محاولة يائسة طلب من الضابط المكلف بأن يأخذه لدانييل قبل الرحيل . رق الضابط لحاله فغير المسار نحو الحي اللاتيني وصعدوا معه إلى فوق .

دق الجرس فلم يرد أحد فأخرج ورقة كتب عليها ملخص ما حدث وسجل عليها عنوانه وتليفونه بمصر ورجا دانييل أن يرسل له فلوسه ، وكتب نسخة أخرى باللغة العربية وجهها إلى عصام .

ظل فترة طويلة يساوره بقايا أمل في المكالمة التي لم يحظ بها أبدًا من عصام أو عجوز أحلامه دانييل ! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهرس المحتويات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقدمة	9
يومان وليلة في لندن	21
البوليسية يا ساقط !	49
صانعة الكفتة	63
مُنيتي . . عَز اصطباري	81
كازينو مونتريال	97
ابن سنيّة أبانوز	121
الرحلة 990 . . على ضفاف المأساة	137
من ضحايا 11 سبتمبر	151
وفاة أعز أصدقائي	165
سفاري	179
أنا والسيناتور . . في تايلاند	191
فرنسا . . وعنب فرنسا	209

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرحلة 990..على ضفاف المأساة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الساحل الشرقي للولايات المتحدة حيث سقطت الطائرة المصرية واستقرت في قاع المحيط، كانت المأساة كاملة. واستمرت توابعها تترى على الساحل نفسه في متوالية حزينة بعد وصول أُسر الضحايا إلى ولاية "رود أيلاند" حيث أقرب بقعة من مكان السقوط.

رغم كل شيء، فالمكان بديع، فندق "دوبل تري" مستقر العشاق ومأوى الحالمين بالحب والسكينة، تحوطه المياه من كل جانب، كما تضفي مزارع الورد على المكان سحراً وعبقًا.

الاسم الرسمي للجزيرة هو "جزيرة الماعز"، أما سكان مدينة نيو بورت التي يفصلها عن جزيرتنا جسر يعلو المحيط، فيسمونها جزيرة الفردوس.

كان الفندق قد تم إخلاؤه تمامًا من النزلاء بتعليمات قاطعة من البيت الأبيض، وتم تسكين أسر الضحايا بمساعدة مندوبي شركة الطيران ومؤسسة مساعدة أسر الضحايا. عقد أول مؤتمر يضم الثكالى والأرامل واليتامي الذين فقدوا ذويهم مع رئيس المجلس الأمريكي لسلامة النقل الجوي في وجود مندوبين عن البحرية الأمريكية.

القاعة ضخمة جداً، ومن الواضح أنها أعدت على عجل لاستقبال هذا العدد الكبير من أهالي الضحايا سواء الذين وفدوا من أنحاء الولايات المتحدة، أو الذين حملتهم الطائرة من القاهرة. سماعات الترجمة الفورية متاحة للجميع، الصليب الأحمر موجود لتقديم المساعدة، وكذا العديد من الجمعيات الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية.

بعض التنافس الخفي لتأكيد الحضور يمكن ملاحظته، الشيوخ والقساوسة يحاولون تهدئة النفوس الملتاعة، المحامون الباحثون عن أفضل استثمار للكارثة يسعون لجمع التوكيلات، صرخة هنا ونحيب هناك، ونشيج مكتوم في كل مكان، حالة إغماء يهرع إليها رجال الإسعاف، صوت جريء يسأل عن موعد العشاء! . . . المشهد مأساوي بكل معنى الكلمة.

لافتة "ممنوع التدخين" واضحة للجميع شأن أي مكان عام بأمريكا، لكن من ذا الذي يجرؤ على تطبيق القانون بالقاعة الآن؟ كل ما فعلوه أنهم فصلوا أجهزة الإنذار بالحريق ونشروا طفايات السجائر بكل مكان لينقذوا الأرضية من الدمار.

ألمحه وسط الجمع يجلس متململاً على كرسيه، يقف ثم يجلس، ينهض ويسير خطوتين ثم يعاود الجلوس، يرفع رأسه لأعلى فأرى الزيغ في نظراته، أقترب منه حتى أواجهه، عيناه مجهدتان من طول البكاء، أسأله: هل أستطيع أن أساعدك؟ فيجيب: بل تستطع أن تتركني

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشأني . قلت : هذا أسهل ما يمكنني القيام بـه ولكـني أود مـساعدتك . نظر إليّ بعينيه المكدودتين في شك ، ثم طلب مـني أن أجلـس بجانبـه وأن أسـاعده إذا أمكـن في الحـصول علـى ملابـس لأن جلبابـه قـد اتـسخ ، وأخبرني أنه وصل إلى مطار القاهرة من بلدته بعد أن علم بالكارثـة غـير مصدق أن أخاه الوحيـد قـد مـات . ثـم حـدث كـل شـيء بـسرعة ، تم تصويره واستخراج جواز سفر وتذكرة وتأشيرة ، ثـم وجـد نفـسه داخـل الطائرة مع حشد من أهالي الضحايا . . لأول مرة يركب طائرة في حياته ، نام على مقعده حتى أيقظوه وأخبروه أنه وصل أمريكا .

انقطع الحوار بيننا عند بدء المؤتمر وران على القاعة صمت عميق ، ثـم بدأ السيد "جيم هول" بتقديم العزاء للحاضرين ثم شرع يشرح تفاصيل ما سجله الرادار ، ويشرح الإجراءات المعتادة في مثل هذه الحوادث ، ومن بعد اعتلى مندوب البحرية الأمريكية المنصة وأمسك بـالميكروفون وأخـذ يعدد الصعوبات التي تعترض وصول سفينة البحث عـن الحطـام بـسبب الأحوال الجوية الصعبة . ثم بدأت الأسئلة تنهـال علـى المنـصة مـن كـل جانب عن فرصة وجود ناجين وانتشال الجثث وشهادات الوفـاة وتحديـد المسؤولية وصرف التعويضات .

وسط هذا كله وجدت الرجل إلى جانبي يقوم من مقعده ويتجه نحـو الميكروفون ثم يوجه سؤاله : لماذا نحن هنا يا جماعة . . هلا أخبرتمـوني عـن سبب وجودي هنا بينكم؟ كانت الترجمة الفورية تتابعه ، ومـن ثـم جـاءه

الـرد الآلـي مـن المنـصة يحمـل التعزيـة والتعـاطف والرغبـة في تقـديم المساعدة . . فقال : نعم ، نعم أنا أشكركم علـى كـل هـذا لكـني بعـد لم أفهم لماذا أتيتم بي إلى هنا وماذا على أن أفعل ، أو مـا هـو المطلـوب مـني بالضبط؟ . إذا كان أخي قد مات فامنحوني جثمانه وشهادة الوفـاة حتـى أدفنه في "البلد" . . أنتم تقولـون إن الجثـث يـصعب اسـتخراجها الآن ، وشهادات الوفاة مرتبطـة بوجـود الجثمـان ، وصـرف التعـويض مـرتبط بالاثنين ، فلماذا أحضرتموني إلى هنا وقد كان يمكنني أن أتفرج علـيكم في التليفزيون ، ثم تهدج صـوته وغلبـه البكـاء ، فقـام إليـه بعـض الرجـال يهدؤونه ويعيدونه إلى كرسيه ، ويبدو أن بكاءه قـد نكـأ المشاعر الملتهبـة فانتشرت العدوى ولمعت العيون بالدموع . . وهنا اندفع رجل أمريكي في منتصف العمر فقد أمه في الحادث كما عرفنا وأمسك بـالميكروفون وبيـده الأخرى بطحة خمر أخذ يعب منهـا وتـساءل في اسـتنكار غاضـب : هـل تريدون أن تقنعوني أن الولايات المتحدة بكل معداتها البحرية وإمكاناتها التكنولوجية الهائلة تعجز عن انتشال الطـائرة الغارقـة وجثـث الـضحايا لمجرد أن أمواج البحر مرتفعة؟ ! إني أشـم رائحـة غـير طيبـة وأشـعر أن لديكم ما تودون إخفاءه .

ومرة أخرى يأتي رد المنصة رسميًـا ، حكوميًـا معلبًـا ، بـه مـن المـواد الحافظة ما يجعلـك تعافـه وتعجـز عـن ابتلاعـه كمـا وصـفه الرجـل ثـم واصل : أنا لا أصدقكم ولا أثق بكم ولن أسـتمع إلـيكم بعـد الآن ، أنـا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذاهب ومعي صديقي هذا ـ و أشار إلى صاحبنا ـ إلى مكان ليس بـه طبـيخ فاسد! وأخذ ذراع الرجل الذي قام إليه في سكينة وخرجا من القاعة.

بعد انتهاء المؤتمر الصحفي لمحت الرجل الأمريكي يجلس مـع الفـلاح المصري داخـل البـار يتبـادلان حـديثًا ضـاحكًا، فلـم أسـتطع أن أداري دهشتي. اقتربت منهما وسألت المصري: هل تعـرف اللغـة الإنجليزيـة؟ فأجابني: ولا حرف واحد، سألت الآخر: هل تعـرف العربيـة؟ فكـف عن الضحك وقال بجدية: ما لا تستطيع أن تفهمه تستطيع أن تحـسه، ثـم رفع كأسه لرفيقه وتبادلا الأنخاب، فتركتهما وانصرفت.

في الصباح التقيـت صـاحبنا المـصري علـى الإفطـار يجلـس وحيـداً، فجلست أفطر معه وسألته عن أحواله فأجابني: نمت نومًـا عميقًـا، ولم يبدأ الكابوس إلا حين استيقظت!. شعرت أنه قد أنس إلـيّ فمـضينا في جولة داخل ردهات الفنـدق حتـى وصـلنا للبـاب الخـارجي، فأبـصرت مندوبي شبكات التليفزيون يقفون وكاميراتهم مصوبة في وجـه كـل مـن يطل برأسه خارج الباب، ذلك أن دخولهم إلى الفندق كان ممنوعًا.

توجه إلينا أحدهم محييًا وطلب منا أن ندلي بحديث، فاعتذرت له في أدب وهممت أن أمضي إلا أن صـاحبنا أمـسك ذراعـي بقـوة وأوقفـني قائلاً: أنت لا تريد أن تتحدث إليه وهذا شأنك ولكني أريـد أن أكلمـه. سـألته وقـد أخـذتني الدهـشة: مـاذا تريـد أن تقـول لـه؟ وكيـف تـراك ستحدثه؟ بالإشارة؟ أم تظنه مثل صديقك الفيلـسوف المخمـور سـيحس

بك دون أن تنطق؟ فانفعل بـشدة مؤكـداً أنـه قـادر علـى أن يقـدم نفـسه للمشاهدين بشكل طيب ويشرح لهم قضيته! طلبـت منـه أن يـشرح لـي قضيته هذه أولاً فأجابني بجرأة: وما شأنك أنـت يـا متطفـل. مطلـوب منك فقط أن تقـوم بالترجمـة. وهنـا انتبهـت إلى أن عـشرات الكـاميرات تسجل ما يحدث بيننا، وقد التقطت حاستهم الصحفية أن هناك من يريـد أن يتحدث وشعروا من لهفته أن لديـه معلومـات مهمـة، فمـد أحـدهم ميكروفونه وسأله عن اسمه، فأجاب: محمد. من أين أنـت يـا محمـد؟. نقلت له السؤال فأجاب: من ميت أبو الليل، ثم استطرد موجهًـا سـؤاله للصحفي: وأنت.. ما اسمك؟.

نظر إلى الصحفي متسائلاً، فقلت له: يسألك عن اسمـك. أجـاب: اسمي توماس أندرسون.

وهنا بادره محمد بسؤال آخر: من أين أنت يـا تومـاس؟.. و هنـا لم أتمالك نفسي من الضحك وسألته: يا عم محمد.. هل أنت الـذي يوجـه الأسئلة؟. فرد بنفاد صبر: دعني يا فيلسوف زمانـك أتعـرف إليـه علـى طريقتي وكُف عن تمثيل دور الحكيم.

شعرت ببعض الضيق لكني تذرعت بالـصبر وقلـت لـه: حاضـر يـا سيدي ثم للصحفي: إنه يسألك يا مـستر تومـاس مـن أي بلـد أنـت؟. فابتسم قائلاً: أنا من "مينيسوتا".

وبشحنة من الود الصادق رد محمد عليه قائلاً: "أجدع ناس".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كدت أقع على الأرض من شدة الضحك، لكنه قال لي: لا تضحك وترجم يا باشا.

قلت له وأنا غير مصدق: ماذا أترجم؟ أنا ماشي يا عم محمد وأكمل أنت حوارك معه بمعرفتك.

ولدهشتي وجدته يتعلق بذراعي وكأنني صرت كل أمله في الحياة، وفي ضراعة استحلفني: لو كنت تحب النبي لا تتركني يا شيخ. لقد سألتني بالأمس إذا كنت أحتاج إلى مساعدة، فهل كان عرضك مجرد كلام. بالله عليك لا تخيب رجائي وقل له كلامي كما هو.

اجتاحتني حزمة من المشاعر المتناقضة ما بين إشفاقي على الرجل من أن يصير أضحوكة وبين رغبتي في مساعدته. ثم قررت فجأة أنه ليس من حقي أن أقرر للناس ما ينفعهم وعزمت على أن أساعده فيما يريد وليكن ما يكون.

قلت للصحفي الذي كان ينتظر نهاية الجدال بيني وبينه في فضول كبير: يا مستر أندرسون. هذا الرجل يخبرك أنك إنسان صالح وأن أهل ولايتك أناس طيبون!.

تجاوز الرجل دهشته بسرعة وسأل: ماذا لديك يا مستر محمد؟.

وهنا جلس محمد على الأرض مربعًا استعدادًا للحكي بعد أن أمسك بالميكروفون من يد توماس ثم شدني لأجلس إلى جانبه، لكني أفلت

يدي منه وبدأ يتكلم: أنا الأخ الأكبر لأربع فتيات ورجل واحد ابتلعه هذا البحر الذي أمامك، وابتلع معه أحلام الأسرة كلها. كان قرة عين والديه وفخر البلدة وزين شبابها، كان متفوقًا منذ الطفولة فلم يكلف أهله مليمًا في التعليم حتى أصبح مهندسًا وعمل بشركة البترول، على عكسي أنا الخائب الذي لم أفلح في التعليم ولا في أي عمل.

حاولت أن أوقفه لأقوم بعملي في الترجمة فنظر لي معاتبًا وكأنني ارتكبت خطأ وأكمل: كان أخي الباشمهندس يتولى الإنفاق علينا جميعًا. زوجته وأبنائه وأمه، حتى شقيقاته المتزوجات كانوا كلهم يعتمدون عليه. وأنا الرجل الطويل العريض كنت أنتظر معونته الشهرية وكان هو الذي يعولني. ثم تحول محمد نحوي وأعاد التأكيد: أي والله يا أستاذ هو الذي كان ينفق عليّ. هممت بأن أقول شيئًا لكنه سبقني ونهض من جلسته فاقترب من الصحفي الأمريكي وسأله بصوت مرتفع: قل لي بالله عليك يا مؤمن. ماذا أفعل الآن؟ إن أولاده سيقبضون مبلغ التأمين وهذا حق ربنا بلا جدال. ولكن ماذا عني أنا؟.

أشرت إليه بأن يسكت قليلاً لأنني لم أعد قادرًا على المتابعة لكنه لدهشتي الشديدة لم يعرني التفاتًا واستمر في مونولوجه الطويل وقد بدا عليه التأثر ولمعت عيناه بالدموع: لقد كنت بفضل علو شأنه أتجاسر على كل أهل البلدة، والآن سيدوسونني بسنابكهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قمت بالتربيت على كتفه في رفق عند نهاية جملته الأخيرة، لكنه كان لا يزال متوجهًا بكليته نحو الصحفي، ثم قام في مفاجأة كبيرة بنقل دفة الحديث في اتجاه آخر لم أتوقعه عندما قال: لكنكم بالطبع يا أمريكان أهل مروءة، وبالتأكيد لن تقبلوا لي الهوان ولن ترضوا أن أمشي في الشارع أمد يدي بالسؤال للناس.. كل ما أريده منكم أن تنقلوا رسالتي للرئيس كلينتون، أريد كشك سجاير أتعيش منه في بلدكم الطيب هذا، ولن أطلب منكم شيئًا بعد ذلك.

أنهى جملته هذه ثم لكزني في جنبي وقال لي: هيا.. ترجم.

نظرت إليه في حيرة وشعرت بارتباك من غرابة ما سمعت، لكنه وكأنما أحس أنني قد أتدخل بعمل مونتاج للحديث فاستبق الأمر وطلب مني أن أقسم بالله على عدم تغيير أي حرف مما قال.

تحريت الدقة قدر طاقتي في نقل كل ما قاله بما فيه موضوع كشك السجاير وأنهيت المهمة الصعبة بسلام.

قدم الصحفي لنا شكره وقام بالشد على يد محمد الذي لم يتردد في معانقته وكأنه صديق قديم! ولم ينس أن يسأله عن موعد إذاعة اللقاء، فأخبره أنه سيذاع بعد ساعة في القناة المحلية.

استدار إليّ وسألني: هل سيراني العالم كله في التليفزيون؟.

قلت له: في الغالب نعم.

قال: والرئيس كلينتون؟.

قلت له: هيا اصعد إلى غرفتك لتشاهد اللقاء على الشاشة، وربما يراك الرئيس كلينتون.

تركني وكل قسمات وجهه تنطق بالسعادة.

في الأيام التالية صار إنسانًا آخر. كنت أراه مزهوًا بنفسه يسير في ردهات الفندق متطاوسًا في خيلاء وكأنما أصبح من المشاهير. وكان يجلس معظم الوقت بالمطعم أو بالبار وحوله جمع من الأصدقاء مستمتعًا بالطعام والشراب والصحبة. وأحيانًا يطلب الطعام والشراب بالغرفة ويدعو الأصدقاء عنده. كما كان يخرج في المساء يتنزه بالبلدة ويتفرج على المحلات، ثم زادت مطالبه إلى حدود غير معقولة لدرجة أنه أصر على إحضار ملابس داخلية له ماركة "كالفين كلاين" متأسيًا بصديق له طلب الشيء نفسه!. وصار زبونًا معروفًا في مقاهي وبارات مدينة نيو بورت، وراق له بشدة التعاطف والمودة التي كان يلقاها من السكان الذين تعاملوا بحب مع الغرباء الذين ظهروا في البلدة وكان واضحًا أنهم بالضرورة من أهالي ضحايا الماساة التي وقعت على شاطئهم، وفي إطار هذا التعاطف فقد نال من أحضان وقبلات النساء ما جعل رأسه يدور وجعل إقناعه بالعودة إلى مصر أمرًا صعبًا!.

وأصبح وقوفه وسط الكاميرات يقص سيرته الذاتية شيئًا عاديًا وفي نهايتها لا ينسى أن يطلب الكشك من الرئيس الأمريكي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الواضح رغم إخلاصي في مساعدته أنه لم يكن راضيًا عن أدائي فاستغنى عن خدماتي ووجد مترجمًا آخر . لكنه حين كان يمر بي لم يكن يتردد في إعطائي أوامره بصوت مرتفع قائلاً: إذا سأل عني توماس أو أحد من التليفزيون فأنا بالمطعم ولن أتأخر . . فاهم؟ ! .

ما زلت أسترجع تلك الأيام السوداء الثقيلة بصحبة أهالي الضحايا وكان لكل منهم حكاية تذيب الصخر ، لكن هذا الرجل بالتحديد وقفت عنده طويلاً بالتأمل والتفكير ذلك لأنه حفر في داخلي أسئلة أليمة مثل : ألم يكن ممكنًا لهذا الرجل أن يسافر إلى أمريكا في ظروف أخرى طبيعية؟ وهل كان لا بد لثمن الرحلة أن يكون بهذه الفداحة فيفقد أخاه الوحيد وعزّه وسنده من أجل أن يحظى بهذه الإقامة الطيبة بفندق خمسة نجوم في أجمل مكان ، ويرتدي الملابس الجديدة من كل الماركات ويتناول من الأطعمة ما لم يسمع عنه ، ويخالط أناسًا من كل جنس ولون ويتمتع بإعطاء الأوامر التي لا ترد ، ويظهر على شاشات التلفاز ، ويمارس أحلامه وأوهامه في الشهرة الزائفة وهو الذي لم يغادر بلدته قط؟

وهل كان أخوه كريمًا في عطائه حتى النهاية ، فاستقر بقاع المحيط بهذه المنطقة ليمنحه أسبوعًا مجانيًا في جزيرة الورد؟ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من ضحايا 11 سبتمبر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بجامعة "ميموريال نيوفاوندلاند" الكندية في أقصى الكرة الأرضية كان يقضي أيامه للدراسة من أجل الرسالة العلمية التي أتى لإنجازها.

كان يود أن يكمل دراسته بإحدى جامعات أوروبا، لكن هذه الجامعة فقط هي التي قبلت تخصصه ومنحته تخفيضًا جزئيًا في المصروفات، فانتقل من القاهرة إلى مدينة سانت جونز عاصمة مقاطعة نيوفاوندلاند الواقعة في الشمال الشرقي من كندا على المحيط الأطلنطي حيث الصقيع والبرد الشديد معظم شهور السنة.

لم يشأ أن يقيم بالمدينة الجامعية حتى لا تزداد عزلته وإحساسه بالوحدة واختار أن يسكن قرب الجامعة بالجزء التجاري من المدينة وذلك حتى يشعر بالونس في هذه العاصمة الهادئة قليلة السكان.

ولما لم يكن له أصدقاء فإنه كان يقصد البارات في المساء ليتحدث مع البشر حتى منتصف الليل ثم يعود إلى غرفته منهكًا فينام. وكثيرًا ما كان يصطحب معه إحدى النساء الوحيدات اللاتي يخرجن في المساء مثله على أمل لقاء رجل يجدن لديه الدفء والأمان.

غريبة هي الوحدة الضاربة أطنابها في نفوس الجميع هنا، والأغرب أن الكل تواق إلى التلاقي والتعارف، لكن لا أحد يبادر بأخذ الخطوة الأولى خشية أن يتعرض إلى جرح مشاعره!.

لهذا فقد نشأت سلسلة من المحال التي تقدم المشروبات عرفت باسم "ليلة الخميس" كان الغرض منها أن يذهب الرجال الوحيدون والنساء الوحيدات من أجل التلاقي والتعارف.

إدراكه لتلهف الناس هنا على الحب والتواصل منحه جرأة في التعرف إلى النساء وهو مطمئن أن واحدة لن تكسر خاطره حتى لو لم تكن راغبة في علاقة.

عرف نساء كثيرات وأقام علاقات متعددة، لكنه رغم ذلك كان يتلهف على معرفة فتاة صغيرة وجميلة مفعمة بالحيوية والتفاؤل والبراءة، بخلاف أولئك النسوة المحمّلات بالذكريات والمرارات الكاسرة للقلوب من العلاقات السابقة التي تراوحت بين الحب المجهض والحب المرفوض.

قضى ليال على النت يجوب مواقع الدردشة ويحرث الفضاء بحثًا عن الفتاة المطلوبة، وأنفق الكثير من الوقت في الدردشة والمحادثة، لكنه لم يجد من تملأ خياله وتلهمه فيمنحها حبه ومشاعره.

كان في البداية يبحث في محيط سكنه، ثم قام بتوسيع الدائرة لتشمل خمسة عشر كيلو مترًا خارج نطاق المدينة ثم شمل البحث منطقة الساحل الشرقي كله متضمنًا مقاطعة نوفاسكوتشيا وبها مدينة هاليفاكس ثم دخل على مقاطعة نيوبرونزويك.

كان يضيق بمن تريد محادثة بذيئة وينصرف عنها متجهًا إلى حجرة أخرى للدردشة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قام بتجربة الحجرات الرومانسية وحجرات القلوب الوحيدة، ودخل على حجرات للبنات فقط ولاحقته السخافة في غرف المراهقين، ومع ذلك لم يظفر بمطلبه.

عجب لنفسه أنه كان قبل أن يأتي إلى كندا ويستقر بهذه المدينة للدراسة يعتقد أن كل الفتيات الغربيات الشقر هن بالضرورة جميلات، ثم اكتشف أن قلة نادرة منهن يمكن أن توصف بالجمال، ويقل العدد كثيراً إذا أضفت إلى الجمال الثقافة وخفة الدم.

قام بتوسيع النطاق فدخل إلى غرف المحادثة بالفرنسية التي يتقنها وضم مقاطعة كيبك إلى ساحة البحث.

بعد عدة أسابيع أعيته المحاولة فدخل على موقع "ياهو" الذي سمع أن به قسماً كبيراً لراغبي التعارف والباحثين عن توأم الروح فوجد استمارة تتعلق بمواصفات الرفيق ومواصفات الطالب. قام بملئها وكتب: شقراء، متوسطة الطول، دقيقة الملامح، مرحة، ساخنة، لا يهم الدخل السنوي، لا يهم نوع الوظيفة، لا تحب القطط والكلاب، حنونة، السن لا يتعدى 35سنة. ثم انتظر النتيجة ففوجئ بأن الموقع يطلب منه حتى يفتح له الباب أن يدفع مبلغاً من المال بكارت الائتمان نظير هذه الخدمة. وعلى الرغم من حذره الدائم من وضع رقم بطاقته البنكية على النت إلا أنه جازف وقام بتحويل المبلغ المطلوب.

لكنه صدم أن النتيجة لم تكن جيدة والحصيلة كانت ضئيلة للغاية، واكتشف أن إحدى المواصفات التي كتبها وقفت عائقاً في وجهه وهي (لا تحب القطط والكلاب) وعرف أن المرأة هنا تحجم عن معرفة رجل لا يحنو على الحيوانات الأليفة!..

اضطر أن يقوم بالتعديل ويحذف هذا الشرط فانفتحت أمامه مغارة علي بابا وبها من كل صنف.. نساء.. صبايا.. مُزز.. أحمدك يا رب.

لمح صورة واحدة من طالبات التعارف رآها تمثل النموذج الذي يهواه، وقرأ البروفايل الخاص بها فوجدها تعمل طبيبة، كما ذكرت أن دخلها مرتفع (في الحقيقة لم تكن تعنيه مسألة الدخل هذه لأنه لم يكن يبحث عن امرأة تنفق عليه) ووضعت صورة جميلة التقطت لها في حديقة البيت الذي تسكنه، وللصدف الحسنة كانت تسكن في مدينة قريبة بنفس المقاطعة.

أكمل قراءة الصفحة فوجدها صريحة للغاية ولا تريد أن تثير في الرفيق المرجو آمالاً كاذبة فكتبت عن نفسها أنها مشغولة معظم أيام الأسبوع بالعمل المتصل ولا تستطيع أن تلتقي بالرفيق كثيراً، لذا فكل ما تريده منه هو لقاءات قصيرة ساخنة! ولا تود من الرجل أن يفكر في الإقامة معها في بيتها أو يطلب منها أن تنتقل لبيته.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شعر أن هذه الشروط قد تكون مغرية بالنسبة لـه لأنـه أيـضًا لم يكـن يريد واحدة تكلبش في رقبتـه . . لكـن ضـايقه أنهـا ليـست عاطفيـة ولا يشغلها الحب كثيرًا .

مع هذا قرر أن يجرب ويرسل لها .

أتاه ردها بعد يومين وطلبت منـه أن يـدخل علـى المـسنجر في موعـد حددته له .

عندما كان يحادثها أدرك من طول فترات غيابهـا في الـرد أنهـا تحـادث آخرين في الوقت نفسه ، وعندما سألها عن ذلك لم تنكر وأخبرته صراحة أنها تحادثه هو وثلاثة آخرين لتنتقـي مـن بيـنهم واحـدًا! . . وعلـى قـدر حماسه في البداية لأن يحظى بهـا فإنـه شـعر بعـدم رغبـة في أن يكـون هـذا الرجل الذي ستسمح له بلقاءات قصيرة ساخنة! . . وبعد قليل انـصرف عنها وأغلق الكمبيوتر .

بعد عدة أيام وكان لا يزال يجوب الفـضاء الإلكترونـي وقعـت عينـاه على فتاة جميلة تميل إلى النحافة كما يحب البنت أن تكـون وشـعر بارتيـاح عند النظر إليها . أدهشه أنها كانت تطلب صديقًا يفهمها ويحس بهـا ولا تطلب حبيبًا ! .

قام مـن فـوره بمراسـلتها ولم ينتبـه في البدايـة إلى أنهـا تـسكن مدينـة فانكوفر في أقصى الغرب الكندي علـى سـاحل المحـيط الهـادي! . كـان

ردها مشجعًا ودخلت معه في محادثة مباشرة عن طريق المـسنجر فأخبرهـا أن اسمه عادل وعرف أن اسمهـا "ليـا" . قالـت لـه إنهـا بعـد المدرسـة الثانوية التحقت بالعمل في أحد المولات بوسط فانكوفر حتى تتمكن مـن الإنفاق على دراسة الموسيقى بأحد المعاهد ، وكانت تعيش مع صديق لهـا لثلاث سنوات ثم انفصلت عنه منذ وقت قصير وتحاول أن تلملم نفـسها عاطفيًا في الوقت الحالي .

سألها إن كانت تحب الدخول في تجربة عاطفية جديدة فأبـدت تخوفهـا وإن كانت لم تغلق الباب .

كان يعود كل يوم من الجامعة ويظل يتسكع حتى موعـد عودتهـا مـن العمـل ودخولهـا علـى النـت في العاشـرة مـساء . أعجبتـه صـراحتها وبساطتها وأدهشه أنها لم تسأله من أي بلد هو . . لقد كان قد أعد نفـسه لأن يحكي لها عن مصر ويقص عليها ما يبهرهـا لكنهـا لم تـسأل ، فلمـا أبدى دهشته من عدم اهتمامها بمعرفة أصله أجابت بأن كنـدا بلـد متعـدد الثقافات والأجناس ولا أحد يسأل عن تـاريخ أحـد . .الجميـع كنـديون وهذا يكفي . لكنها أضافت بأنه يسعدها سماعه لو كـان يحـب أن يحكـي لها عن موطنه الأصلي . شعر بخيبة أمل عندما لم تعرف أين توجد مصر وأدهشه أنها سمعت بمنطقة اسمها الشرق الأوسط لكنها لا تعرف أسماء بلدانها باستثناء إسرائيل . صارحها بأن إسـرائيل هـي كيـان سـرطاني في المنطقة وأعطاها موجزًا للتاريخ الإجرامي للدولة العبريـة فأبـدت دهـشة شديدة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يسمح لجهلها بالجغرافيا والتاريخ أن يفسد علاقته بها . والحقيقة أنه وجد معرفتها بالعالم محدوداً مثل معظم الناس في أمريكا الشمالية ، لكن للحق كانت تملك ذوقًا موسيقيًا رفيعًا وشاركته الغرام بالموسيقى الكلاسيك . قص عليها ذكرياته بجامعة عين شمس حيث تخرج وروي لها جانبًا من علاقاته العاطفية كما طلبت ، وكان سعيداً لأنه يحكي لها بلا تحفظات دون أن يخشى عاقبة هذه الصراحة ، على العكس من الأمر في مصر حيث الكذب ضروري لإنجاح العلاقات ! . كانت مبهورة بثقافته وأخبرته أنها لم يسبق لها أن تعرفت بشخص مثله يتأهب لمناقشة الدكتوراه وقارئ جيد للأدب العالمي ويتحدث ثلاث لغات ويعرف تاريخ كندا أكثر مما تعرفه هي ، كما يلم بالأحداث السياسية في العالم كله ، ورأته مختلفًا عن كل من حولها من الذين لا يعرفون من الدنيا سوى مقاطعة كولومبيا البريطانية ! .

مع الأيام أخذت العلاقة بينهما تنمو وأحست بألفة شديدة نحوه فحكت له عن أبيها القاسي الذي لم يهتم بها أبداً ، كما حدثته عن أمها التي هربت مع رجل أحبته وتركتها مع أخيها الصغير ، وسالت دموعها وهي تروي ذكرى أيام طويلة مريرة قضتها وحيدة .

في هذه الليلة عندما آوى إلى فراشه سأل نفسه : لماذا كلما توطدت علاقته بفتاة بدأت تحكي له عن أشياء مأساوية؟ ولماذا تبدو الواحدة في البداية مرحة ولطيفة لكنها ما إن تثق به وتأنس إليه حتى تفتح ألبوم

الذكريات التي تكون بالضرورة مؤلمة وكئيبة . حدث له هذا كثيراً في مصر وخارج مصر . . فهل الإناث في العالم كله هكذا؟ . لكنه تغلب على تساؤلاته عندما تذكر جمالها ورقتها وفيض رومانسيتها التي يحتاجها في غربته ووحدته وصقيعه الداخلي .

أخبرته ذات ليلة أنها لا تذهب إلى الكنيسة إلا نادراً وسألته إن كان هذا يسوؤه! . أجابها بأنه أيضًا لا يذهب إلى الكنيسة . . وإن كان يذهب أحيانًا إلى الجامع ، وشرح لها أنه مسلم فلم تفهم ماذا يعني ، كما لم تبدُ مهتمة بأن تعرف المزيد عن دينه .

بعد مرور أسبوعين على بدء تعارفهما ومحادثتهما الليلية بدأت تفصح له عن مشاعرها التي تحركت نحوه حتى كأنها تعرفه من زمان . وللمرة الأولى طلبت أن ترى صورته ، وأسعده أنها ازدادت اندفاعًا نحوه بعد أن أعجبها شكله ، وصارحته بأنها كانت تخشى أن يكون قبيحًا.!

قالت له : أما آن الأوان لأن نلتقي؟ فسألها إن كانت تستطيع المجيء لزيارته في سانت جونز ، لكنها أكدت استحالة هذا لأن ثمن تذكرة الطائرة مرتفع ويفوق قدرتها . . حتى القطار الذي يقطع الرحلة في أربعة أيام لا تقدر على تذكرته ! .

حملت الليالي التالية بالنسبة له استمالات عاطفية مؤثرة لم تكف فيها عن ترديد أنها تتطلع إلى لقائه بفارغ الصبر وأنها لم تشعر بحب جرف ومشاعر فياضة مثلما تشعر الآن معه ، وسرح مع الأحلام عندما كتبت له

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنها تتمنى أن تنام وتستكين في حضنه . سألها إن كان يستطيع أن يزورها في بيتها فردت بأنها ستكون أسعد إنسانه في الدنيا إذ تستقبله ضيفًا في الأستوديو الذي تسكنه لأي مدة يريدها .

وجد نفسه هو الآخر مشدوداً إليها وأحس بأن سعادة كبيرة تنتظره في صحبتها ، لكنه أشفق على نفسه من زمن الرحلة ومن ثمن التذكرة ، فسبع ساعات طيران هي نفس زمن الرحلة من مصر إلى تايلاند ، ولهذا كان يتطلع إلى رفقة صديقة تعيش بمدينة سانت جونز أو بالقرب منها ، لكن النصيب جعله يعثر على فتاة الأحلام في أقصى الغرب وعليه الآن أن يدبر ثمن الرحلة ثم يعاني طوال الأشهر القادمة من الإفلاس .

أخذ القرار الجريء وأخبرها بأنه قادم إليها وحدد يوم الحادي عشر من سبتمبر موعداً لزيارتها التي قدّرها ستستمر أسبوعًا فقط حتى لا تتعطل دراسته . طلبت منه أن يطيل الزيارة ويجعلها شهراً بأكمله فوافق ونسي الدراسة ! .

بدأ العد التنازلي والشوق بينهما يرتفع والحوارات تزداد حرارة ، ثم بدأت ترسل له قبلات عبر الهواء وأحس أنه لا يستطيع الانتظار ، كما راودته فكرة الزواج بها لأنه لا يريد لعلاقتهما أن تكون عابرة وموقوتة ببقائه في كندا وإنما تمنى أن يأخذها لتعيش معه إلى الأبد .

أخيراً جاء يوم الثلاثاء **11**سبتمبر . . موعد لقاء الحبيبة فاستيقظ مبكراً وأعد حقيبته ثم حملها إلى المطار .

عندما خطا أول خطواته داخل صالة السفر لاحظ تجمهراً حول شاشات العرض التي تبث الأخبار ووجد قناة CNN تضع عنوانًا إلى جانب الشاشة : " أمريكا تحت الهجوم " فلم يفهم الأمر في البداية وتابع الأنباء التي تحدثت عن طائرة ركاب أمريكية تصطدم بأحد برجي مركز التجارة العالمي وضحايا بالآلاف .

أخذ ينظر للشاشة غير مصدق ، وبينما الكاميرات تركز على صورة أنقاض البرج المضروب وسحابات الغبار التي ترتفع في الجو إذا بالمفاجأة الرهيبة تحدث أمام عينيه على الهواء بالصوت والصورة لطائرة تقترب من البرج الآخر ثم تصطدم به وتخترقه وتخرج من الجهة الأخرى وكتلة من اللهب تأخذ مساحة الشاشة بأكملها ! .

وقف وسط الناس مشدوهًا بالحدث وقد شلّت الدهشة تفكيره ووجد كل الواقفين إلى جواره في حالة ذهول مثله ينظرون إلى بعضهم البعض ثم يعاودون التحديق في الشاشة .

عاد إلى البيت بعد أن تم إلغاء كل الرحلات في أمريكا الشمالية انتظاراً لجلاء الموقف وزوال الخطر ، وبدأ يتابع الأخبار من البيت .

أراد أن يتصل بحبيبته " ليا " التي لا شك عرفت بما حدث وأدركت أنه لن يستطيع المجيء ، فاكتشف للمرة الأولى أنه لا يعرف رقم تليفونها وتذكر أنهما كانا قد اتفقا على عدم الكلام في التليفون وانتظار اللقاء وجهًا لوجه .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دخل على المسنجر فلم يجدها ورجّح أنها ذهبت للعمل . في المساء وعند موعد حديثهما كل ليلة فتح الكمبيوتر فلم تظهر أيضًا مما جعله يتوتر ويخشى أن يكون مكروهًا قد ألّم بها .

قام بكتابة رسالة إلى بريدها الإلكتروني وطلب منها أن تدخل إلى المسنجر لكنها لم ترد .

قضي ليلته مؤرقًا وشاعراً بالعجز وأرسل لها أكثر من رسالة دون فائدة .

في اليوم التالي ظل على الكمبيوتر يترقب ظهورها ولم تتوقف رسائله إليها .

قبل أن يغرق في النوم على كرسيه عند الفجر لمحها تظهر على المسنجر ففرك عينيه وسارع يناديها : ليا حبيبتي . . أين أنت ، لقد قلقت عليك منذ الأمس . . أين كنت يا حبيبتي؟ . اليوم أعلنوا عن قرب استئناف الرحلات الجوية مرة أخرى وسأقوم بالحجز من جديد لأحضر إليك بعد يومين أو ثلاثة . . ليا . . لماذا لا تردين؟ . ليا . . هل ستتركينني أكلم نفسي؟ . بعد فترة مرت كأنها دهر كتبت له : عادل . . هل أنت مسلم؟ .

أدهشه سؤالها لكنه رد : نعم مسلم وقد أخبرتك بهذا من قبل .

اختفت من على الشاشة ولم تظهر بعدها مرة أخرى! .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفاة أعز أصدقائي

عندما حضر رامي إلى البحرين ليعمل معنا في الشركة كانت . فرحتنا به كبيرة نحن المصريون الذين تغص بهم المؤسسة . كانت بشاشة وجهه ودماثة خلقه ووسامته الظاهرة أبوابًا دخل منها إلى قلوبنا .

الأجمل أنني وجدته عاشقًا لمحمد منير وعلي الحجار ولديه تسجيلاتهما كلها ، كما أسعدني حبه للسينما وفرحت لأنني وجدت أخيرًا من يقبل أن يشاركني هوسي بالأفلام . أخذته منذ يومه الأول وأوجدت له سكنًا معي بنفس البناية في شقة تعلو شقتي بمنطقة "الجفير" القريبة من الخليج بمدينة المنامة ، وتطوع آخرون لمساعدته في فرشها فكانوا يتجولون معه في الأسواق حتى اكتمل كل شيء واستقر في إقامته .

كنت سعيداً باصطحابه معي إلى العمل ذهابًا وإيابًا . . حتى أطفالي أحبوه وتعلقوا به وصاروا ينتظرونه كل مساء عند عودته ومعه الشوكولاتة واللعب . إلى هذا الحد كانت مودته مع الجميع . الخلاصة أنه أدخل البهجة على مكان العمل حيث كنا نلتقي في الصباح ، ونقل ذات البهجة إلى البيت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أذكر أنني كنت أقدمه للأصدقاء على المقهى في المساء بعد قدومه مباشرة، وكان يدهشني أنني أجد من قدمته لهم بالأمس ساهرين عنده في البيت في الأمسية التالية! . . بهذه السرعة كان يعقد الصداقات ويقتحم القلوب حتى إن الكثير من السيدات اللاتي كنا نعرفهن قد تبارين في إحضار العرائس له وعرضهن عليه، وكل منهن تمني النفس بأن يكون من نصيب ابنتها . حتى بعد أن عرفنا أنه مرتبط وأن خطيبته بالقاهرة تقوم ببعض التجهيزات قبل أن تلحق به لتزف إليه في البحرين، فإن هذا لم يؤثر على الموقف منه ولا غير من المشاعر الطيبة نحوه .

في هذا الوقت كانت "عصمت" المعروفة لدينا بأم المصريين لطيبتها وحنوها علينا وتدخلها في أحوال كثيرة للحئول دون "تفنيش" أحد المصريين من خلال علاقاتها الواسعة والمتشعبة بحكم أنها تقيم بالبحرين منذ عشرات السنين . . كانت عصمت تذهب معي أنا ورامي إلى الجمعية الاستهلاكية وبالذات إلى برادات الجزيرة التي كان يحبها رامي لتشرف بنفسها على شراء احتياجات الأسبوع الخاصة به، وكثيراً ما كانت تفاجئنا بصينية أو طاجن صنعته بنفسها تدخل علينا به في الأمسيات، وقد زادت مفاجآتها الدسمة كثيراً بعد مجيء رامي .

كنا نذهب مرتين أو ثلاثة كل أسبوع إلى السينما وكنا زبونين مستديمين على سينما الدانة القريبة من منطقة "السنابس" أو سينما سار .

انتظرته ذات صباح في السيارة أسفل البناية كالمعتاد ليذهب معي للشركة لكنه لم يظهر . صعدت إلى شقتي واتصلت به تليفونيًا فلم يرد . دفعني القلق للصعود إليه . وضعت أصبعي على جرس الباب وأرهفت السمع . وخيل إليّ أنني سمعت صوتًا خفيفًا بالداخل لكن هذا الصوت انقطع وساد الصمت . لم أعط للأمر أهمية كبرى وذهبت للعمل وحدي .

أثناء النهار أخبرني الزملاء أنهم اتصلوا به كثيراً دون جدوى . قمت بالاتصال بعصمت عسى أن يكون لديها أخبار عنه فنفت أن تكون قد رأته منذ بضعة أيام .

عند رجوعي في المساء طرقت عليه الباب فلم يفتح أيضًا . انقبض قلبي وخفت أن يكون قد ألمّ به مكروه .

قبل أن أذهب إلى النوم عند منتصف الليل قمت بمحاولة جديدة وطرقت الباب بعنف ويدي الأخرى على الجرس لا تبرحه . سمعت خطوات تأتي من بعيد فدق قلبي بالفرحة، وبعد ثوان انفتح الباب ورأيته يفرك عينيه كالقائم لتوه من نوم أهل الكهف وكان يسعل بشدة وشعره مشعث وغارق في عرق غزير .

ما بك؟ . . قلت له، فرد وهو يتثاءب: ياه . . يظهر أني نمت طويلاً دون أن أدري! شهقت من الدهشة: نمت طويلاً دون أن تدري؟ لقد أفزعتنا يا بني آدم . . طول اليوم ونحن نتصل بك، ما لك هل أنت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مريض؟ قال: يبدو أن حالة التسمم التي أصبت بها العام الماضي في مصر ما زالت تترك عليّ بعض آثارها على شكل نوبات طويلة من النوم الذي يشبه الإغماء، تلك الحالة التي تعاودني من وقت لآخر. لم أكن أعرف شيئًا عن حالة التسمم هذه لكن منظره أخافني.

عرضت عليه أن يأتي معي إلى المستوصف القريب لكنه هوّن من الأمر وطمأنني إلى أنه بخير وأنه سيذهب بنفسه إلى المستشفى حتى يطمئن ويطمئننا، قال هذا وهو يمد يده إلى زجاجة دواء الكحة التي على المنضدة. أعدت عليه عرضي بالذهاب إلى الطبيب فربت على كتفي وهو يضحك ويرفع زجاجة الدواء إلى فمه ويشرب ما يزيد على نصفها مرة واحدة ثم يقول لي: لا تخف عليّ، أؤكد لك أنني لن أموت الآن، أمامي أشياء كثيرة لم أفعلها بعد ولا أنوي أن أموت قبل أن أتمها، عندي زوجة لم أدخل بها وأطفال لم أنجبهم وأفلام لم أشاهدها وحفلات لمحمد منير لم أحضرها وطواجن حمام بالفريك لم ألتهمها ونُكت لم أضحك عليها، ثم أردف: أولست أنت القائل إن أجمل دقيّة بامية هي تلك التي لم نأكلها بعد؟ قلت له: بلى أنا القائل بهذا. فقال: خلاص.. اطمئن وانزل نام. قلت: ألم تلاحظ أنك شربت معظم زجاجة الدواء يا مجنون؟ نظر نحوي في دهشة وقال: غير ممكن.. أنا لم أشرب منها سوى جرعة صغيرة تساوي ملعقة. قلت: وهل الدواء يتم شربه بالزجاجة؟.. أخذني من يدي حتى باب الشقة وفتح الباب وهو يدفعني في رفق وأوصلني إلى المصعد وهو لا يكف عن الضحك!.

عندما اجتمعت شلة الأصدقاء للتباحث في أمره عللت عصمت المسألة بأنه يشعر بالوحدة ويحتاج إلى أن يتزوج بأسرع وقت ممكن، وأرجعت الأمر كله إلى حالة اكتئابية بدأت أعراضها في الظهور.

بعد يومين حضرت عصمت لزيارتي وكانت منزعجة للغاية بعد أن نزلت من عنده. سألتني إن كنت قد لاحظت آثار الإبر المنتشرة في ذراع رامي. قلت لها إنه أخبرني أنها نتيجة المحاليل التي علقوها له بالمستشفى التي ذهب إليها وحده.

رمقتني بنظرة حائرة وتساءلت: وهل تصدق هذه الحدوتة؟. قلت مذهولاً: ماذا تقصدين.. إياك أن تكوني تقصدين.. قالت: نعم أقصد ذلك ويجب أن نتحرك لإنقاذه.

قلت لها: لا شك أن حرصك عليه هو الذي جعل خيالك يشطح لبعيد.

قالت: ليت الأمر يكون كما تتمنى لكنني اليوم تلقيت مكالمة من صديق في الشرطة طلب مني أن أذهب لزيارته، وفي مكتبه قال لي: نحن نعرفك من زمان وأنت نعم الأخت ونعم الصديقة، لهذا نود أن ننبهك أن صدفة عجيبة وضعتك في حالة تماس مع عملية كنا نرصدها، فلما سألته في فزع عن الأمر قال: كنا نراقب تاجر مخدرات ونرصد تحركاته ووجدناه يصعد لشقة رامي وبعد نزوله تصادف صعودك إلى رامي.. لهذا أحببنا أن ننبهك إلى تحذيره من لقاء الأشقياء لأن القانون لن يرحمه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عندما صارحت رامي بهذه الأشياء ضحك بمنتهى البراءة وقال إنه يقدر اهتمامنا به ولكن لا يجب أن يشتط بنا الخيال إلى حد تشويه سمعته!

لم أعد أنتظره في الصباح لأنه كان يتسبب في تأخيري عن العمل، ثم أصبح غيابه المتوالي أمرًا عاديًا وبدأت معاملته في الشغل تتغير ونال تنبيهات ولفت نظر ثم إنذارًا بالرفت.

شعرت أنني أحمل مسؤولية عنه وأن من واجبي أن أحميه من نفسه فقررت أن أفعل أي شيء. قمت بالاتصال بوالده في مصر وحكيت له بعضًا مما يمر به رامي واقترحت عليه أن يعجل بتزويجه، ففوجئت بالرجل يسب ويلعن ويؤكد أن هذه العروس هي سبب مشكلته وأنه قد خطبها دون رضى منه وهو لا يتمنى لهذه الزيجة أن تتم.

قلت للرجل: إن المشكلة أكبر من موضوع الزواج لأننا نعتقد أن رامي يتعاطى المخدرات. صرخ الرجل في التليفون مؤكدًا أن ابنه "زي الفل" ولا يمكن أن يكون كلامي صحيحًا فلما أكدت له أن حبنا له وحرصنا عليه هما سبب اهتمامنا رجاني ألا أردد هذا الكلام واستحلفني أن أرعى رامي وآخذ بالي منه. طلبت منه أن يأتي ليرى بنفسه فاعتذر بكثرة المشاغل!.

حرصت بعد ذلك ألا أترك رامي يأكل وحده فكنت أناديه ليتناول الطعام معنا في البيت. وكان هناك مجمع سينمائي جديد قد ظهر هو مجمع "السيف" الذي يضم عددًا كبيرًا من قاعات السينما فكنت أصطحبه إلى هناك لنشاهد فيلمًا جديدًا كل ليلة.

بعد السينما كنا نطوف بالسيارة عبر دولة البحرين كلها متنقلين من المحرق إلى المنامة ثم نعبر جسر "سترة" وندخل إلى منطقة النبيه صالح ونصل إلى منطقة سند ونتجول بها ثم نوغل حتى حي العكر والمعامير والنويدرات ثم نعود على أعقابنا ونكمل التسكع بالسيارة تصاحبنا شرائط منير ونصل إلى "الرفاع" ثم نتسكع في شارع البديع قبل أن نتوجه إلى منطقة الدبلوماسيين بحي "سار" التي يقطنها الأجانب ونعود آخر الليل.

كانت خطتي أن أنهكه تمامًا حتى يعود فينام على الفور.

حمدت الله على أن حالته تحسنت واسترد شهيته للطعام وبدأ يعود نفس الشخص الذي عرفناه وأحببناه.

بعد عدة أيام فاجأنا بأنه سينزل في إجازة بمصر ولن يعود إلا وفي يده عروسه.

افتقدناه في غيابه وشعر كل منا بأن شيئًا أساسيًا في حياته قد نقص. عندما عاد كان بادي السعادة وأخبرنا أنه نجح في إقناع والده بالعروس وحصل على رضاه، كما بشرنا بأنها قادمة بعد أسبوع.

اتفقنا جميعًا على أن نتقاسم نفقات إقامة حفل له في قاعة محترمة نقوم بتأجيرها، ونزلت معه عصمت لشراء فستان الزفاف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في مساء اليوم التالي صعدت إليه لأصطحبه إلى القهوة على الخليج حيث الأصدقاء في انتظارنا . لاحظت أنه وبينما يفتح الباب يتلفت في قلق ، وعندما خطوت داخل الشقة لمحت شبح شخص يرتدي دشداشة يختفي داخل إحدى الغرف .

سألته : هل لديك ضيوف؟ أفزعني أنه أنكر واعتذر بعدم استطاعته الخروج معي . وقفت طويلاً بصالة الشقة أحملق فيه ولا أدري ماذا أفعل . . هل أندفع وأقوم بضبط المختبئ بالداخل مع ما يحمله هذا من انهيار مؤكد في علاقتي برامي ، أم أنسحب في هدوء؟ .

تركته وأنا في غاية الحزن ولم أعد مطمئنًا لأي شيء بشأنه . صارحت عصمت بمخاوفي فأعربت عن أن هذا الشخص الذي اختبأ عند قدومي لا بد وأن يكون تاجر الصنف الذي يمده بالمخدرات . قضيت ليلة عاصفة أسأل نفسي عن واجبي بعد أن تأكدت من حالته وما الذي أستطيع أن أفعله لأنقذه من المصير الذي يندفع إليه .

في الأيام التالية كنت أبدو هستيريًا وأنا أناقشه بمنتهى العنف ثم بمنتهى اللين وأهدده ثم أحتضنه وأصرخ في وجهه ثم أبكي وأنا أتمنى عليه أن يقلع عن تعاطي الهباب الذي يأخذه . كان يضحك ويتهمني بالهلوسة وأشار عليّ بأن أرى طبيبًا ! .

أصبح أملي الوحيد هو أن تأتي عروسه وأن تنجح فيما فشلنا فيه .

قبل حضور العروس بليلة واحدة اتصل بي ودعاني إلى العشاء مع شلتنا التي قام بدعوتها في شقته للاحتفال بآخر أيام العزوبية . اعتذرت عن العشاء لأني كنت قد اعنزمت أن آخذ أولادي إلى الملاهي ، لكني وعدته بأن أمر عليهم بعد عودتي .

عندما كنت أضع المفتاح في الباب كان جرس الهاتف يرن في شقتي ، لكنه توقف عن الرنين قبل أن أرفع السماعة .

تذكرت رامي وكنت قد أحضرت له بعض الحلويات لزوم السهرة .

قبل أن أخرج دق جرس الباب دقًا طويلاً متصلاً . تساءلت عن هذا المزعج الذي لا يرفع إصبعه عن الجرس . لما فتحت الباب وجدت أحد زملائنا ممتقع الوجه وما إن رآني حتى أخذ يهزني في عنف ويبكي وهو يسألني : أين كنت . . أين كنت؟ سألته في رعب : ماذا دهاك يا مجنون؟ فألقى الخبر في وجهي : رامي مات .

مادت الأرض بي ثم نظرت إلى أفراد أسرتي فرأيتهم متسمرين من الذهول بعد أن سمعوا الخبر . احتضنت أولادي وهدأت من روعهم وأنا لا أكاد أستوعب ما حدث .

قفزت السلم وجسمي يرتعش بشدة ودخلت إلى الشقة التي توافد عليها أناس كثيرون علموا بالخبر من أصدقائنا الذين كانوا عنده بالبيت . وجدته مسجى على السرير فظللت أنظر إليه في دهشة ولا أتكلم حتى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خشي على الموجودون فأجلسوني وهم يرددون: صلي على النبي. . البقاء لله.

قلت لهم: أنا أعلم أن البقاء لله لكن لماذا لا يتحرك رامي؟.

جلست أسمع الحكاية وقد تملكتني رعشة لا تريد أن تنتهي.

قالوا لي أنه استأذن منهم ودخل الحمام، ولما طال غيابه طرقوا الباب فلم يرد فكسروه ودخلوا ليجدوه ممدداً على الأرض وقد فاضت روحه. قمت ونظرت في الحمام فوجدت فوضى شديدة وأخبرتني الصورة التي رأيتها بالسيناريو الذي حدث. رأيت على الأرض حزاماً معقوداً وملعقة وولاعة وفص ليمون معصور وسرنجة فارغة ملقاة إلى جانبه، كما وجدت زجاجة صغيرة مغلقة تحوي بودرة بيضاء. فأدركت أنه وضع البودرة في عصير الليمون وقام بتسخين المزيج في الملعقة ثم سحبه بالسرنجة وحقن نفسه، ولما كانت الجرعة أكبر من اللازم فقد شعر بالاختناق وحدث له هبوط بالدورة الدموية فسحب الحزام المعقود حول يده، ومادت الأرض به فتعلق بالحوض والمرآة ثم سقط ساحباً معه كل ما طالت يديه.

ورغم أن الموت يهز البشر هزاً عنيفاً ويجعلهم يخشعون لسلطانه، ورغم أنني ظللت أرتعش عدة أيام من هول فقد صديقي بهذا الشكل المأساوي، فإن هناك من البشر ضباعاً ضارية تقتات على اللحوم الميتة. . منهم أحد الزملاء الذي لا أدري كيف واتته الجسارة ونحن نقف

على رأس صديقنا الميت لأن يجوس بالشقة يتفحصها والدواليب يفتحها والأدراج يلملم ما بها مما خف حمله وغلا ثمنه حتى ملأ حقيبة كبيرة لا أدري متى وكيف أحضرها. . ملأها بالتحف والمقتنيات التي كان المرحوم خبيراً بها، ثم وضعها بجوار باب الشقة وعاد إلينا ينعي الفقيد ثم حملها وخرج. . ولا يفيد بشيء أن أروي ماذا فعلت به في ثورتي الجنونية بعد أن نبهني البعض لما فعله زميلنا الكافر.

عدت إلى رامي بعد أن استخلصت أشياءه من اللص وصرخت فيه وهو ميت: أرأيت. . أنت الذي فعلت بنفسك هذا. . لو أنك لم تقتل نفسك لما جرؤ الكلب الذي كان يتودد إليك كل يوم على انتهاك بيتك. . ثم سقطت مغشياً عليّ.

احتجت إلى فترة طويلة لأتخلص من إحساسي بالذنب نتيجة شعوري بالتقصير والإهمال في حمايته، رغم أنني عرفت أن أباه كان على علم بإدمانه الهيروين وكذلك خطيبته وأهلها وأنهم أرسلوه إلى البحرين ليبتعد عن رفاق السوء في مصر، لكن من الواضح أن هؤلاء الرفاق يسهل عليهم جداً أن يهتدوا إلى بعضهم البعض في أي مكان. اليوم بت مقتنعاً بأن شيئاً لم يكن في الإمكان فعله لمنعه من ملاقاة مصيره المحتوم. . . رحمه الله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سفاري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هبطت الطائرة في مطار نيروبي، ورغم أن البداية لم تكن لطيفة حيث إن رجال الجمارك لم يمنحوه الختم على الجواز إلا بعد أن دفع المعلوم، ومن بعدهم استلمه رجال الجمارك فعاملوه بغلظة وأفرغوا حقيبته مما بها وراحوا يعبثون بمحتوياتها ولم ينقذه غير دفع المعلوم.

الغريب أنهم بعد أن تقاضوا منه الإتاوة لم يحسنوا معاملته وكأن ما دفعه لهم هو ضريبة مستحقة وليست رشوة.. فتركوه يجمع ملابسه التي بعثروها ويعيد إغلاق حقيبته.

رغم كل هذا إلا أنه كان فرحًا مستبشرًا ولم يشأ أن يسمح للكدر بالتسلل اليه، وأقنع نفسه أن هذا عادي ويحدث في بلاد كثيرة فقيرة وأن أشياء شبيهة به تحدث أحيانًا في مصر!.

شعر بالإثارة لفكرة أنه أخيراً سيتمكن من القيام برحلة إلى الغابات الكينية الشهيرة، ويصور بالكاميرا فيلمًا يحتفظ به في أرشيفه

كان يحلم بهذه الرحلة منذ زمن ويخطط لها فقرأ كثيراً عن الغابات والمحميات الطبيعية وأنواع الحيوانات كما درس الخرائط وقرأ بعض مذكرات الرحالة الإنجليز الذين كتبوا عن مناطق مثل "ماساي مارا" وقرر أن يأخذ هناك جولة فوقية بالمنطاد الذي يطير فوق المنطقة كاشفًا الحياة البرية في الطبيعة الساحرة وكذلك منطقة ناكور ومحمية تاسفو.

كانت نسائم الصباح الباكر منعشة، والسيارة الأجرة تقطع الطريق إلى فندق هيلتون بقلب المدينة حيث يأخذ قسطًا من الراحة قبل أن تأتي سيارة الشركة السياحية في المساء ليبدأ رحلة السافاري.

في الطريق الطويل إلى الفندق الذي تم شقه وسط الأحرش راح يتطلع إلى أكواخ الصفيح المتناثرة على الجانبين، كما راح يتطلع إلى قوافل الرجال والنساء الذين يسيرون على الأقدام في صفوف غير منتظمة ولاحظ أن من بينهم رجالاً يرتدون بزات كاملة وربطات عنق ونساء يرتدين أزياء مودرن. علّق السائق على المشهد شارحًا له أن هؤلاء المشاة هم موظفون وعمال في طريقهم إلى أشغالهم بالمدينة سيراً على الأقدام، حيث يقتضي توفير ثمن تذكرة الأوتوبيس التضحية ببعض الحيوية!.

أدهشه منظر الأعداد الغفيرة ورغب في أن يسجله بالكاميرا، ولكن نظرة صارمة من السائق أقنعته بالعدول عن الفكرة.

في فندق هيلتون الذي يقع بميدان "أراب موي" أكبر ميادين العاصمة استراح قليلا ولم يشأ أن يضيع ما تبقي من وقت على موعد قدوم السيارة بغير أن يفعل شيئًا، فبدل ثيابه وانطلق إلى الشارع.

كان الزحام شديدا للغاية.. آلاف البشر من كل الأعمار يغص بهم الميدان والشوارع المحيطة. كانوا يجلسون على الأرصفة وعلى المقاعد الحجرية في سيمفونية بصرية شديدة النشاز، ولاحظ بينهم عدداً من الرجال والنساء والأطفال مكوّمون في أحد الأركان والقروح تغطي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجسادهم النحيلة وليس بهم من مظاهر الحياة إلا عيون متسعة تحدق بلا رجاء.

التف حوله جمع من المتسولين راحوا يتبعونه ويمسكونه من ثيابه فأخرج لهم بعض الفكة حتى يصرفهم، لكن هذه كانت غلطة كبيرة إذ إن متسولي الميدان تنادوا والتفوا حوله يجذبونه من ثيابه ويتحدثون إليه بلغة لا يفهمها، فلم يجد أمامه غير أن يعود مسرعًا إلى الفندق ويحتمي برجال الأمن الذين كانت نظراتهم كافية لبث الرعب في قلوب المتسولين فتفرقوا وانتشروا في الميدان.

نصحه أمن الفندق بأن يجلس في الكافيتيريا أو على حمام السباحة حتى يحين موعد رحلته ولا يوغل في السير وحيداً.

جلس في الكافيتيريا وكان يجلس بها عدد من أفراد طواقم شركات الطيران التي تنزل بالفندق. أبصر شخصًا يعرفه فقام وسلم عليه وجلس معه يتناول القهوة.

حكي له الرجل الذي يعيش ويعمل في نيروبي منذ سنوات عن خطورة هذه المدينة التي فاقت كل حد، وقص عليه كيف قام المجرمون ذات ليلة باعتراض طريق أحد الأوتوبيسات وكان يحمل طاقمًا جويًا لطائرة كانت ستقلع من المطار بعد ساعة، وقام المجرمون بإنزالهم إلى الطريق وأخذوا منهم حقائب سفرهم وأفرغوا ما في جيوبهم وخلعوا ساعاتهم وحليهم ثم أمروهم تحت تهديد السلاح بخلع ملابسهم كاملة

واستولوا على اليونيفورم الذي كان يرتديه الكباتن والمضيفات وتركوا الجميع عرايا في الطريق كما ولدتهم أمهاتهم! . ولم ينس أن يخبره أنه شخصيًا يخاف حتى أن يتوقف بالسيارة في إشارات المرور حتى لا ينقض عليه أحد أثناء وقوفه بالسيارة كما فعلوا بأحد القناصل الأوروبيين الذي لقي حتفه عندما رفض أن يخرج ما معه من نقود. سأله: وماذا تفعل عند الإشارة الحمراء؟. قال: إذا وجدت الإشارة حمراء من بعيد فإنني أبطئ في التقدم نحوها حتى تخضر عند وصولي إليها! . قال له: الحمد لله أنني لن أقضي أيامي هنا. . رحلتي كلها ستكون في الغابات الآمنة مع الحيوانات التي لا تؤذي من يسالمها.

كان الوقت يمر بطيئًا خاصة بعد انصراف الرجل، لهذا فقد قرر ألا يجعل الحكايات المخيفة التي سمعها تثنيه عن الاستمتاع برحلته، وكان راغبًا كعادته في الغوص بقلب المكان واستكشاف البشر الذين كان يستمتع بالاقتراب منهم. وتذكّر أنه على كثرة سفراته لم يكن يكترث بالتحذيرات التي توصي بعدم التجول في مناطق معينة في بعض الدول بعد الغروب، وكان منطقه الذي يطمئن إليه أنه يعتبر نفسه قريبًا من هؤلاء الفقراء ولا يتصورهم يفكرون في إيذائه! .

خرج مرة أخرى من الفندق ولم يستجب هذه المرة لأي شحاذ وظل يتجول بالشوارع المحيطة بالفندق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هاله منظر هـذا الجمـع الحاشـد مـن العـاطلين الـذين تمتلـئ عيـونهم بالتحفز والرغبة في الانقضاض وأدرك أن كل هؤلاء الـضائعين يخرجـون بأعداد كبيرة من أحيائهم البائسة وقراهم علـى الأطـراف ويتوجهـون إلى قلب العاصمة فيفيضون علـى الميـدان الكـبير الـذي تنتـشر بـه الفنـادق والمطاعم وشركات الطيران والمحال الكـبرى ويكثـر بـه الـسياح الممتلئـة جيوبهم بالمال .

في أحد أركان الميدان وبجوار مطعم ومبي رأى شخـصًا يرتـدي ثيـاب كاهن وقف يخطب في جمع من الناس بدوا غير مبـالين بـه . كـان الرجـل يرسم دوائر على الأرض ويشرح للناس في أداء مـسرحي زاعـق خطـورة الخطايا التي يرتكبها الإنـسان والـشر المتأصـل في النفـوس وأخـذ يـروي تفصيلات عن الجحيم الذي ينتظر العصاة، ودعا مـن يريـد الخـلاص إلى أن يتبعه . راح السامعون يتضاحكون بينما يزداد هو غلواً وعـروق رقبتـه النافرة تكاد تنفجر من شدة الانفعال .

تابع مشاهداته وتوغل في الميدان ثـم انحـرف يمينًـا إلى شـارع "جومـو كينياتا" ولاحظ أن مكاتب شركات الطـيران والـسياحة جميعهـا أقامـت سياجات حديدية حول واجهاتها الزجاجية، وضاعفت من أفـراد الأمـن والحراسـة الـذين راحـوا يـذهبون ويجيئـون أمـام المحـلات وفي أيـديهم هراوات ضخمة .

كانت خطواته قد أخذته بعيداً بعض الشيء عن الفندق ووجـد نفـسه على غير العادة يحـس بتـوجس ويحـاول أن يقنـع نفـسه بـالعودة والبقـاء بالفندق ولا داعي للمكابرة والتظاهر بمظهر من لا يبالي بالخطوب .

تقدم منه بعض الشباب في الشارع وعرضـوا عليـه أن يقومـوا بـضمه لرحلة سفاري ستنطلق بعد دقائق . شكرهم ومضى في سبيله، ثـم تقـدم منه شخص يحمـل بعـض التماثيـل الخـشبية وألح في محاولـة حملـه علـى الشراء . اعتذر بلطف واستدار فاصطدم بشاب ابتسم له وعرض عليـه أن يشتري الدولار منه بسعر مرتفـع . أخـبره أنـه لا يحمـل دولارات . قـال الشاب : أي عملات . . إسترليني، فرنكات، أي شيء .

بدأ القلق يتسلل إلى نفسه لوجـوده وحيـداً في مدينـة يـسكنها الجيـاع وأحس أن كل الموجودين بالشارع ينظرون إليه ويخططون لـسلبه مـا معـه من مال .

قرر أن ينهي كل هذه الهواجس ويستمع لصوت العقل ويعود .

عندما استدار للعودة إلى الفندق سمع جلبة وصياحًا علـى الرصـيف المقابل فالتفت ليشاهد رجلاً أسود يجري بأقصى سرعته حاملاً زوجًا مـن الأحذية، وفي أثره رجل آخر حـافي القـدمين يلاحقـه بكـل قـوة . كـان الرجل الثاني آسيوي الملامح وربما كـان يابانيًـا . وتـذكر النـصيحة الـتي سخر منها عندما سمعها والتي شددت عليه ألا يخلع حـذاءه لأي ماسـح أحذية يعرض عليه تلميعه! . وجد نفسه يجري هو الآخـر علـى رصـيفه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مشدوداً للمشهد الغريب على الجهة الأخرى، وغمره شعور بالإعجاب لتصميم الرجل الآسيوي وإصراره على استرداد حذائه عندما قفز في الهواء في حركة سينمائية متعلقًا بقدمي اللص الذي انكفأ على الأرض زاحفًا بجسده على الأسفلت لينقض فوقه صاحب الحذاء ممسكًا به من عنقه، ودارت بينهما معركة قصيرة حسمها الآسيوي بانتزاع الحذاء، ولكن ما كاد ينهض حتى هجم عليه عدد من الشباب الذين كانوا بالشارع وأخذوا يكيلون له الضربات في كل أنحاء جسده ولم يتركوه إلا وقد تمزقت ملابسه واندفع الدم من رأسه ووجهه ليقوم بعد ذلك متحاملاً على نفسه متجهًا إلى صيدلية كانت تقع بالميدان بعد أن فقد حذاءه نهائيًا.

وقع هذا المشهد من نفسه موقعًا سيئًا وأحس بأن شراً مستطيراً يتربص به، فأسرع الخطى عائداً باتجاه الفندق، لكن شابًا ضخمًا قاسي الملامح اعترض طريقه بوقاحة مخيفة وقال له: أنا جائع.. وقف متردداً لا يدري ماذا يفعل ثم تشجع وقال: ليس معي نقود. قال الشاب: بل معك وستعطيني.

أغضبته وقاحة الشاب وبدأت غدد التحدي تفرز في داخله وشعر بالأدرينالين يتساب في عروقه لمواجهة الموقف.. لكنه سمح للعقل أن يتدخل وأن تكون له الغلبة لأنه أدرك أن هذا الشاب ليس وحده بالتأكيد وحتى لو كان وحده فإن المواجهة العنيفة معه قد تكلفه حياته، فقرر أن

يشتري عمره ومد يده في جيبه كي يتقي الشر الذي بدأت نذره في التجمع وأخذ يتلفت حوله، كانت هناك المئات من العيون تتطلع عبر الشارع إلى يده المرتعشة وهي تخرج ورقة بمائة شلن لتعطيها للشاب. نقده إياها ثم أسرع مبتعداً عنه وقد اجتاحه شعور ممض بالعجز وانعدام الحيلة، وكان هذا الشعور مؤلمًا جداً بالنسبة له، لكنه قرر احتماله لأنه أرحم من الموت.

حاول لملمة شتات نفسه وعيناه تدوران بسرعة في كل أنحاء الشارع، وتجمعت كل آماله في تلك اللحظة في فكرة واحدة هي أن يتمكن من الوصول إلى فندقه بسلام.، فراح يمد في خطوه وصارت مشيته أقرب إلى العدو.

وأخيراً ظهر أمامه الفندق وحول مدخله الرئيسي عدد كبير من رجال الشرطة يقومون على حراسته. أبطأ من خطوه حين اطمأن لوجود الشرطة على مقربة منه.

ولكن على حين غرة أطبقت على عنقه من الخلف قبضة حديدية.. قبضة جبارة عاصرة، وأحس بأن قصبته الهوائية تكاد تنكسر من شدة الضغط، وحاول أن يقاوم فلم يستطع، وشعر بأيادٍ عديدة تمتد داخل جيوبه لتفرغها بوحشية، وصكت مسامعه أصوات تمزقات ملابسه في كل مواضعها ثم ضاق تنفسه وبدأت الصور من حوله تشحب وهو يسقط على الأرض بين أيديهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يعرف كم مضى من الوقت وهو مغمى عليه عندما فتح عينيه ليجد نفسه ملقى على الأرض والناس يمشون بجواره يرمقونه بعيون خالية من أي شعور، وقد فقد نقوده وكروت الائتمان وجواز السفر وكل ما كان يحمله في جيوبه، وتعرت أجزاء كبيرة من جسده بعد أن تمزقت ملابسه تماماً بينما راحت دفقات مرعبة من الدماء تخرج من فمه. وفي غمرة شعوره بالإنهاك والضعف لمح رجال الشرطة واقفين في مكانهم على بعد خطوات منه كأنهم خيالات المآتة التي ألفتها الجوارح، فجاشت نفسه بانفعال شديد.

وفي إعصار من المشاعر العارمة التي انتابته راح يبكي على رحلة للغابة لم تتم... أو لعلها تمت!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنا والسيناتور.. في تايلاند

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حطت بنا الطائرة في مطار بانجكوك قادمة من سنغافورة التي كانت محطتنا الرئيسية في هذه السفرة وذلك لحضور اجتماع لا معنى له.

بعد انتهاء أعمال المؤتمر تظاهر أفراد معظم الوفود بالتعب والإرهاق من الجهد الذي بذلوه في حضور الاجتماعات وتنسيق اللجان، وأعربوا عن رغبتهم في القيام برحلة ترفيهية في واحدة من بلدان جنوب شرق آسيا.

اتفقنا ـ زميلي وأنا ـ أسوة بالآخرين أن نتظاهر بالتعب والرغبة في الاستجمام والاسترخاء. لهذا فقد قررنا الذهاب إلى بانجكوك من أجل الشراء والتبضع والاستفادة من رخص الأسعار مقارنة بسنغافورة.

لم تكن هذه هي زيارتي الأولى للمدينة، فقد حللت بها عدة مرات من قبل وكنت خبيراً بدروبها وأسواقها، لهذا فقد وثق بي رفيقي وقرر أن يتخذني هاديًا ودليلاً.

من الواضح أن تغييراً كبيراً قد طرأ على البلد يمكن أن تلمسه ما إن تطأ قدمك صالة المطار. النظافة التي كانت مفتقدة صارت ملمحًا واضحًا، كذلك النظام تطورت مظاهره بشكل ملحوظ.

الذي لم يتغير هو الابتسامة التي يلقونك بها في كل مكان. لا أدري لماذا قارنت بين الابتسامة السنغافورية والابتسامة التايلاندية. ما يجمع بين الاثنين هو الأدب الآسيوي الشهير، لكنهم في سنغافورة يقدمونها بعد أن امتلأت نفوسهم بقدر كبير من الرضا والإحساس بالأمان نتيجة التحسن الكبير الذي طرأ على الاقتصاد واستيعاب السكان كلهم في سوق العمل وتحقيق معدلات نمو عالية، أما في تايلاند فالابتسامة هي مقدمة لعقد صفقة. إما صفقة بيع ملابس أو أي منتجات أخرى، أو صفقة تأجير امرأة!.

ما إن تخرج من المطار وتطأ قدماك أرض الشارع بجوار موقف التاكسي حتى يقفز إليك شخص تسبقه ابتسامته يمد يده داخل جيبه ويستخرج الكتالوج.

لا أحد تقريبًا يخلو جيبه من الكتالوج أيًا كانت وظيفته الأصلية. يقترب منك في أدب ثم يسألك: ليدي سير؟ هل تريد ليدي؟ ثم يبدأ في إطلاعك على ما يحمله من صور.

أغرب ما في الموضوع أنهم يسمّون المومس ليدي!!.

تشكره وتركب التاكسي فيفاجئك السائق ويخرج كتالوجه الخاص، ثم يغمز لك بعينه ويناولك الصور. هذه تايلاندية وهذه هندية، لدينا فرنسيات وأميريكيات وأفريقيات، كذلك عربيات وإيرانيات وأتراك، وإذا أردت سويدية نحضرها لك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يكن المشهد السابق يثير دهشتي حيث طالعته كثيراً في زياراتي السابقة. لكن الذي أصيب بالدهشة، بل قل بالذهول هو رفيقي في الرحلة سيادة السيناتور.

والسيناتور هو اللقب الذي كنت أناديه به لأنه كان عضواً بالمجلس عن بلدته في أكثر من دورة سابقة قبل أن يفقد الكرسي ويعود موظفًا من جديد.

ظل السيناتور فاغراً فاه منذ ركبنا التاكسي، وقد أخذ جولة مستفيضة داخل الكتالوج تفرج فيها بإمعان على السيقان والأذرع والنهود العارية. شعرت بقلبه يدق وأنفاسه تتهدج ثم قال لي وهو يقطب جبينه ويناولني الكتالوج: أعوذ بالله من غضب الله!.

نظرت إليه فرأيت عينيه تلمعان!. قلت له: إوعى يا سيناتور تفكر في التجربة.. هؤلاء مومسات محترفات ولا يأتي من ورائهن إلا الخراب والمرض.

قال في ثقة: لا تقلق يا صاحبي.. أنا لست صغيراً، وأضاف: إنني فقط آخذ فكرة من باب العلم بالشيء.

وصلنا إلى الفندق في قلب العاصمة، وقد اخترناه صغيراً ونظيفًا.

استقبلنا صاحبه بابتسامة ودودة وكان يرتدي عمامة السيخ التي توضح أصله الهندي وقدم لنا مشروب الضيافة. وقفنا نتحدث معه

وكانت تجاوره زوجته وطفله الصغير.. قدم لنا نصائحه بخصوص الأماكن التي يتعين زيارتها وعرض علينا رحلة إلى شاطئ باتايا الشهير، ولم ينس أن يمنحنا الكتالوج الخاص به ويحوي صور الفتيات في نطاق منطقة نفوذه وقال لنا إن الأجر يتم دفعه بالساعة، وفي الإمكان عمل تخفيض جيد في حالة المبيت ليلة كاملة، ثم قدم العرض الكبير بتخفيض ضخم في حالة بقاء الفتاة مع الضيف طوال مدة الإقامة.

شكرناه على نصائحه وعروضه وهممنا بالصعود فاستوقفنا قائلاً: إذا كان لكم أي طلبات خاصة فإن في الإمكان تدبيرها بسرعة مع نسبة خصم خاصة بالضيوف الأعزاء.

سألته في دهشة: طلبات خاصة بأي معنى؟. قال وابتسامته تتسع: كأن تحتاج إلى فتاتين أو أكثر معًا أو تحتاج إلى فتاة من جنسية نادرة.. أي شيء يخطر على بالكما لا تترددا في طلبه، ثم مال علينا هامسًا: أنتما الآن في تايلاند ولستما في مصر.. يعني بإمكانكما إطلاق كل الرغبات مهما جمحت دون خشية من أي شيء.

لاحظ الرجل جحوظ عيني السيناتور الذي كان يرقب الحديث الإيروتيكي ويفهم بعضًا منه.

قال لي رجل السيخ وهو ينظر إلى زميلي الذي كان طويلاً عريضًا: يبدو أن صديقك هذا رجل شديد الفتوة ويحتاج إلى نصف دستة من النساء في الليلة الواحدة!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلت له حتى أنهي الموضوع ولا يصدعنا به مرة أخرى: صديقي ليس له في صنف النساء بتاتًا، ففوجئت به يرد في سرعة كمن يجد الحلول لكل المشاكل: ليست هناك مشكلة.. يمكنني أن أحضر له رجلاً!.

ما كدت أسمع عرضه الأخير حتى غرقت في الضحك فعاجلني السيناتور في لهفة: ماذا قال.. ماذا قال؟.

أجبته وأنا لا أزال أضحك: إنه يريد أن يحضر لك رجلاً يؤنس وحدتك.

كان السيناتور فلاحًا ابن فلاح لذلك فقد استشاط غضبًا وهم بأن يفتك بالرجل لولا أن وقفت بينهما وأنا أشرح له أن الرجل يريد أن يخدم ولا يقصد الإساءة.

بعدها أخذت صديقي وصعدنا وهو لا يزال يسب الرجل ويلعن قلة تربيته.

دخلت غرفتي وفتحت الشنطة ثم بدأت أستعد لآخذ حمّامًا قبل النوم عندما فوجئت بالسيناتور يطرق الباب بشدة.

فتحت له فاندفع للداخل وهو ممتقع الوجه كأنه قابل عفريتًا لتوه وقال في ذهول: غير ممكن، غير معقول.. لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًا.

قلت له: لقد أفزعتني.. ما الحكاية يا عم السيناتور؟.

قال: هذا الرجل صاحب الفندق.

قلت له: ما له؟.

صاح: الرجل الشايب العايب ذو اللحية والعمامة.. هل رأيت آخر مباذله ومخازيه؟.

قلت: هل عرض عليك كتالوج الرجال لتنتقي من بينهم؟.

قال: بعد أن دخلت غرفتي سمعت طرقات.. فتحت الباب فوجدته وفوجئت به يعتذر عن سوء الفهم ويرجو مني أن أسامحه.

قلت له: سامحتك يا سيدي.. شيء آخر؟.

وهنا قدم لي عرضًا ذكر أنه لا يقدمه لأحد، وأخبرني أن وجهي الطيب وأخلاقي الدمثة هي ما شجعه على أن يعرض على زوجته وهو واثق أنها ستكون في أمان معي.. مع أنه لا يفعل هذا أبدًا!.

وجدت نفسي أضحك بشدة وأنا أقول له: لا تنكر يا عم السيناتور أنها هندية حلوة ذات حُسن ودلال وضفائر طويلة وعينان واسعتان كحيلتان، فرد غاضبًا: يا سلام!.. ما رأيك إذًا أن تفوز بها ما دامت تروقك؟.

قلت له: أولاً أنا لا أتعامل مع المحترفات على الإطلاق، ثانيًا زوجها لم يخترني أنا لكن اختارك أنت ولا شك أنه يعرف ما ينفع امرأته!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صاح منفعلاً: هل تريد أن تدفعني للجنون. . أي بلد هذا الذي جئت بنا إليه؟ .

قلت أهدئ من انفعاله: رويدك يا سيناتور. . هون على نفسك ولا تنفعل. . لقد صدمت مثلك عند زيارتي الأولى، لكني فهمت بعد ذلك أن الاختلاف الثقافي بيننا وبينهم هو الذي يجعلنا نجفل ونذعر من مثل هذه العروض الغريبة بينما هم يقدمونها بمنتهى الهدوء، بل ويندهشون من رد فعلنا. وأضفت: هم لا ينظرون إلى الجنس نظرتنا إليه وليس له عندهم الهالة التي نحيطه بها، فضلاً عن أن الديانات التي يدينون بها لا تحرم الممارسات الجنسية، غير أن العامل الأساسي في انتشار الدعارة هنا هو الفقر المدقع وانتشار الفساد، كذلك تشجيع الولايات المتحدة بلدانًا مثل تايلاند والفلبين على الدعارة الكثيفة من أجل الجنود الأمريكان الموجودين بالمنطقة، ومن المهم أيضًا لدولة كأمريكا تمنع الدعارة على أراضيها أن توفر لمواطنيها، خصوصًا الأثرياء العواجيز، منتجعات آمنة بتكلفة معقولة فاختارت بلدان آسيا التابعة مسرحًا للمرح! .

قال السيناتور: أنا أعلم بحالة هذه البلاد ولديّ فكرة عن انتشار الدعارة بها، لكني لم أتصور أن يصل الأمر إلى هذا الحد. . أن يقدم لك الرجل زوجته.

قلت له: معك حق. . هو فعلاً أمر صادم لكن لا تنس أن النسوة العاملات في هذه التجارة لكل منهن زوج وأخ وأب. . وأحد هؤلاء في الغالب يكون هو الراعي الرسمي للفتاة ومدير أعمالها.

استمر يرغي ويزبد ويلعن الكفرة والمشركين فأخذته من يده وأوصلته حتى باب الغرفة وقلت وأنا أفتح له الباب: اذهب يا رجل إلى غرفتك ونم ولا تفكر في النساء، وغدًا نقوم بجولة في المدينة ونزور معالمها.

عاد السيناتور إلى غرفته بعد أن هدأت "الخضّة" فجريت إلى الحمام وأخذت دشًا منعشًا ثم استسلمت للنوم.

في الصباح الباكر استيقظت على جرس تليفون منه. قال لي: لم أنم ولا دقيقة واحدة. . ظللت أحملق في السقف حتى طلع النهار. . هيا نخرج.

قلت معترضًا: ما زال الوقت مبكرًا وأريد أن أكمل نومي.

قال لي: لا أريدك أن تتركني وحدي لأن الأفكار السيئة تغزو رأسي، تعال ننزل نفطر ونتفرج على المدينة.

انتزعت نفسي من السرير انتزاعًا وغيرت ملابسي ثم خرجنا من الفندق وعرجنا على شارع "سوكومفيت" الرئيسي بوسط المدينة.

لاحظت أن المدينة قد أصبحت أكثر حداثة وأكثر نظافة من ذي قبل، وكنت في زياراتي السابقة أعاني وأفزع من الصراصير الطائرة التي كانت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحط على الرؤوس دون إنذار! . اختفى هذا المنظر ومن الواضح أن طفرة صحية وإنشائية قد تركت بصمتها على المكان. الشيء الذي لم يختف هو رائحة الطعام المنتشرة بقوة من خلال آلاف المطاعم التي تقدم الأسماك وغيرها. . هذه الرائحة ما زلت أذكرها وهي تملأ الجو وتعبئه بالزفارة وتثير لديّ إحساسًا بالغثيان.

لا أدري لماذا لم أشعر بالتآلف مع الطعام في هذه المدينة أبدًا. . ربما بسبب روائح الزيوت والدهون وأساليب الطهو التي لم أعتدها.

لاحظت أن صاحبي يتطلع مدهوشًا إلى كل ما يراه، وأشار بإعجاب إلى عربات اليد الخشبية التي تقف على الناصية تقدم الطعام وكانت تشبه عربات الفول عندنا في مصر. . الفرق أنها تقدم هنا الأرز والسمك.

اقترب صديقي السيناتور من إحدى العربات ودعاني لتناول الإفطار وأصر على أن يكون على حسابه.

كانت هناك مجموعة من القدور تغلي على النار، وكل قدر به سائل ملوّن يغطس فيه كل طرح البحر من محار وأسماك صغيرة وكائنات تشبه الدود. وكانت العربة تعرض أسماكًا مقلية مقطوعة الرؤوس ومعلقة على حبل يحيط بالعربة من الجوانب الأربعة، وكانت الأسماك على الحبل ممسوكة من أذيالها بمشابك الغسيل! هذا إلى جانب قدر كبيرة الحجم تمتلئ بالأرز المطهو على البخار.

من الواضح أن هذه العربات توفر للشعب إفطارًا رخيصًا، وكل الناس تقريبًا يقومون بعمل "اصطباحة" أرز وسمك قبل الذهاب لأشغالهم.

تناول صاحبي طبق أرز مع مغرفتين من السوائل العاجة بالبحريات الصغيرة التي لا نعرفها، وأخذ يأكل في شهية غريبة. أما أنا فقد اكتفيت بقطعة خبز قمت بتسقيتها في كوب شاي.

من أعجب الأشياء التي شاهدناها قيام الرجل النشيط صاحب عربة السمك بإخراج كيس من أحد الأدراج وكان ممتلئًا بالجراد، ثم فتح الكيس وأسقط حمولته في الزيت المغلي وأخذ يخرجه بعد التحمير ويملأ به أكياس بلاستيك ثم يقوم بتدبيسها وبيعها للتلامذة الصغار كأنها أكياس شيبسي!.

بعد الإفطار أخذنا توك توك وطلبنا منه توصيلنا إلى سوق "باتونام" الشهير. . كان هذا قبل سنوات عديدة من دخول هذه المركبة إلى مصر، وكان السيناتور مبهورًا وهو يخرج رأسه ويطل على الشوارع يعبرها التوك توك في خفة. والحقيقة أن هذا النوع من العربات يناسب العاصمة التايلندية تمامًا بعد أن اختنقت وأصبح المرور بها بطيئًا، والوقوف في بعض الإشارات يستغرق أحيانًا عشر دقائق، لكن الفرق بين بانجكوك وبين القاهرة رغم ازدحام كل منهما الشديد هو أن العدالة واضحة في بانجكوك، ومظهر العدالة هو إشارة المرور التي يحترمها الجميع، فلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يفتئت أحد على حق أحد، ولا تكون أولوية العبور للأكثر وقاحة وتهوراً ونفوذاً كالحال في قاهرة المعز!.

وصلنا إلى السوق الذي يحتل بمحاله وفرشاته الشارع على الجانبين.. كل البضائع التي تخطر على البال معروضة.. ملابس، مجوهرات حقائب، تحف، لوحات السيرما اليدوية البديعة. كل الماركات العالمية حاضرة بأسعار رخيصة للغاية والسبب أنهم يقومون ب"ضرب" الماركات وتقليدها في مصانع تنتشر في كل مكان وتعتمد على عمالة كثيفة بشكل يشبه السخرة، فتقل تكلفة الإنتاج ويصبح في الإمكان طرحها بسعر رخيص.

والفصال أو المساومة هو القانون الطبيعي في السوق، وقد تعلمت أن البائع عندما يقول هذه السلعة ثمنها مائة "بات" أقول له سآخذها بعشرة!. في البداية كنت أجد حرجًا من التخفيض الرهيب في ثمن الساعة لكني أدركت أن هذا الخجل يجعلني فريسة للبائع فلم أعد آبه لرد فعله ولم يعد يغير من موقفي احتقان وجه البائع بالغضب وحديثه إلى السماء وصراخه العالي أو استنجاده بالآلهة وترديده لكلمات مثل إنكم تخربون بيتي.. كل هذا الفيلم هو جزء من عملية البيع وفي النهاية يقبل بالمبلغ المعروض وهو كسبان!.

اشتريت ملابس لأطفالي واشتريت بعض المشغولات اليدوية والتحف، ولاحظت أن السيناتور يحذو حذوي في كل شيء، ويشتري

مثل ما أشتريه تمامًا فأبديت دهشتي وسألت: أنت ليس لديك أطفال صغار ومع هذا تشتري مثلي.. ما السبب؟ فقال: أنا أثق في ذوقك وسأهدي هذه الأشياء لأطفال العائلة، فقلت له: يا عم السيناتور يمكنني أن أساعدك إذا أردت شراء أشياء أخرى. قال: لا عليك.. اتركني على راحتي!. أحسست أنه رجل طيب بسيط وأنه يثق بي ويسلمني زمام أمره فأحببته ولم أتركه وحده. وكانت هذه السفرة هي أول معرفتي به حيث كان كل منا ممثلاً للجهة التي أوفدته.

عدنا إلى الفندق وذهبنا إلى مطعم أفغاني مجاور يقدم كبابًا وكفتة بعيداً عن الأكل الذي كاد يخرج معدتي من مكانها.

في المساء ذهبنا إلى ملهى ليلي عثرنا عليه يقدم الرقص الشرقي بواسطة راقصات عربيات، كما استمعنا إلى أغاني أحمد عدوية بصوت مطرب فرز رابع يعيش ويرتزق من الغناء في تايلاند للسياح العرب.

في آخر الليل ونحن في طريقنا للعودة لمحت صديقي السيناتور يتطلع إلى واجهات المحلات في شغف. قلت له: هل تبحث عن شيء؟ قال: أوصاني أصدقائي قبل السفر بضرورة أخذ حمام تركي وضرورة عمل مساج سلطاني وإلا اعتبرت الزيارة كأن لم تكن.

قلت له: يعني أنت تخشى أن يفوتك ثواب الزيارة إن لم تقم بعمل حمام ومساج؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال : الله ينور عليك .

قلت له : بسيطة يا عم السيناتور ، أنت تقف بالمصادفة الآن تمامًا أمام محل لهذا الغرض . دخلنا إلى المحل الكبير فخف لاستقبالنا أحد الموظفين . . طلباتكم؟ قال السيناتور : مساج ، نريد مساج . دخل بنا الرجل إلى صالة فسيحة ، وأضاء النور فوجدنا عدداً كبيراً من الفتيات ينهضن واقفات ، وكنّ جلوساً قبل أن ندخل.

قال لنا الرجل : ليختر كل منكما الفتاة التي يريدها أن تحممه وتعمل له المساج .

قلت للسيناتور : اختر يا إكسلانس على راحتك ، أما أنا فسأنتظرك في الكافيتريا لأني لا أريد مساجًا أو حمامًا .

قال : هل تريدني أن أشعر بالحرج لأنني وحدي الذي يقبل على المساج وأنت ستعيش في دور الرجل الفاضل الذي يطاوع الشاب الطائش ويتحمل نزقه؟ .

قلت له : يا عمنا أنا لا أعيش أي أدوار . . لقد جربت هذا من قبل ولم يعجبني فلماذا تريدني أن أنفق فلوسي في شيء لا أحبه؟ قال : سأدعوك على حسابي . قلت : ولماذا أنفق فلوسك في شيء لا أحبه؟ .

لم يجد مني فائدة فقال مستسلمًا : كما تشاء لكن على الأقل ساعدني في الاختيار . قلت له : خذ العصفورة الصغيرة التي تجاور الباب فأشاح بيده مستنكراً سوء اختياري .

همست في أذنه : قبل أن أتركك رجاء من أجل خاطري . . مساج فقط يا صاحبي . . فاهم؟ إياك أن تتورط في أكثر من هذا . قال : طبعًا طبعًا . . وهل ظننتني عيلاً صغيراً؟ .

أخذ يتطلع إلى الفتيات ، وكلما أشرت له إلى واحدة رفضها في تأفف . تركته ومضيت إلى الكافيتريا وجلست أشرب شاي . بعد قليل مر بي وفي يده امرأة ضخمة تشبه الملاكم الأمريكي " مايك تايسون " . قلت له مدهوشًا وأنا أضحك : مش تشيل على قدك يا سيناتور ! .

اختفى السيناتور ومعه الوحش الآسيوي وغاب في الداخل .

بعد مضي ساعة انتابني القلق فسألت عنه مدير المكان . أخبرني أن صديقي سعيد للغاية ولا يتعجل الخروج . سألته : ومن أدراك؟ . قال : نحن نتفقد زبائننا لنرى إن كان ينقصهم شيء ! .

كنت متعبًا وأريد أن أرجع للفندق لأنام ، لكني خشيت أن أتركه فلا يعرف كيف يعود وحده .

عرفت من هذا الرجل الطيب الذي له كرم وشهامة أهل الريف أنه لم يسبق له أن غادر مصر من قبل إلا من أجل رحلات الحج والعمرة . اختاروه في الحزب للانتخابات حتى يحصلوا منه على تمويل كبير وزوروا الانتخابات من أجله ، وفي الدورة التالية رفض أن يدفع ، فتخلوا عنه ، فعاد للوظيفة ومعه لقب نائب سابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خرج أخيراً بعد ثلاث ساعات وكان منتشيًا للغاية يكاد يرقص من السعادة وطول الطريق كان يغني بصوت عال . . بدأ بأغنية " أمانة عليك يا ليل طول " وعندما وصلنا للفندق كان يختم بأغنية " يادي النعيم اللي أنت فيه يا قلبي " !

في اليوم التالي لم يطلبني ليوقظني في الصباح الباكر وإنما أنا الذي صحوت قبله وأخذت وقتًا أحاول أن أستحثه على الاستيقاظ.

أخذته في زيارة إلى أحد المعابد البوذية القديمة . أتى معي وهو متضرر . . كان يريد أن يصحو من النوم فيعود إلى محل المساج من جديد .

كنت حازمًا معه ونهرته بشدة لأني لاحظت أنه منذ خرج من محل المساج لم يعد نفس الرجل المتزن وخشيت عليه من نفسه . قضى اليوم معي عابسًا ولم يتكلم طوال اليوم .

عدنا إلى الفندق آخر النهار ورأيت أن أتمدد في السرير قليلاً قبل أن ننزل لنتعشى ، لكنه غافلني في المساء ونزل وحده دون أن يخبرني . كان القلق ينهشني عليه خصوصًا وأن ميعاد إقلاع طائرتنا إلى القاهرة لم يبق عليه سوى بضع ساعات . . وعاد قرب الفجر .

في الصباح كنت قد حزمت حقائبي استعدادًا لرحلة العودة . ذهبت إليه وكان لا يزال نائمًا . فتح لي الباب وعاد للنوم . قلت أستحثه : يا

سيناتور الطائرة ستفوتك ، هيا استيقظ . ففتح نصف عين وقال : لن أسافر معك اليوم ، لقد قررت أن أمضي أسبوعًا آخر هنا . . سأذهب إلى شاطئ " باتايا " وقد قاموا بعمل الحجز لي .

قلت له : من هم الذين قاموا؟ .

قال : صديقتي التايلاندية في محل المساج .

قلت له : مايك تايسون؟ .

قال : نعم ، ثم أردف كأنما يتعجل مفارقتي : أشوف وشك بخير ، وقام فمنحني حضنًا ميكانيكيًا سريعًا وعاد للنوم .

عدت لمصر ولم يفارقني القلق عليه .

بعد أسبوع اتصلت به فقالوا لم يعد بعد . وكنت أعاود الاتصال كل يومين فأتلقى نفس الرد .

بعد شهر علمت أنه عاد فاتصلت به وأنا شغوف إلى معرفة أخباره لكنه لم يتحدث كثيراً . قال إنه بخير ، لكن صوته لم يكن ينبئ بهذا . طلبت منه أن يخبرني بما حدث في رحلته بعد أن تركته ، فلم يشأ أن يتحدث في الأمر .

لم تمض أسابيع حتى قرأت نعيه في الصحف فبكيته . . وما زلت حتى الآن أجهل سر الشهر الذي قضاه في تايلاند بعد افتراقي عنه . . رحمه الله .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فرنسا.. وعنب فرنسا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(1)

كانت الجلسة اليومية تنعقد بعد الغروب على قهوة قشتمر بالظاهر بين مجموعة الأصدقاء الذين يعتزمون السفر للخارج بعدما انتهى العام الدراسي الجامعي .

ليسوا جميعًا في كلية واحدة، لكنهم ينتمون لخليط من الكليات والمعاهد . تجمعهم صداقة عمر ورفقة المدرسة الثانوية والحلم المشترك بعبور المتوسط وتنسم ريح الشمال في أوروبا.

كان أصدقاؤهم الأكبر سنًا قد ملأوا خيالهم بالأحلام العظيمة عن أوروبا الجميلة التي تتوق للمصري الذي يؤكل حافًا من حلاوته! . وسرت بينهم جميعًا نغمة لم يعرف أحد من الذي أطلقها عن قصص النجاح التي تحققت لمصريين كانوا جميعًا يشبهونهم، ولم تخرج قصة كل منهم عن حدوتة المصري الذي ذهب لمزرعة العنب بفرنسا فوقعت في هواه ابنة صاحب المزرعة فتزوجها وصار هو السيد الآمر الناهي في المزرعة وأصبح من أعيان فرنسا، أو عن الآخر الذي عمل بأحد المطاعم في لندن فصرع بوسامته الشرقية ابنة صاحب المطعم وفرض على أبيها تزويجه ابنته ووريثته الوحيدة، وسرعان ما توفي الأب وترك لصاحبنا المطعم الشهير بميدان بيكاديللي! أو عن الثالث الذي ذهب يبيع الجرائد بالنمسا فاستلطفته وتعلقت به زوجة الباترون النمساوي الذي يرأسه في العمل وتركت زوجها من أجله وفتحت له مشروعًا صغيراً في فيينا.

لعبت هذه القصص بمخيلتهم وصاروا يعتقدون أن الحصول على الفيزا فقط هو ما يفصلهم عن تحقيق أحلام الحب والمغامرة والثراء الفاحش في أوروبا، فانطلق كل منهم إلى إحدى السفارات ومعه جواز سفره الصالح لمدة ستة شهور فقط . بعضهم عاد مظفراً ومعه تأشيرته والبعض أخفق في الحصول عليها فأجل حلمه للعام القادم.

من حسن حظه أنه كان من المحظوظين الذين ذهبوا للقنصلية الفرنسية الكائنة بحارة صغيرة خلف شارع الشواربي، ومن خلال شباك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يطل على الرصيف قدم لهم الجواز مع الطلب الذي قام بملئه، ومن عجب أنهم منحوه الفيزا السياحية لمدة أسبوع رغم أنه لم يكن يمتلك سوى ورقة مالية بمائة دولار كلفته 69 جنيهًا بأسعار أواخر السبعينيات أخذهم من والده بعدما وعده بإحضار المروحة والكاسيت وهو عائد متوج بأكاليل الغار من باريس.

ركب الطائرة للمرة الأولى في حياته، وأثناء الرحلة تعرف على شاب مصري اسمه إميل كان في الطريق إلى باريس ومعه خطيبته الفرنسية "سيلفي" التي حضرت لزيارته بالقاهرة والتي يعتزم الزواج منها بعد بضعة أيام في باريس. قام بتبادل السجائر والحكي مع إميل فنشأ بينهما شعور بالألفة والمودة وأخبره بأنه يسافر للمرة الأولى ولا يعرف أحدًا بفرنسا، بل لا يعرف حتى إلى أين يذهب بعد أن يخرج من المطار.

قبل هبوط الطائرة كانا قد أصبحا وكأنهما صديقين منذ زمن حتى إن إميل صارحه بأنه غير متحمس تمامًا للزواج من سيلفي لكنها لن تتركه يفر منها!

بعد أن أخذ حقيبته من على سير الأمتعة خرج إلى الرصيف خارج مطار أورلي يتلفت حوله فلمح أوتوبيسًا مكتوب عليه: "عندما تكون في باريس افعل كما يفعل الباريسيون" فامتلأ بالحماسة والإثارة وحدّث نفسه بأنه غدًا سيعرف ما يفعل الباريسيون ولسوف يفعل بالتأكيد مثلهم.

عندما همّ بركوب الأوتوبيس فوجئ بإميل ينادي عليه ويخبره بأن سيلفي قد وافقت على أن يبيت الليلة معهما ببيتها، على أن يغادر في الصباح ويشق طريقه في باريس بمعرفته.

كرها كثيرًا وركب معهما تاكسيًا حملهم إلى ضاحية "لا ديفانس". كان يتطلع من الشباك والتاكسي يقطع الطرقات ويعبر الكباري وينزل إلى الأنفاق، وأدهشه الإحساس الذي يعرفه الناس جميعًا عندما يمرون بموقف يبدو لهم أنه قد حدث من قبل وأن هذه ليست المرة الأولى التي يعيشون فيها ويرون ما يرونه. شعر أن ركوب السيارة بصحبة هذين الشخصين والشوارع التي تقطعها والمناظر التي يراها. شعر أن هذا كله قد عاشه من قبل وأن هذا المشهد قد سبق له رؤيته، ولكن كيف وهذه هي أول زيارة له إلى فرنسا؟ لا شك أن هذا قد حدث في حياة سابقة.!

عند وصول التاكسي حاول أن يشارك في الأجرة إلا أن إميل رفض رفضًا قاطعًا.

اليوم وبعد مرور ما يقرب من ثلاثين سنة على تلك الأيام كثيرًا ما سأل نفسه: هل ما زال هناك شاب مثل إميل موجود في مصر يمكن أن ينفتح قلبه لشاب مصري ليس مسيحيًا مثله وأن يبدد وحشته ويستضيفه ليبيت معه دون أي مصلحة؟. هل ما زالت هذه الأشياء موجودة؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت "سيلفي" تسكن بالطابق العشرين بإحدى ناطحات السحاب التي كانت شيئًا جديداً أخذ يتمدد في الضواحي بعيداً عن قلب باريس الذي لم يتغير بمبانيه الأثرية الجميلة.

قضى الليلة على أريكة بالصالة وفي الصباح نزل إلى الشارع يسبق إميل الذي أصر على ألا يتركه قبل أن يطمئن عليه.

سار قليلاً في الشارع أسفل المنزل ولاحظ أن سائقي السيارات يصرخون وهم يعبرون بجواره في سرعة كبيرة وأشار له أحدهم بيده بعلامة تدل على الجنون. سرعان ما أدرك السبب عندما وجد نفسه بحكم التعود يسير في نهر الشارع وليس على الرصيف، وخشي أن عادة القاهريين بالسير مع السيارات في الشارع قد تقصف عمره في باريس!. سأله إميل إن كان هناك أي أحد يعرفه ولو من بعيد يمكن الذهاب إليه، فكر قليلاً ثم أخبره بأن معه عنوانًا لأحد جيرانه من سكان نفس شارعه بالظاهر وإن كان ليس صديقًا له. قال إميل: لا يهم.. مؤكد سيتعرف على شكلك ولن يمانع في مساعدتك. قصدا إلى العنوان بشارع "راسباي" عند تقاطعه مع "مونتبارناس" وصعدا إلى الطابق الأخير. طرقا الباب وعندما انفتح بدت مجموعة مألوفة من الوجوه كلهم من الظاهر. تعرفوا عليه فوراً فرحبوا به وشكروا إميل على صنيعه ودعوه إلى كوب من الشاي شربه ثم ودع صاحبنا وانصرف.

كانت الغرفة هي سكن عاطف الذي دأب منذ سنوات على القدوم لباريس والعمل في أحد المطاعم ثم العودة للجامعة مع حفظ مكانه بالمطعم للصيف التالي. تمنى من قلبه لو استطاع أن يحصل على غرفة مماثلة حتى لو كان حمامها مشتركًا لخدمة سكان الطابق كله مثل هذه!

أخذه عاطف من يده وحمل عنه الحقيبة وتلا على مسامعه مجموعة من الدروس عن باريس.. قال: أنا لا أريد أن أحبطك، ولكنك جئت إلى باريس وهي في أسوأ أحوالها، البطالة متفشية، والعمالة من أوروبا الشرقية تتمنى أي فرصة عمل وهم أفضل منا بكل المقاييس، فكل منهم يتقن حرفة ولديهم دأب وقدرة على العمل الشاق على العكس منا نحن الذين لا نعرف سوى الأونطة والفهلوة! وأضاف عاطف إن الطلبة المصريين ملأوا باريس وأصبحوا يفترشون محطات القطارات الرئيسية سواء "جار دي نور" أو "جار دي ليون" أو "جار دي ليست" والبوليس يقوم بجمعهم من الشوارع والحدائق ويشحنهم على الطائرات إلى القاهرة.

لم ينس عاطف أن يزوده ببعض النصائح المستمدة من خبرته بالبلد وأوصاه عندما يسمع صيحة "عباس" في الشارع أن يهرب فوراً ويروغ من الموقع حيث إن عباس هو الاسم الحركي الذي اخترعه المصريون للبوليس في أوروبا! ليس البوليس فقط وإنما المفتش في المترو والأوتوبيس هو أيضًا عباس!. أدهشه موضوع عباس هذا فسأل عاطف في براءة:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولماذا أهرب من هذا العباس إذا كنت لم أرتكب أي مخالفة؟ . رد عاطف : لا تتعجل سترتكب مخالفات أقلها كسر الفيزا، وأضاف : أهم شيء الآن هو السكن والاستقرار ثم يأتي بعد ذلك البحث عن عمل، وأنا الآن سآخذك لأحد الفنادق حتى تضع حقيبتك وتستقر، ثم ليعنك الله على باريس.

قطعا المسافة سيراً على الأقدام ودخلا إلى شارع سان ميشيل ثم انعطفا يميناً حيث توقف عاطف أمام بناية في غاية الفخامة والعراقة تحمل اسم : فندق الرجال العظماء . خطا عاطف إلى الفندق وتبعه إلى الداخل ولاحظ أن عاطف لم يتوقف عند موظف الاستقبال وصعد السلم مباشرة . صعد خلفه فهبّت على أنفه روائح كريهة تجتاح السلم ميز من بينها رائحة بول فائحة . كان السلم مظلماً فسار على خطى عاطف حتى وصل الأخير إلى أحد الأبواب وطرقه عدة طرقات . وقف هو إلى جانب السلم ينتظر . انفتح الباب وخرجت من الحجرة المضيئة سحابة كثيفة من دخان السجائر المحبوس ملأت الردهة . قال عاطف : سلامو عليكو يا رجالة . جاءت الأصوات من الداخل محيية ومرحبة . عاطف : عندكم مكان يا رجالة؟ علت أصوات متداخلة من الغرفة : زبون طازة . . هاته يا سيدي زي بعضه! . عندما سمع كلمة هاته وشاهد الدخان المحبوس شعر بعدم ارتياح . لكن عاطف تجاهل امتعاضه وسلّم عليه مبرئًا ذمته منه وسأله قبل أن يختفي : أي خدمة أخرى؟ . شكره على كل شيء وخطا

إلى الداخل فوجد نفسه في غرفة صغيرة بها سرير لفرد واحد يجلس عليه مجموعة من الشباب يلعبون كوتشينة، ومجموعة أخرى تفترش البلاط.

أخذ يحصي سكان الغرفة فوجدهم 12 فرداً، ولاحظ أنهم متآلفون مع المكان ولا يشعرون بالرائحة الكريهة التي تعبئه . سألوه في تحفز : ما الذي أتي بك إلى فرنسا؟ ألا تصل إليكم أخبار البطالة وترحيل المصريين كل يوم؟ لم يعرف ماذا يجيب وانزوى في ركن من الغرفة وهو ذاهل تماماً ولا يصدق ما تراه عينيه . إن منظر الفندق الفخيم من الخارج لا يوحي على الإطلاق بكل هذه القذارة وكل هذا العفن، ولم يتصور في أسوأ كوابيسه أن تكون إقامته بباريس بمكان كهذا، بل لم يتصور أصلاً أن يوجد بفرنسا مكان كهذا.

عرف أن صاحبة الفندق اللبنانية تؤجر الغرفة لفرد واحد ولا تبالي بكم يسكنها، ولقد تركت المكان يتحول إلى زريبة قذرة فلا تقوم بإصلاح دورات المياه وتترك النزلاء يقضون حاجتهم كل حسب اجتهاده وفي المكان الذي يروق له! . شعر بغثيان شديد وخشي أن يتقيأ فيصيب الإخوة الملتصقين والمحيطين به من كل جانب . أنقذه أحد الرفاق بالغرفة واسمه حمزة قائلاً : ما رأيك أن نخرج لأفرجك على باريس ولنذهب مثلاً إلى برج إيفل؟ فقال على الفور : نعم نعم نخرج . ترك حقيبته وانطلق مع حمزة إلى محطة المترو . همّ بقطع تذكرة من الشباك فأمسك به حمزة قائلاً : ماذا تفعل يا مجنون؟ لو عوّدت نفسك على شراء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التذاكر فستفرغ ملاليمك بعد أيام قلائل . . افعل مثلي ، وأعقب كلامه بقفزة من فوق الحديدة فأصبح في الداخل . حذا حذوه على الفور وقفز فأصبح على الرصيف ، لكنه شعر بقشعريرة من الخجل نتيجة نظرات القرف والاستنكار التي حدجه بها الركاب الذين شاهدوا فعلتهما النكراء . لاحظ حمزة ارتباكه فطلب منه أن يتسلح بالنطاعة ولا يبالي بنظرات الآخرين ، ثم ركبا المترو إلى محطة "تروكاديرو" . كان الجو جميلاً في تلك الليلة الصيفية من شهر يوليو ، ولم يضايقه سوى حمزة الثرثار الذي حكى له قصصًا كثيرة لا تعنيه وغير مسلية بالمرة ، وظل يطن في أذنيه وهما يجلسان تحت البرج الشهير ولا يكاد ينهي حدوتة حتى يدخل في واحدة جديدة حتى فاتهما آخر مترو وتعذر عليهما الرجوع للفندق.

للحق لم يشعر بأي خسارة ، على العكس حمد الله أنه سيقضي الليلة في الهواء الطلق بعيدًا عن الغرفة العفنة بالفندق الحقير . طلع النهار عليهما وما زال حمزة يثرثر ، وكانت الحديقة تضم آخرين سهروا حتى الصباح يتسامرون.

مع أول مترو قفلا عائدين إلى "فندق الرجال العظماء" ودفعا باب الحجرة فارتطم ببعض الرؤوس التي كانت تستند إليه . أخذ يبحث عن أي بلاطة خالية ، وتغلب التعب والإرهاق على الشعور بالغثيان فاستلقى بين الرؤوس والأقدام وغاب عن الوعي .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(2)

استيقظ من نومه عند الظهيرة وكل عظامه تؤلمه من النوم على البلاط . فتح عينيه وأبصر الغرفة خالية إلا من شخص واحد يجلس على السرير ممدداً قدميه وكان يعتمر قبعة فوق رأسه مثل أبطال أفلام الويسترن.

سأله عن مكان الحمّام فأشار إلى أنه في آخر الردهة إلى اليسار . توجه حيث أشار جوني ووكر ذو القبعة وكلما اقترب أكثر أحس بالرائحة النتنة تخنقه ، وعندما وصل إلى الحمام وجده بدون باب تملؤه القذارة والأوساخ ولم يستطع أن يفر قبل أن تتقلص أحشاؤه ويتقيأ ما في معدته . أسرع يعدو مبتعداً وهو يسب فرنسا ويلعن عاصمة النور التي أصابت خياله في مقتل ! .

حمل حقيبته وهمّ بالخروج فاعترضه الجالس على السرير قرب الباب قائلاً : حساب الإقامة الملوكي بفندق الرجال العظماء عن الليلة الماضية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يا إكسلانس . سأله : كم تريد؟ فأجاب وهو يخلع قبعته ويمدها للأمام : سبعة فرنكات . لم يكن في الحقيقة يعرف إذا كان هذا المبلغ قليلاً أم كثيراً لكنه وجد نفسه من باب الاحتياط يخرج فرنكين ويلقيهما في القبعة ويغادر الغرفة . . وعلى السلم ظل يستمع إلى فاصل من السباب والوعيد أطلقه خلفه صاحب القبعة ولاحقه السباب حتى خرج إلى الشارع وبدأ يتنسم هواء نظيفًا.

عبر الشارع فوجد نفسه داخل حدائق لوكسمبرج الشهيرة . كان يشعر بحاجة ماسة إلى أن يأخذ حمامًا ساخنًا ولم يدر أين يذهب ، لكنه اكتفى مؤقتًا بدخول دورة مياه نظيفة في الحديقة فاغتسل وجلس على دكة يفكر في الأيام القادمة التي لا شك ستكون صعبة ، ثم غادر الحديقة وأخذ يتجول في المنطقة وتوقف عند فاترينة خارج أحد المحال تعرض سندوتشات الجبن والبيض الفرنسية الشهيرة في خبز الباجيت فاشترى واحدًا (في السنوات التالية وعند كل زيارة لفرنسا كان يلاحظ اختفاء الأكل الفرنسي وحلول الهامبورجر الأمريكي محله!) سار حتى وصل إلى كنيسة نوتردام الشهيرة وأخذ يسير بحذاء نهر السين وشاهد المراكب السياحية تحمل السياح الأمريكان واليابانيين تطوف بهم فوق صفحة النهر وتساءل هل يأتي عليه يوم يقوم فيه مثلهم بالفسحة والاستمتاع في فرنسا وإنفاق المال ببذخ ، لا الحضور من أجل جمع ثمن الكتب والملابس للعام الجامعي.

ظل جالسًا على النهر حتى المساء ثم توجه إلى عاطف مرة ثانية بعد أن ضمن عودته من العمل لكي ينقذه من الغرفة القذرة التي ابتلاه بها في الليلة السابقة .

ضحك عاطف بشدة وهو يرى أمارات الانزعاج والغضب بادية في صوته وعلى محياه وهو يحكي عن قذارة الغرفة والحمّام والفندق كله .

قال عاطف : واضح أنك مش وش بهدلة . أجاب : بهدلة الشغل مقدور عليها ، أما حياة الحيوانات فشيء آخر . كان عاطف يطهو دجاجة مع صينية بطاطس بالفرن وأصر أن يدعوه إلى الطعام فرحب بالدعوة . بعد الأكل قال لعاطف : ما أريده بشدة هو أن أستحم ، فهل لديك حمّام؟ أجاب عاطف بالنفي وأضاف إنه يخرج كل ثلاثة أيام ومعه الفوطة والليفة والصابونة إلى حمام قريب بخمسة فرنكات حيث يستمتع بحمام ساخن عظيم .

بعد الشاي أخذه عاطف وقصدا فندق الرجال العظماء مرة أخرى . شعر والفندق يدنو بأن معدته تصعد إلى حلقه ، ورجاه أن يذهب به إلى أي مكان آخر ، فقال عاطف : الفنادق كثيرة يا صاحبي لكني أشفق على ميزانيتك العليلة من أسعارها . . عندما تجد عملاً فإن الظروف ستتغير تلقائيًا ، وأنا شخصيًا عشت بهذا المكان لفترة قبل أن أستقر في سكني الحالي ، وأؤكد لك أن الوضع بالفندق هذه المرة سيكون مختلفًا . استسلم في يأس وهو يدخل إلى غرفة بها ثلاثة أشخاص سلموا على عاطف في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حرارة وجلسوا يتضاحكون . . من الواضح أن عاطف يعرف الكثيرين من نزلاء الفندق الوضيع ! . لاحظ أن الغرفة مرتبة وسكانها منظمون يعلقون ملابسهم على شماعات ولديهم دولاب يحفظون به أغراضهم والأهم أن رائحة الغرفة محايدة، ووضح له أنهم مصممون وهم يسكنون بهذا المكان البشع أن يحافظوا على الحد الأدنى من آدميتهم حيث رآهم مهندمين ولا يتسم مظهرهم بالقذارة مثل سكان الغرفة الأخرى . عرف أنهم أصدقاء يعملون معًا ولا يقبلون أن يسكن معهم غريب . بصعوبة شديدة قبلوا رجاءات عاطف بأن يقبلوه معهم لأيام قليلة حتى يدبر أموره وطمأنهم عاطف بأن القادم الجديد يختلف في السلوك والأخلاق عن سكان الغرف المجاورة الذين يعلو صراخهم وسبابهم في جوف الليل عندما يختلفون على أماكن النوم . شعر بارتياح إليهم وبعد انصراف عاطف كرر شكره ووعدهم بأنهم لن يشعروا بوجوده كما أنه سيدفع نصيبه في الإيجار مثلهم .

كان الثلاثة طلبة في كلية الطب جامعة القاهرة يأتون لفرنسا للعام الثالث على التوالي . أخبروه أنهم يعملون ليلاً في سوق للخضروات واللحوم يقع خارج باريس ويعودون في الصباح ويقضون النهار في النوم . أسعده خبر عملهم الليلي بشدة لأن السرير الصغير قد يكون خاليًا معظم الليالي، لكنه مع هذا سألهم إن كانوا يستطيعون أن يأخذوه ليعمل معهم بالسوق . رحّب خالد وهو زعيمهم فيما يبدو وطلب منه الاستعداد للنزول بعد قليل، بينما تشكك زميلاه في قدرته على احتمال

العمل الشاق بالسوق نظراً لحجمه الصغير نسبيًا . شعر بالفرحة لفرصة العمل التي اقترحوها رغم إحساسه بالأسف على فرصة النوم على السرير التي لاحت لثوان ثم ضاعت ! .

كان السوق يقع خارج باريس بعد منطقة فرساي . وصلوا إليه عند منتصف الليل، وأخذه خالد من يده وعرّفه بالباترون الفرنسي الذي استخف به لصغر حجمه وسأله إن كان يستطيع أن يصمد للأحمال التي يتعين عليه نقلها؟ طمأنه خالد قائلاً: إنه على ضمانتي، وحصل على موافقته.

والحقيقة أن التجربة كانت في غاية المشقة والصعوبة . كل اثنين من العمال يتوليان أمر شاحنة فيقوم أحدهما بالصعود إلى داخلها ويبدأ في مناولة من يقف بالأسفل صناديق الفاكهة وأقفاص الخضار، فيقوم هذا برصها على الرصيف . استطاع أن يصمد لمدة ساعتين متصلتين للعمل الشاق، ولم تكن هناك دقيقة واحدة للراحة وشعر أنه حمل من الأقفاص والصناديق في هاتين الساعتين ما يزيد على ما حمله طوال التسعة عشر عامًا التي تشكل عمره كله . لكن الذي جعله يرفع الراية البيضاء ويوقن من الفشل في الاستمرار هو الشاحنة الأخرى التي كانت محمّلة بذبائح الأبقار والجاموس الضخمة . وجد نفسه يأخذ الفخذة على كتفه ثم يهوي بها إلى الأسفل من ثقلها . أسرع خالد إليه قبل أن يراه الباترون ورفعها عنه وظل يعاونه حتى مرت الليلة على خير . في الصباح ركب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معهم الأوتوبيس وعاد إلى الغرفة منهكًا خائر القوى فارتمى على الأرض ونام.

عندما استيقظ هرع إلى الشارع يبحث عن مكان يستحم فيه ودلّه أولاد الحلال على حمّام بشارع سان ميشيل. كانت سعادته لا توصف عندما وقف تحت الدش ورأى الماء الساخن ينزل على جسده ويزيل إحساسه بالقذارة. خرج وهو يشعر بالرضا لأنه رغم صدمته في الفندق الوضيع المليء بالصراصير، كان محظوظًا فعثر على عمل من ثاني يوم وهو الأمر الذي لا يصادفه الطلبة المصريون عادة، وسكن بصحبة طلبة يشبهونه على عكس الغرفة الأولى التي حفلت بأصناف غير مريحة بالمرة، لكنه عقد العزم على أن ينتقل إلى سكن محترم بمجرد أن يأخذ أول قبضية ويبدأ في تذوق الفرنكات الفرنسية. لم يكدر إقامته مع طلبة الطب الثلاثة سوى أن أحدهم واسمه ياسين أيقظه من النوم أكثر من مرة وطلب منه النزول إلى الشارع وإخلاء الغرفة لأن صاحبته ستحضر بعد قليل.

كان ياسين دائم الحديث عن صاحبته، كثير التغني برقتها وحسنها بشكل تمنى معه أن تكون له هو أيضًا صاحبة مثلها. الغريب أنه بعد أن رأى صاحبة ياسين الدميمة شعر بالغضب ليس فقط لذوقه الرديء ولكن لأنه شخصيًا لم يكن ليوقظ رجلاً "شقيان" من نومه لأجل هذه!

من الأشياء التي يذكرها عن عمله بهذا السوق أنه التقى فيه بشخص كان ملء السمع والبصر في مصر بعد عدة سنوات هو أشرف سعد صاحب الشركات الشهير الذي فتح المسؤولون له أحضانهم ونالوا عطاياه السخية من فلوس الناس واستمتعوا بكشوف البركة التي مكنتهم من مشاركته أموال الغلابة، ثم عصفوا به في نوبة غدر ليست مستغربة عليهم!. ومما يذكره أن أشرف كان في غاية الرجولة والشهامة، وقد حمل عنه أثقالاً من اللحوم وساعد في مد أجل وجوده في هذا العمل لأسبوعين آخرين.

لكن في النهاية كان لا بد أن ينكشف، فهو لم يخلق لهذا العمل الذي يحتاج لقوة جسمانية هائلة لا يملكها. انتهى الأمر بإعطائه حسابه وصرفه من العمل.

لم يصدق نفسه وهو يقبض في يده ثلاثة آلاف من الفرنكات عن أيام عمله بالسوق.

والحق أن هذا العمل المضني كان يدفع أكثر من أي مكان آخر طبقًا لما أخبره به خالد، ولهذا كان حلم كل الطلبة المصريين.

بعد أن أمسك بالفلوس لم يتردد فسلم على خالد ورفيقيه معانقًا وشكرهم على قبولهم له بالغرفة ثم دفع نصيبه من الإيجار وانطلق إلى الشارع ومعه حقيبته فقصد فندقًا آخر بالحي اللاتيني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم ينخدع بمنظره من الخارج وخشي أن يكون من الداخل مزبلة فقام بفحصه جيداً قبل أن يتورط بالحجز ودفع النقود، ولم ينس أن فندق الرجال العظماء يبدو من الخارج آية في الروعة والبهاء. صعد كل طوابق الفندق وأخذ يتشمم ردهاته ويعاين حماماته ثم طلب أن يحصل على غرفة وحده. وحتى بعد أن حصل على المفتاح من الموظفة طلب منها أن تؤكد له أن الغرفة ستكون له وحده، ولم يبال بالدهشة في عينيها وأصر أن يسمع منها الإجابة، فاصطحبته إلى الغرفة وفتحت الباب بالمفتاح وتركته وسط الغرفة يحملق في السرير الجميل الذي افتقده بشدة طيلة الأيام السابقة التي افترش فيها ملابسه ونام فوقها على الأرض.

وكان سعيداً للغاية بالتواليت الصغير الملحق بالغرفة لأنه حتى هذا الصباح كان يغادر البناية كلما رغب في دخول الحمام ويقصد أحد المطاعم بالشارع وبعضها كان يطرده ولا يسمح له باستعمال الحمام!. ولم يقلل من سعادته أن الحمّام ذا الدش الساخن كان في الردهة خارج الغرفة من أجل استعمال نزلاء الطابق كله.

نظر من شباك الغرفة فأبصر مطعماً تونسياً بالأسفل. هبط ودخل إليه وتناول طبق كسكس وطبق مرجاز وتعرف على مجموعة التونسيين العاملين وصارحهم بأنه يحسدهم على لغتهم الفرنسية التي تجعل ولوجهم إلى المجتمع الفرنسي سهلاً، على العكس من المصريين الذين يجدون عناء في التواصل مع هذا المجتمع، لكن التونسيين لم يشاركوه

الرأي وأخبروه أن لغتهم الفرنسية هذه لا تكفل لهم التواصل مع الفرنسيين الذين ينظرون إليهم باستعلاء ولا تمنحهم سوى أحط الأعمال إن وجدت!.

سرح في فكرة أن أحط الأعمال هذه هي حلمه هو ورفاقه من المصريين الطلبة.. وغير الطلبة!.

(3)

قضى الأيام التالية في باريس كسائح حقيقي، فقام بزيارة متحف اللوفر ومتحف أورسي وخطف رجله إلى قصر فرساي وصعد إلى برج إيفل وجالس الفنانين والرسامين في مونمارتر، كما استقل مركبًا عائمًا طاف به المدينة في رحلة سياحية. كان يريد أن ينفض عن روحه فزع الأيام التي قضاها في "فندق الرجال العظماء" الذي تأنف سكناه الحشرات والقوارض رغم أنها تسكنه!. وعندما كان يمر إلى جواره كانت معدته تتقلص وكان عقله يستحضر لاإراديًا رائحة المكان. في هذه الأيام القليلة الجميلة تعرف في السوبر ماركت للمرة الأولى على منتج عجيب هو أكياس الشيبسي التي لم تكن قد دخلت مصر بعد ووجدها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اختراعًا ممتعًا للغاية، وانتابه شعور يشبه ما حدث للفنان علي الشريف في فيلم الأرض عندما شاهد الناس في البندر يأكلون طعمية في عيش فينو فقال قولته المشهورة: ياما انتوا ممتعين نفسكم يا أهل مصر!.

كان يخرج في الصباح يسير على ضفة نهر السين ثم يجلس على دكة من تلك المنتشرة على الممشى السفلي المحاذي للنهر وكان بفعل الفراغ والدعة كثير الشرود والتأمل، وألحت عليه كثيرًا أفكار عن الغنى والفقر والتقدم والتخلف بعد أن شاهد مصريين من خريجي الجامعات بالإضافة إلى أفارقة وآسيويين وهم يعتمدون في غذائهم على صفائح الزبالة. وجرحه إلى أبعد حد نصيحة قدمها له مصري قديم يغسل الصحون منذ 20 سنة عندما أراد أن يخدمه فأخذه من يده إلى تجمع كبير لصناديق القمامة وفتح أحدها ثم مد يده وأخرج بعض حبات الخوخ والموز المعطوبة جزئيًا وقال له: خذ.. مد يدك، غيرك يتمنى يعرف هذا المكان.. تستطيع أن تعتمد على هذا المخزن في غذائك وتوفر نقودك لأشياء أهم!!. شعر وقتها بإهانة وجرح عميقين ولم يفهم مع تقديره لحسن نية الرجل كيف تصوره سيفرح بعيشة الكلاب الضالة هذه؟ وهل تتبقي للإنسان روح تسمح له بالتمتع بأشياء أخرى إذا وافق على أن يتغذى على الفضلات؟.

طافت بخياله صورة زملائه الأكبر في الجامعة الذين سبقوه في السفر وعادوا يرتدون بنطلونات الجينز الأصلي ويدخنون المارلبورو ويحكون

قصصًا كاذبة عن أيامهم ولياليهم المظفرة في أوروبا، ولم يعد يصعب عليه الآن تصور أين كانوا ينامون وماذا كانوا يأكلون حتى يوفروا فلوسهم لأشياء أهم!.

انسلت الأيام الحلوة سريعًا من بين يديه وبدأ يشعر بالخطر عندما اكتشف أن ما تبقى في جيبه من نقود لن يصمد لأيام قليلة يعود بعدها لحياة الشقاء والسكنى المرعبة، فأخذ يجد في البحث عن عمل في كل أنحاء باريس. كان بحثه مركزًا في المطاعم التي تغص بها المدينة والتي لا شك تحتاج إلى من يغسلون الصحون. كان يركب المترو وينزل في أي محطة ثم يطوف بالمطاعم ويدخلها واحدًا واحدًا وبعد أن يتلقى الرد السلبي المعتاد يذهب إلى حي آخر ويعيد المحاولة، لكن كان واضحًا أن العمالة في باريس كانت فائضة والأجور طبعًا متدنية وكان على استعداد لقبول أي أجر، لكنه لم يظفر بأي فرصة رغم بحثه الدؤوب.

الآن لا مفر من مغادرة باريس.. هكذا حدث نفسه، خصوصًا وأنّ أوان جمع العنب قد اقترب، وهو الحدث الذي ينتظره آلاف الطلبة المصريون، لكن مشكلته أنه لا يدري إلى أين يذهب وأي القطارات يركب وفي أي اتجاه؟ لم يتوقع أن يدله أحد ببساطة ويعطيه معلومة مفيدة في هذا الشأن.. كانت الأنانية تفتك بالشباب وتجعل كل من لديه علم عن أماكن محتملة للشغل يطوي عليه صدره خشية أن تطير الفرصة لغيره.. بالعكس انتشرت في تلك الأثناء المعلومات المضروبة التي كانوا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمررونها لبعض بغية إفساح الطريق لأنفسهم والوصول قبل غيرهم إلى مزارع العنب. لقد عرف أن مزارع العنب تقع في الجنوب. . فليذهب جنوبًا إذن. ذهب إلى أحد المكاتب التي تقدم خدماتها للسائحين وحصل على خرائط وكتالوجات عرف منها ومن أصدقائه التوانسة الذين يعملون بالمطعم أسفل فندقه مدنًا مثل "نيم" و"أفينيون" تنتشر مزارع العنب في الأرياف المحيطة بها.

وذات صباح كان يسير على ضفة النهر بجوار كنيسة نوتردام يفكر في الأيام المقبلة عندما صادف عصام وهو أحد الطلبة الذين التقاهم من قبل بالفندق الوضيع، وكانت له هناك واقعة مشهورة عندما اختلف مع زميل له على بكرة ورق تواليت لأيهما تكون، وقد دخلا في عراك شديد وخرج كل منهما متورم الوجه، وفي هذه الليلة كان سبابهما المقذع يخترق الجدران ويكاد يصل إلى الشارع. هذا وقد أسماه رفاقه في الغرفة بعد هذه الموقعة "عصام تواليت".

فاجأه عصام وهو يسير معه قائلاً: إن سكان فندق الرجال العظماء يتحدثون عنك باعتبارك المحظوظ الأكبر الذي وجد عملاً بمجرد وصوله ويسكن الآن لوكاندة نظيفة في غرفة بمفرده. قال له: يا ساتر يا رب. أكمل عصام: وهم كذلك يتناقلون الحكايات عن المرأة العجوز التي تعيش معها وتنفق عليك من وسع!. صاح مشدوهًا: أي امرأة تلك التي تصرف عليّ؟ من أين أتوا بهذا الهراء؟ قال عصام: لقد شاهدك

بعضهم تتناول الطعام بمطاعم يعملون بها، وهذا ما جعلهم يتحدثون عن شنطة الفلوس التي عثرت عليها أو عن العجوز التي تؤويك، وهذه لعلمك هي السبل الوحيدة التي يفهمونها للنوم في مكان نظيف وتناول طعام طيب في فرنسا!

ضحك طويلاً على الخيال الخصب الذي يزوده الحرمان بالوقود كل يوم. قال عصام جادًا: وحياة الأخوية يا شيخ لو كان في حياتك امرأة عجوز حقًا. . اطلب منها أن تعرفني بصديقتها لأنني لم أعد أحتمل النوم على البلاط، واستطرد: هل تصدق أنني لم أستحم منذ ثلاثة شهور وأصبحت أخجل من ملابسي الداخلية التي فقدت لونها الأبيض الأصلي وأصبحت بني في أسود!. شهق في فزع: ثلاثة أشهر يا ابن المعفنة. . وكيف تحتمل نفسك؟ رد عصام: أنا هنا منذ سنتين، أتيت بعد الامتحانات ولم أعد إلى معهد التعاون مرة أخرى وبالتأكيد رفدوني، لم أعمل طيلة السنتين إلا أيامًا معدودة في التنظيف بمحل "تاتي" قرب محطة "بير حكيم" لكنهم سرعان ما استغنوا عني وعينوا أفريقيًا من السنغال، لكن لا يهم. . أنا وأنت يا فرنسا والزمن طويل، لن أعود قبل أن أحقق أحلامي كلها.

رد عليه: أنا متفائل بشأنك يا عصام وأشعر أنك ستعثر قريبًا على عجوز أحلامك وأنها ستأخذك تحت الدش وتدعك جسمك بالحجر وتحقق لك باقي الأحلام بالنوم على مرتبة ومضاجعة حسناء الحي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللاتيني التي أسعدت جنود الحلفاء عندما حرروا باريس عام 45 . .
تفاءل يا رجل وهيا لأدعوك على واحد قهوة عند "شي ماريان" .

بانت السعادة على وجه عصام وقال: أولاد الناس أمثالك هم الذين أعانوني على البقاء كل هذه المدة . . كوب شاي من هنا وسيجارة من هناك، فلتحيا الجدعنة وربنا يخلي لك المرة العجوز التي ترعاك في الغربة! . قال هذا وتأبط ذراعه ومضى نحو المقهى . لاحظ نظرات الناس لهما فانتبه إلى أن الناس ينظرون بريبة إذا رأوا شابًا يتأبط ذراع شاب آخر . صحيح الحرية هناك مقدسة لكنك لن تسلم من النظرات . سحب ذراعه من عصام بسرعة . في السنوات التالية لاحظ تغيرًا ملحوظًا في الغرب تجاه هذه الظاهرة حتى صار من العادي الآن بالنسبة لهم في أوروبا تبادل السلام مع الأحضان والقبلات بين الرجال . . هذه العادة التي تعلموها من العرب! .

سار معه في شارع سان ميشيل وقبل أن يبلغا المقهى بدأ المطر يهطل . لم تكن معهما مظلة فاحتميا بأحد المحلات . لاحظ أن شخصًا مُسنًا يحدق فيهما بصورة ملحوظة . . أشاح بوجهه ثم عاد يتفقد الرجل فوجده ما زال شاخصًا ببصره نحوهما . نظر إلى عصام قائلاً بصوت خفيض: هذا الرجل ينظر إليك فهل تعرفه؟ أجاب عصام: ألاحظ نظراته ولا أعرفه لكني سأتعرف إليه حالاً فربما يكون لديه ما ينفعنا . ابتسم للرجل الذي رد بابتسامة متسعة وتقدم منهما مخرجًا علبة سجائره

فقدم سيجارة تناولها عصام على الفور ثم قدم له هو أيضًا واحدة لكنه لم يقبلها لارتيابه في الرجل .

قال عصام: حلو . . عشاء الليلة سيكون على هذا الفرنسي العجوز .

عاجله قائلاً: كنت أظن تحقيق أحلامك منوط بامرأة عجوز لا رجل .

قال عصام: لا فرق . . كلهم كائنات طيبة يرسلها القدر لنأكل ونجد نومة طرية! .

حاول أن يفرمل اندفاع عصام فقال: تمهل حتى تعرف أولاً ماذا يريد منك .

رد باستهانة: أيًا كان ما يريد فهو عندي! .

أدهشه استعداد عصام لكل أنواع التنازلات . كان الرجل يتابع حديثهما ثم تشجع وسأل: أراكما تتحدثان العربية فهل أنتما مغاربة؟ قال عصام: نحن من مصر . صاح: آه مصر . . الهرم، أبو الهول، الكرنك، الصحراء . . وماذا تفعلان في باريس؟ قال عصام: جئنا نبحث عن عمل . . هل تعرف أحدًا يقوم بتشغيلنا في باريس أو في مزارع العنب بالجنوب . لمعت عينا الرجل وقال: نعم أستطيع تشغيلكما في مزرعة ابن عمي في بلدة "سان بازيلي" في الجنوب .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رغم قلقه من الرجل فقد شعر بسعادة وتمنى أن تكون هناك فرصة شغل حقيقية. هنا قرر الرجل أن يطرق الحديد وهو ساخن فقال: يسعدني أن أستضيفكما في شقتي في شارع "الهارْب" على بعد خطوات، ثم أذهب بكما في عطلة نهاية الأسبوع إلى الجنوب. قال عصام: هذه فرصة ذهبية لا يجب أن ندعها تفلت.

لاحظ عصام تردده فاستحثه قائلاً: سكن مجاني وفراش بغطاء ومرتبة وفرصة عمل بالجنوب وما زلت تفكر. قال: وما المقابل الذي سيطلبه لقاء كل هذا؟.. من الواضح أنك تفهم قصدي. رد: نعم أفهم قصدك لكني حسن الظن بالناس وما زلت أثق بوجود الخير بالدنيا على عكسك!. لم يتمالك أن يقول لعصام بصوت خفيض: آه يابن الفاجرة!.

في هذا الوقت كانت نقوده في الرمق الأخير وكان نزوحه إلى فندق الرجال العظماء أمراً محتماً في خلال يومين إذا لم تحدث معجزة فقرر أن يغامر بالذهاب معهما.

صعد الدرج مع عصام ومع الرجل الذي قدم نفسه باسم دانييل ومنه عرفا أنه يعمل بكتابة الروايات. في داخل الشقة أشار إلى زجاجة نبيذ متسائلاً: أصدقائي المغاربة يشربون، فهل أنتما مثلهم أم أن لديكما تحفظات دينية على الخمر؟. سارع عصام: نحن نحب النبيذ جداً لكننا اعتدنا أن نأكل أولاً.. فهل لديك ما يؤكل؟. قام دانييل إلى الثلاجة

وقال: عندي شرائح من لحم الخنزير المقدد هل أجهزها لكما؟ رد عصام: نعم وبسرعة من فضلك لأني أكاد أموت جوعًا.

لم يفهم طبيعة الظروف البشعة التي جعلت من عصام ما هو عليه.. خمر ماشي، خنزير لا بأس، امرأة أو رجل عجوز أهلاً وسهلاً.

قام فاستأذن ليذهب إلى الفندق القريب لإحضار حقيبته. سأله عصام: ألا تنتظر حتى تتعشى معي؟ فرمقه بقرف دون أن يرد.

ذهب إلى الفندق وتناول ساندوتش ثم عاد بالحقيبة فوجد عصام يلتهم وجبة من لحم الخنزير والبطاطس. بعد العشاء اقترح الرجل الصعود للطابق الأعلى حيث حجرة النوم. كانت الحجرة تضم سريراً كبيراً قال دانييل إنه يكفي ثلاثتهم.

شكره برفق وطلب منه أي شيء يفرشه على الأرض مع غطاء. تململ دانييل وأكد على أن نومة الأرض غير صحية بالمرة فلما لمس إصراره وضّب له ركنًا ينام فيه، أما عصام فكانت فرحته بالسرير لا توصف.

لم يلبث حتى غرق في النوم وهو يحلم بالعمل في مزرعة العنب ويحلم بأن يزور بقية المدن الفرنسية قبل أن يعود إلى مصر مظفراً، لكن أيقظه من حلمه صوت اهتزازات مجاورة يسمعها. فتح عينيه وكانت الدنيا ظلامًا لكن صوت لهاث وهمهمات وهزات ما زال مستمراً. اعتادت عيناه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الظلام فأبصر فوق السرير شبحًا يعتلي شبحًا آخر ممددًا، ولم يكن صعبًا رغم الظلام أن يميز ما يحدث فشهق مندداً: الله يخرب بيت أمك. . ماذا تفعل يا ابن الحرام؟ فجاءه رد عصام وهو في خضم الأكشن في منتهى الغضب والعصبية: اخرس ولا تفتح فمك نهائيًا. . يكفي أنك نائم في الأمان وتاركني أنا أدفع فاتورة إقامتك. . يعني أنت لا ترحم ولا تترك رحمة ربنا تنزل، ثم أضاف في حزم: لا أريد منك دروسًا في الأخلاق بعد الآن واتركني في حالي. . فاهم؟

انكمش على نفسه في ذهول يحاول هضم ما يحدث وانتابه إحساس مرير بالضياع، ولم يدرِ ماذا يفعل ولا ما تخبئه الأيام القادمة.

(4)

في الصباح التالي أفاق من نومه على يد تمتد إليه بشكل غير بريء. نظر فوجد دانييل يرقد إلى جواره على الأرض. انتفض صارخًا وهو يسب ويلعن، الأمر الذي ألقى الرعب في قلب الفرنسي العجوز فتراجع في فزع وهو يكرر اعتذاره.

قال لدانييل: أنا صحيح أحتاجك لتذهب بي للعمل في مزرعة قريبك لكن هذا لا يعني أنني سأقبل هذه الأشياء، ثم مضيفًا: إذا أردتني أن أغادر بيتك فسأنصرف فوراً.

قال دانييل: لا عليك. . آسف إن أغضبتك، يمكننا على أي حال أن نكون أصدقاء. . ثم مضى مبتعداً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغريب أنه بعد أن قام بتسوية الأمر مع دانييل وحسم هذا الموضوع بدأ يكتشف أن بالرجل على الرغم من دائه اللعين صفات طيبة، وأنه على العكس من رفاقه المصريين لا يغش ولا يكذب، وأيقن أن الفقر ينجح بجدارة في اغتيال البراءة والنزاهة ويزرع مكانها صفات منحطة، ووقر في نفسه من يومها أنه لا الأديان ولا المواعظ ولا النصح والإرشاد يمكنها أن تنشر الفضيلة بين الجياع.

أخذ دشًا سريعًا ونزل إلى الصالة فوجد عصام يجلس أمام التليفزيون وأمامه طبق بيض مقلي يأكل منه في نهم.

كان يجلس أيضًا ضيف مغربي اسمه محمود وهو من أصدقاء دانييل. نشأت مودة سريعة بينه وبين محمود المغربي فاقترح عليه النزول وتناول قدح من القهوة في الشارع. من محمود عرف أن دانييل يعد واحداً من أكبر الروائيين في فرنسا وأن مكانته الأدبية محفوظة وسط المثقفين، وعرف أيضًا أن محموداً متزوج من ابنة أخت دانييل وأن الأسرة كلها متوجهة في الغد إلى بيتهم الريفي في الجنوب.

تشجع ووجه لمحمود سؤالاً كعربي مسلم عن رأيه فيما يفعله دانييل وهل يراه عاديًا! قال محمود: الأمر هنا يختلف عنه في بلادنا. الحرية هنا أعز على الناس من الحياة، وما يفعله دانييل هو صورة متطرفة من صور ممارسة الحرية، وعلى أي الأحوال فإن أحداً لا يدفع ثمن الخيارات سوى الشخص الذي اختارها، وأنا شخصيًا أتوقع لدانييل نهاية تراجيدية

فاجعة على يد أحد الرعاع الذين يحضرهم من الشارع. قال هذا ثم انتبه إلى أنه يتحدث إلى واحد منهم فبادر بالاعتذار، ودعا هذا صاحبنا إلى التأكيد على أنه ليس من هؤلاء وإنما هو طالب عمل لا أكثر. قال محمود: أنا أصدقك وأراك مختلفًا عن النماذج الغريبة التي أراها بصحبته، وأضاف: أنا أحضر إليه كل يوم لأطمئن عليه عملاً بوصية زوجتي التي تخشى على خالها الذي كفلها ورباها بعد وفاة والديها. سأله محمود عن عصام ومدى معرفته به فقص عليه لقاء الصدفة الذي جمعهما في الطريق، وبدا أن محمود غير مستريح له.

ترك الشاب المغربي وهام على وجهه حتى المساء وشعر بأنه لا يريد أن يعود ويقضي الليلة في بيت دانييل حتى لا يشهد منظراً فاجعًا كالليلة الماضية، ودعا الله أن تمر ساعات الليل على خير وفي الصباح يكون السفر إلى الجنوب.

ذهب إلى المطعم التونسي وروى لأصدقائه بالمطعم الحكاية مع دانييل فوافقوا على أن يسمحوا له بالمبيت داخل المطعم حتى الصباح.

أفاق مبكراً وعنقه يؤلمه من النوم على الكرسي وذهب من فوره إلى شقة دانييل وأخذ حقيبته وتوجه إلى محطة القطار بصحبة عصام بعد أن أخذ منهم الخريطة التفصيلية إلى بلدتهم التي كانت على مسافة ساعتين بالقطار، وذهب دانييل مع ابنة أخيه وزوجها المغربي بالسيارة، وعلم أنه يهوى الذهاب للبيت الريفي كثيراً ليكتب في هدوء.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كانت بلدة سان بازيلي شديدة الهدوء والصفاء وتمني وهو يخطو بها خطواته الأولى أن يقضي بقية عمره بها . أسعده أن يجد الورود تملأ الشرفات وأحس براحة وهو يتمشى في طرقاتها الضيقة الحميمة . بعد يومين بدأ العمل في جمع العنب، وكان هناك رجل يشرف على العمل ويقوم بتحديد المناطق وتوزيع المهام على العاملين الذين كانوا خليطًا من الأسبان والمغاربة والمصريين . أشجار العنب بطبعها منخفضة وعملية الجمع كانت تقتضي الانحناء والسير والتنقل على وضعية القرود لساعات طويلة حتى انه في نهاية اليوم كان يجد صعوبة في فرد ظهره والعودة إلى وضعية الإنسان من جديد .

قضى دانييل بضعة أيام بالبلدة في بيته ومعه قريبته وزوجها ومعهم عصام! أما هو ففضل أن يعيش بالعنبر الخشبي الكبير الذي يبيت به العمال ورفض دعوة دانييل، كما لم يلتفت لكلام عصام عن النومة المريحة والطعام الطيب وباقي الأسطوانة المقززة، ولم يستطع أن يتخلص من إحساس النفور الذي لازمه تجاهه، وقد لاحظ عصام هذا فلم يعد يتحدث إليه كثيراً . لقد شعر بعدما رأى محصول العنب وتسلم الشغل أنه إنسان حر، ومن يومها وهو يحترم العمل ويقدسه ويراه من أسباب عزة الإنسان وعاصمًا له من الذل مهما كان نوعه وأيًا كانت مشقته .

في الأمسيات كان يذهب إلى واحد من المقاهي القليلة بالبلدة ويتناول طعامه هناك ويظل يثرثر مع الناس الذين يرحبون بأي مستمع . أما في

أيام السبت والآحاد فقد كان يذهب إلى شاطئ النهر ويجلس على دكة خشبية ومعه واحداً من الكتب التي اصطحبها معه من مصر . وعلى هذه الدكة الخشبية تعرف على كاترين ذات الثمانين عامًا التي أنست إليه وظلت تحكي له بلا انقطاع حكايات من الحرب العالمية الأولى وقت أن كانت فتاة مراهقة، ثم عبرت فترة ما بين الحربين وقصت عليه روايات من الحرب الثانية بعد أن دهست جيوش النازي بلدتهم وقت أن كانت زوجة وأمًا، وقصت عليه حكايات عن المقاومة الشعبية ثم ختمت بوفاة زوجها ورحيل الأبناء والبنات بعيداً عن البلدة .

الغريب أنه كان يشعر براحة مع كاترين وكان يفضل قضاء الوقت معها عن الجلوس مع الأسبان رفاق العنبر الذين كانوا لا يرحبون بالغرباء، كما كان يفضلها عن صحبة عصام وأمثاله من المصريين العاملين معهم والذين لم يشعر برغبة في مجرد التعرف عليهم .

ووسط كل هذا الجمع نظر حوله يبحث عن ابنة صاحب المزرعة التي بشرته الأساطير بأنها ستقع في هواه من أول نظرة وتتزوجه ثم تأتي المرحلة التالية عندما يطلب من حماه أن يستريح بالبيت ويصير هو صاحب المزرعة والسيد الآمر الناهي المطاع فيها . . لكنه لم يجدها، فبحث عن ابنة صاحب الحانة أو ابنة صاحب المخبز أو ابنة أي أحد تقبل أن تصادقه وتخفف أيامه، ثم أدرك عقم المحاولة عندما حاول أن يتخيل نفسه مكان بنت من هؤلاء البنات وسأل نفسه إذا كان ممكنًا أن تتعلق

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بشاب مثل عصام لا يستحم بالشهور ولا يغسل أسنانه أبداً ولا يحسن الحديث بأي لغة مفهومة . . فمن هي الجميلة التي تترك جيرانها وزملاءها من الشباب الفرنسي وتقع في هوى جربوع أجنبي لا قيمة له .

كل العلاقات التي شاهدها تنشأ بين أقرانه الطلبة وبين نساء، كانت بطلاتها ممن أصابهن العطب، فمنهن بائعة الهوى ومنهن شديدة القبح أو العجوز المتعلقة بأهداب الأنوثة . ضحك في سره عندما تذكّر الحواديت التي سمعها قبل أن يأتي إلى هنا من المصريين في الجامعة أصحاب التجارب في السفر عندما كان كل منهم يتحدث ببساطة عن فتاته الجميلة التي تركها في فرنسا أو إيطاليا أو النمسا وما زال يراسلها على أمل اللقاء في الإجازة القادمة، وضحك أكثر عندما مر بخاطره موضوع الصور الفوتوغرافية التي كثيراً ما كانوا يعرضونها على زملاء لهم مع فتيات جميلات كدليل على صدق حكاياتهم عن الصديقات الأوروبيات . الآن عرف الحقيقة بعد أن أصبح لديه هو شخصياً ألبوماً من الصور التقطت له على ضفاف نهر السين مع فتيات لا يعرفهن لا يجدن غضاضة في التصوير مع أي أحد كتذكار! .

أخذت مستحقاته المالية عند "روجيه" صاحب المزرعة تربو وتزيد ولم يكن يأخذ منها إلا القليل الذي يكفي طلباته البسيطة، أما الباقي فقرر أن يدخره مع الرجل وأن يحصل عليه كاملاً بعد نهاية الموسم .

وعاش عصام في كنف دانييل يبيت معه ولا يحضر للعمل بالمزرعة إلا لاماً، و يذهب معه إلى باريس ويعود وقتما يشاء، وبدا أن الدنيا قد ابتسمت له وحقق ما كان يتمناه بالعثور على عجوز أحلامه .

انقضى موسم العنب على خير فتوجه إلى "روجيه" ليأخذ حسابه فعلم أنه في باريس وسيعود خلال يومين، واقترح عليه دانييل أن يرحل معه ومع عصام إلى باريس وهناك يمكنه أن يقابل "روجيه" ويحصل على فلوسه دون أن يضطر لانتظاره . قال دانييل هذا ثم أتبع اقتراحه بمكالمة تليفونية لابن عمه وسأله إن كان بحوزته ما يكفي لدفع كافة المستحقات المتراكمة لديه فكان رده إيجابياً .

ركب السيارة معهما وحطوا جميعاً عند منزل دانييل بالحي اللاتيني . وضع الحقيبة لدى العجوز الفرنسي ونزل إلى الشارع لشراء علبة سجائر .

كان في ذلك الوقت يشعر بسعادة لا حدود لها ونوى بعد أن يقبض راتبه أن يشتري كل الملابس والهدايا والعطور التي حلم بها حتى يكون شكله في الجامعة لائقاً بشاب قادم من باريس! كما نوى أن يرد لأبيه الفلوس التي أخذها منه وأن يحضر له الكاسيت والمروحة اللتين طلبهما، وأن يلبي كل الطلبات الموجودة بالقائمة في الخطاب الذي أرسله له أخوه من مصر وتشمل القائمة طلبات إخوته وأخواته الستة . عقد العزم كذلك على أن يقوم بزيارة إميل الشاب المصري الأصيل الذي مد له يد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العون دون سابق معرفة واستضافه في بيت صديقته دون مقابل وقرر أن يشتري لهما هدية زواج.

كان سارحًا في كل هذا وهو يقف بباب بيت دانييل على ناصية الشارع عندما اقترب منه رجلان أبرزا تصريحًا في وجهه فهم منه أنهما من رجال البوليس وطلبا منه أوراقه. . سألهما في جزع: أي أوراق؟ قال أحدهما أوراق الإقامة وقال الآخر: نقصد جواز سفرك. تردد في إخراج الجواز لأن التأشيرة الحاصل عليها من القاهرة كانت تسمح له بأسبوع واحد فقط وهذا الأسبوع قد انقضي منذ أربعة أشهر! مادت الدنيا به واسودت في وجهه. . لقد كان يعلم أنه سيتم ترحيله فوراً إلى القاهرة. نسي خطته في التجول بالمدن الفرنسية ونسي الهدايا والملابس وزيارة إميل. . نسي كل شيء عدا أنّ فلوسه في حوزة روجيه، وقرر أنه سيعد نفسه منتصراً إذا قبض على الفلوس ثم فليفعلوا به ما يشاؤون. أخرج جوازه من جيبه الخلفي وهو يرجوهما أن يصعدا معه إلى دانييل حتى يتصرف في موضوع الفلوس ثم يذهب معهما حيثما شاءا.

لم يستجيبا لضراعته وأصرا على اصطحابه في سيارة أخذته إلى أحد المباني في حي "شاتليه" وهناك وجد نفسه داخل صالة كبيرة بها أسرّة بدورين يشغلها بشر من كل نوع عرب وأتراك ويوغوسلاف جميعهم سيتم ترحيلهم إلى بلادهم. أخذ يصرخ على الحراس مطالبًا بأن يستمع

إليه أحد. استمعوا اليه ثم أهملوه، وعندما ملّوا من إزعاجه حملوه فوضعوه داخل زنزانة وحده وأغلقوا عليه الباب.

كان شعوره بالحسرة والقهر لا حدود له. نادى على السجان ورجاه أن يقوم من أجله بمكالمة دانييل ويخبره بمكانه فأعرض عنه. تكوم على المرتبة المفروشة في الأرض متكوراً على نفسه وهو يبكي.

في الصباح أخذوه إلى أحد المكاتب وعملوا له ملفًا وأخذوا بصماته ثم أركبوه سيارة شقت طريقها بسرعة كبيرة نحو المطار. في محاولة يائسة طلب من الضابط المكلف بأن يأخذه لدانييل قبل الرحيل. رق الضابط لحاله فغير المسار نحو الحي اللاتيني وصعدوا معه إلى فوق.

دق الجرس فلم يرد أحد فأخرج ورقة كتب عليها ملخص ما حدث وسجل عليها عنوانه وتليفونه بمصر ورجا دانييل أن يرسل له فلوسه، وكتب نسخة أخرى باللغة العربية وجهها إلى عصام.

ظل فترة طويلة يساوره بقايا أمل في المكالمة التي لم يحظ بها أبدًا من عصام أو عجوز أحلامه دانييل!.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهرس المحتويات

مقدمة 9
يومان وليلة في لندن 19
البوليسية يا ساقط! 47
صانعة الكفتة 59
مُنيتي . . عَز اصطباري 75
كازينو مونتريال 89

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن سنيّة أبانوز 111
الرحلة 990 . . على ضفاف المأساة 125
من ضحايا 11 سبتمبر 139
وفاة أعز أصدقائي 153
سفاري 165
أنا والسيناتور . . في تايلاند 177
فرنسا . . وعنب فرنسا 195

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com